دكتور/أحمد حماد



تاريخ اليهود

مشروع رؤية جديدة

الجزء الأول

ملاحظات أولية

الطبعة الأولى ٢٠٠٣

إهداء

الى زوجتي التي صبرت وعانت وحملت معي عبىء الأيام.

أهديها هذا الجهد المتواضع الذي لا يضاهي جهادها معي

"قد أخالفك الرأي، لكنني مستعد
لأن أضحي بحياتي من أجل حقك
في أن تقول كلمتك"

فولتير

***

١ ـ من المعروف أن للبحث العلمي أصول يحترمها كل من اشتغل بالعلم. وأول هذه الأصول هو احترام رأي الآخر حتى لو اختلفت معه علمياً. أسوق هنا هذه الكلمة لأنني أضع هنا عنواناً جانبياً "ملاحظات أولية". وأنا أعني بذلك أن ما سيرد في هذه الدراسة إنما هو طرح أولي خاضع للنقاش البناء ومن الممكن تعديله أوالإضافة اليه، مستفيداً من آراء الآخرين البناءة، وليس من معاول الهدم التي احترفها نفر من مدعي العلم، لا لشيء اللهم إلا لإثبات الذات المدعية وتضخيمها وسط ما نراه الآن من زخم هائل يتجلى في إبداء الاهتمام بالدراسات المتعلقة باليهود قديماً وحديثاً. وسارع أهل الادعاء والمتعالمين باقتحام هذا المجال، الذي ظل فترة طويلة أرضاً بكراً، حتى أصبح الاشتغال بالدراسات الإسرائيلية وإبداء الآراء فيها مهنة لا مهنة له. لكن أهلاً بالأقلام الجادة التي أشرف بالإنصات اليها والتي سأستفيد منها حتماً في تطوير هذا الطرح الذي أرى أنه ضروري من أجل العمل على إرساء قراءة جديدة لهذا التاريخ تنبع من رؤيتنا نحن للأمور وليس من رؤية الآخر التي بات من الواضح للجميع أنها رؤية اعتمدت على توجهات أيديولوجية،

فصاغت التاريخ على هواها بعيداً عن الموضوعية، وقرأت التاريخ من الحاضر الى الماضي وليس العكس،من أجل ترسيخ المفاهيم الأبديولوجية الآنية التي تروج لها. وضاعت الحقيقة بين جنبات هذه التوجهات . لذا أرى أنه قد حان الوقت لتضافر كل الجهود الجادة "غير المدعية" و"غير المتعالية" لإعادة الأمور الى نصابها وحتى نقرأ التاريخ كما نراه نحن بعيوننا وليس بعيون الآخرين.

١ـ ١ ولنا الآن أن نطرح هذه التساؤلات علّها تقودنا الى وضوح الرؤية في منهجنا الذي نطرحه هنا.

- لماذا نحاول دائماً تسفيه رؤي"الأنا"الذاتية في التعامل مع مناهج "الآخر" الغربية؟

- لماذا تحيز الفكر الغربي، والأمريكي بالتبعية، للخطاب التوراتي ضد تراث المنطقة؟

- هل يقودنا هذا المدخل الى فهم تحيز المنهج الاستشراقي المحمل بالمفاهيم الأيديولوجية.أي المنهج الذي يعبر عن أيديولوجية غير مبررة لتوظيف التراث التوراتي/الشرقي لصالح الأيديولوجية الغربية ، بما تحمله من مفاهيم تعمل على محورة التاريخ حول التاريخ الغربي الذي يعتبر نفسه وريثاً شرعياً للتاريخ التوراتي ؟

- ألا يعني التحيز في الخطاب الاستشراقي الغربي نفي الآخر؟

للرد على كل هذه الأسئلة/التساؤلات،لا بد من أن نحدد أولاً مفهوم التحيز؛ والذي أرى أنه يفيد كثيراً في تحديد رؤية واضحة للمنهج .

لا بد من أن نوضح في البداية أن تصورنا لوجود صوت مستقل ونماذج معرفية قد تتفق وقد تختلف عن النماذج المعرفية السائدة، لا يعني أنه إنكار لقيمة النماذج المعرفية لدى الآخر؛ بل العكس، فقد يعني

ذلك أننا نريد أن نقف الى جوار الآخر بنماذج معرفية نابعة من الذات ولا تقل بأي حال من الأحوال عن نماذج الآخر المعرفية.أي أننا هنا نحاول أن نضع الذات الى جانب الآخر. ولنكن أكثر وضوحاً، ليس كل ما يأتي من الغرب مقولات مسلم بها ويجب الأخذ بها، لأن هذا هو نفي للذات واستكانة دائمة وخضوع منبهر بكل ما لدى الآخر. لذا فإننا ننطلق في هذه الدراسة من محاولة استنطاق القوة الكامنة في الذات دون نفي الآخر، ودون تضخيم الذات أيضاً. ولقد جاء في القرآن الكريم "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير (سورة الحجرات ١٣)". أي أن الله عز وجل لم يشأ أن نكون شعباً واحداً وخلقنا شعوباً لكي يكون لكل منا اختياراته الخاصة وذاتيته المتفردة التي تختلف عن الآخر. لكن هذا لايعني بالضرورة نفي الآخر. نقول هذا لأن الخطاب التوراتي، في سعيه الى التمحور حول الذات اليهودية وتضخيمها (شعب الله المختار) و(الخصوصية اليهودية) قام بنفي الآخر واستبعاده تماماً من الصورة. وهذا في حد ذاته شكل من أشكال التحيز، يقودنا الى الفهم الخاطيء في تحليلنا للخطاب التوراتي. ومع شديد الأسف فإن الدراسات الغربية التي تناولت التاريخ اليهودي، سارت على نفس منوال الخطاب التوراتي وعملت أيضاً على نفي الآخر. ونحن نرى هذا تحيزاً للباطل. فإن الذات اليهودية ومن بعدها الخطاب الغربي، جعلت الذات هي المرجعية الوحيدة المقبولة واسقطت فكرة الحق المتجاوز. ومن جانبنا نرى أن هذا التحيز في الخطاب الغربي إنما هو تحيز داخل التحيز. أي أن الخطاب الغربي انطلق من رؤية محددة من داخل نموذج معرفي آخر له تحيزاته المختلفة، لكنه التقى معها في مفهومه المتحيز. وأغلق باب الاجتهاد أمام الآخر. وقد ساعدنا نحن أيضاً في ذلك فقمنا بنفي ذواتنا

لصالح الفكر الغربي. فتركنا تراثنا وتبنينا تراث الآخر بكفاءة عالية، سواء عن وعي أو بدون وعي، دون فهم لمدلول ما نفعل ودون أن نقوم بعملية نقدية ابداعية لتراثنا وتراثهم ولحضارتنا وحضارتهم. لقد تبنينا نموذجهم الحضاري دون أي إعمال فيه للعقل من جانبنا ومن منطلق الانبهار المطلق بكل ما يأتينا من الغرب. صحيح أن النموذج الحضاري الغربي أصبح يشغل مكاناً مركزياً ومسيطراً في وجدان معظم الشعوب والمفكرين، نتيجة لما يحمله هذا النموذج الحضاري من قدرات تعبوية وتنظيمية مرتفعة ونتيجة لما حققه من انتصارات باهرة، على المستويين المعنوي والمادي في مراحله الأولى، وكانت قمة هذه الانتصارات هي الفلسفات العقلانية المادية البسيطة والواضحة ذات المقدرات التفسيرية المباشرة والمبهرة في ذات الوقت بالنسبة للعقل الآخر، الذي أبدى انبهاره بها وقام بتبنيها والترويج لها. لكن هذه الانتصارات الباهرة التي حققها النموذج الحضاري الغربي ترجمت نفسها الى إحساس متزايد بالثقة بالنفس والى إيمان بأن رؤيتها للعالم هي أرقى ما وصل اليه الإنسان. وهذه هى قمة التحيز لصالح "الأنا". ونتيجة لبساطة النموذج المعرفي الغربي العقلاني ولجاذبيته، وأيضاً لانتصاراته المعرفية التي نرى أنها لم تتأت من قوة ذاتية كامنة فيه بقدر ما كانت نتيجة لضعف الأنا واستلابها واستسلامها ونفيها لذاتها؛ أصبحت محاولة اللحاق بالغرب هي أعلى الأماني وذروة تطلعات المشروعات النهضوية لدى شعوب العالم غير الغربي.

ولعل الاقتباسات التالية توضح لنا أبعاد التحيز الغربي في منهج بحث التاريخ اليهودي/التوراتي.

"لقد كان من حسن حظ ديانة التوحيد ومستقبل بقائها أن الإسرائيليين الذين قاموا بغزو فلسطين كانوا أقواماً همجية تمتعت

بطاقة بدائية وإرادة بقاء لا تلين، حيث أن الهلاك الذي نتج عن هذا الغزو للكنعانيين منع الاندماج الكامل لشعبين شقيقين، ذلك الاندماج الذي كان سينتج عنه حتماً انحطاط القيم اليهودية الى درجة يستحيل إصلاحها. وهكذا فإن الكنعانيين، وما اتصفوا به من عبادة حسية - إذ كانوا يعبدون الخصوبة وكانت رموزهم تأخذ شكل الثعابين والتماثيل العارية- حلت محل أساطيرهم الفظة البدائية، أساطير إسرائيل التي اتسمت ببساطة رعوية، ونقاء في الحياة، وديانة توحيدية رفيعة، وأخلاق صارمة، بشكل مماثل، وبعد ألف عام، فإن الكنعانيين الأفارقة، كما يسمون أنفسهم، أو القرطاجيين كما نسميهم،وأساطيرهم الفينيقية الفظة التي نعرفها من أوغاريت وبيبلوس، والتي تقدم القرابين البشرية وكانت طقوسها لا تخلو من الجنس، قد تمت إبادتها على يد الرومان الأكثر تفوقاً والذين كانت لديهم مباديء أخلاقية عالية كما أن ديانتهم الوثنية الراقية والمتميزة تذكرنا بإسرائيل القديمة" (١)

هذا التبرير لإبادة الشعب الفلسطيني "القديم" كما نجده لدى أحد أهم الباحثين التوراتيين في القرن العشرين، هو شيء بالغ الخطورة والأهمية لسببين: السبب الأول، أنه يعبر بشكل مذهل عن عنصرية سافرة، والسبب الثاني، الأكثر خطورة، هو أن أحداً من الباحثين التوراتيين، لم يعلق على هذه الآراء التي طرحها أولبرايت . ويتطابق وصف أولبرايت للكنعانيين بأنهم حسيون، وغير أخلاقيين مع وصف المستشرقين "للآخر" على أنه النقيض التام للإنسان الغربي العاقل والمثقف. إنه وصف يؤدى الى الحط من إنسانية الشعوب المحلية، مما يؤدي بدوره الى قبول فكرة إبادة هذه الشعوب، مثلما كان الحال مع سكان أمريكا الأصليين، وهذا في رأي أولبرايت شيء يدعو للأسف، ولكن ربما كان شيئاً حتمياً. وهذا الادعاء يتستر وراء فرضية أن

الاستعمار أوالإمبريالية يساهمان في تطوير الشعوب البدائية [٢]

وفي خضم الدفاع المستميت عن الخصوصية اليهودية،يقول رايت: " ما اقتبسته إسرائيل (من جيرانها) كان الأقل أهمية، وقد أخذت هذه الاقتباسات شكلاً مختلفاً تماماً عندما دخلت في سياق العقيدة الإسرائيلية. ما كان في السياق وثنياً،أصبح إسرائيلياً خالصاً،أو أصبح مصدر الشقاق في المجتمع. [٣]

" ندرك الآن فقط ليس من خلال قراءتنا للتوراة،ولكن من مصادر أخرى غيرها،أن الحضارة والديانة الكنعانيتين كانتا من أضعف وأحط وأكثر الثقافات اللاأخلاقية التي عرفها العالم المتحضر آنذاك. وهكذا ، فإننا نعتقد أن إسرائيل كانت الواسطة الإلهية في تدمير حضارة فاسقة، إذ أنه ضمن النظام الأخلاقي للحضارات السماوية يجب تدمير مثل هذا الفجور الفظيع.[٤] "

١ ـ ٢ يقودنا هذا الى طرح قضية تحيزالمصطلح. فمن المعروف أن المصطلح المنقول من حضارة لأخرى يحمل وجهة نظر صاحبه، حيث يضع نفسه في المركز ويرتب الأشياء حوله وفقاً لرؤيته، وفي موضوع هذه الدراسة العديد من المصطلحات التي نقلت من منظور الآخر دون تفكير من جانب الأنا في مضمونها ومحتواها الفكري. فعلى سبيل المثال حينما نقول بقضايا الشرق والاستشراق فهذا من منظور غربي بحت . فمن الذي قال أننا في الشرق، وشرق من ؟ ألسنا نقع الى الشرق من الغرب الأوربي. ونحن بدورنا نقع أيضاً الى الغرب من آخر يقع شرقنا وهلم جرا. ويندرج تحت ذلك أيضاً أي تناول للتاريخ اليهودي من المنظور الصهيوني، ومن بعده المنظور الغربي الاستشراقي. فقد تم عرض هذا التاريخ في هذين المنظورين بمصطلحات تعمل علي ترسيخ

مفاهيم معينة. فالادعاءات الدينية تقول بأنه لا يمكن فهم تاريخ المنطقة إلا من خلال "التاريخ التوراتي". وبالتالي فإننا لسنا أمام تاريخ وجغرافية فلسطين، بل تاريخ وجغرافية "إسرائيل التوراتية". ولو نسبنا هذه الفترة من التاريخ الى إبراهيم لكنا بذلك نقبل تعريفاً توراتياً لهذا التاريخ، وننكر أي تفسير آخر له. كما أن كثير من المصطلحات المستخدمة في علم التاريخ التوراتي توحي بالتحيز. مثل مصطلح "السبي"، و"المنفى" فهي مصطلحات توحي بملكية المكان أكثر مما توحي بالوجود العارض لهذه الجماعات في المنطقة، وكما سيتضح من خلال الدراسة.

ومما يبعث على الدهشة أن المؤلفات اليهودية والتاريخية قسمت أرض فلسطين الى مناطق جغرافية /إدارية، بالطريقة التي تحدث عنها العهد القديم في سفر يشوع، أي بين أسباط "بني إسرائيل". وبهذا أقدمت تلك المؤلفات على إجراء مقابلة قسرية ومصطنعة بين الرواية التوراتية والأرض الفلسطينية، بل وتزداد المسافة بإطراد بين هذه الجغرافيا المتصورة ومعطيات علم الآثار والتنقيبات العلمية المحايدة. حسب هذا التقسيم جرت تسمية المناطق الفلسطينية على النحو التالي :

ـ منطقة حيفا وعكا، حتى الليطاني سميت باسم	أشير
ـ الجليل الشرقي بمحاذاة المنطقة السابقة	نفتالي
ـ منطقة الناصرة وقسم من منطقة عكا	زبولون
ـ منطقة طبرية وبيسان	يساكر
ـ منطقة جنين ونابلس وطولكرم	منسى
ـ منطقة رام الله	إفرايم
ـ منطقة القدس وشمالها	بنيامين

- منطقة اللد والرملة ويافا   دان
- منطقة جنوب القدس   يهودا
- منطقة النقب الشمالي   شمعون(٥)

وتجدر الإشارة هنا الى أن أغلب أسماء الأماكن،التي تزعم المصادر اليهودية أنها عبرية، هي أسماء كنعانية انتحلتها إسرائيل (٦).

وبالتالي يمكن القول أن التعريفات التوراتية هي التي تفرض نفسها على أي فهم لتاريخ المنطقة. حيث نجد أن تسميات المناطق كلها تتبع أسماء القبائل التوراتية: فهناك "زبولون" و"منسى" و"أفرايم" و"بنيامين" الخ. وعلى هذا فالادعاءات الدينية للتوراة العبرية كان لها الأفضلية في تحديد إسم الأرض، وبهذا الشكل تم إسكات أي إدعاء بديل لفهم المنطقة وفهم ماضيها (٧)

لقد أصبح لمشكلة إطلاق أسماء مختلفة على ذات الأرض، والصراع القائم حول هذه الادعاءات المختلفة في الماضي والحاضر، أهمية كبرى في الدراسات الإسرائيلية المعاصرة. فقد كان لكتاب"يوحنان أهاروني: الأرض والتوراة: جغرافيا تاريخية"(١٩٦٢) تأثير بالغ في توجيه هذا الفرع من المعرفة .ففي الكتاب بأكمله، يستعمل تعبير"أرض التوراة" بشكل مترادف مع تعبير "الأرض المقدسة" وفلسطين.وللوهلة الأولى،لا تبدو هذه التعريفات خلافية أو متعمدة، إلا أن العنوان العبري للكتاب "أرض إسرائيل في العصر التوراتي" يوحي بأن تعبير فلسطين هو مجرد اختزال: فهو تعبير حدد أساساً بناء على تعريف إسرائيل له وعلى الفهم التوراتي للماضي. أما الجزء الثاني من الكتاب وعنوانه "فلسطين عبر العصور" فيحتوي على فصل منفصل حول الفترة "الكنعانية" متبوع بعدة فصول تعالج موضوع التاريخ "الإسرائيلي" و"اليهودي". ومن الملاحظ أنه من المنظور الزمني، فإن لفظ كنعاني

يستعمل بوصفه تعبيراً منفصلاً عن التاريخ الإسرائيلي، تالياً له أو بديلاً عنه. فهذا التمييز الزمني بين الفترات "الكنعانية" و"الإسرائيلية" يتخلل الدراسات التوراتية، وهو أيضاً تمييز أركيولوجي تاريخي مهم في الدراسات الإسرائيلية بشكل خاص.(٨)

لقد جردت الدراسات التوراتية لفظ "فلسطين" من أي معنى كامن فيه، ولم يعد من الممكن فهمه إلا إذا أعيد تعريفه من خلال لفظ ديني أو لاهوتي آخر، كاللفظ المستعمل للدلالة على "الأرض المقدسة" أو "أرض إسرائيل". لكن ما يلفت النظر أكثر من ذلك هو أنه في حين أن لفظ "فلسطين" قد يكون مستعملاً بشكل واسع ، على الرغم من تجريده من أي معنى لذاته، فإن لفظ فلسطينيون" باعتبارهم سكان هذه الأرض هو استعمال نادر للغاية في الدراسات التوراتية. فإن كانت هناك أرض تدعى فلسطين،فلماذالايمكن تسمية مواطنيها بالفلسطينيين؟ وبالنسبة لما يطلق عليه فترات ما قبل التاريخ، فإن السكان لا إسم لهم، اللهم إلا فيما يتعلق بالفترات الأركيولوجية: ثقافة العصر الحجري الجديد والعصر النحاسي أوربما العصر الفسولي.لاوجود لأي آثار مكتوبة تحدد هوية السكان لكنهم ليسوا فلسطينيين أو حتى "فلسطينيي العصر الحجري الجديد" أو "فلسطينيي العصر الفسولي" أو فلسطينيين من العصر العصر الحجري الجديد أو العصر الكالكوليثي". وفي العصر البرونزي يصبح سكان الأرض"كنعانيين".ويعترف علماء الآثار بإنجازات هؤلاء الكنعانيين، وخاصة بالنسبة للعصر البرونزي المتوسط والمتأخر. غير أنهم لا يضفون عليهم أي وعي قومي، وديانتهم - كما رأينا - تمثل على أنها مجرد عبادة خصوبة هابطة، تفتقر الى الدافع الأخلاقي المهيمن لدين يهوه، وعلى هذا فهي ديانة لا أخلاقية: وهذا العرض يظهر تبايناً واضحاً مع فكرة الوعي القومي والإيمان الأخلاقي بإله واحد للحضارة

الغربية... وهنا مفارقة لأن الثقافة الكنعانية كانت أرقى - كما يعترف العديد من علماء الآثار - لكن ديانتهم تصور على أنها أدنى بكثير من الديانة المتفوقة عليها والتي هي أساس الدين اليهودي - المسيحي، وبالتالي أساس الحضارة الغربية. وبالتالي تصور إسرائيل - كدولة قومية - على أنها ذروة التطور السياسي على النقيض من تجمعات دول المدينة التي كانت سائدة في المنطقة في ذلك الوقت.

قد توجد فلسطين بالإسم فقط، لكن لا حقيقة لها فيما يتعلق بتاريخها أو باعتبار أن سكانها فلسطينيون. هؤلاء السكان المعترف بهم كسكان العصر الحديدي موجودون بشكل مؤقت، وفي معظم الوقت هم بلا إسم، ينتظرون قدوم إسرائيل لتطالب بتراثها القومي. وحيث أنه يصعب إنكار وجود سكان قبل ظهور إسرائيل، فإن المعالجة التقليدية لهذه المعضلة كانت تشويه سمعة هؤلاء السكان أو إنكار حقهم في الوجود(٩).

لقد أسقطت أوربا على الماضي فكرة الدولة القومية في العصور القديمة، وذلك لكي تتمكن من اكتشاف جذورها هي، بينما ساعدت في الوقت نفسه على ولادة الحركة الصهيونية التي أسست لها دولة "متمدنة" في الشرق الغريب، وبهذا تكون قد ساعدت على إبراز فكرة الاستمرارية الحضارية والثقافية. وما يدعو الى السخرية في ذلك كله هو أن فلسطين في الماضي كانت موجودة، لكن الفلسطينيين أنفسهم لا وجود لهم، أما في الحاضر فإن الفلسطينيين موجودون، لكن فلسطين غير موجودة. ويؤكد هذا التلاعب السياسي بالدراسات العلمية قول مناحيم بيجن عام١٩٦٩: "إذا كانت هذه هي فلسطين وليس أرض إسرائيل ، فأنتم محتلون ولستم فالحين للأرض، وفي هذه الحالة أنتم غزاة. وإذا كانت هذه هي فلسطين فإنها ملك لشعب كان هنا قبل

مجيئكم(١٠)

ويتضح من كل ذلك أنه في دراسة الماضي، وفي الحاضر أيضاً، أصبحت فلسطين هي "أرض إسرائيل" وأصبح تاريخ إسرائيل هو التاريخ الشرعي الوحيد الذي يستحق الدراسة. وكل ما عداه يصنف تحت فئة دراسة خلفية إسرائيل الحاضرة والتي تمد الحضارة الغربية بجذورها التاريخية.

١ ـ ٣ لقد استغلت الدراسات التوراتية مفهوم الزمان من أجل إنكار أي حقيقة زمنية للتاريخ الفلسطيني، بالضبط كما تم مع مفهوم المكان(١١). فلقد تم بفعالية إنكار تاريخ فلسطين القديم وزمانها الخاص. بل إنه أصبح موضوعاً لطغيان الزمان التوراتي من جراء تقسيم التوراة العبرية الى فترات جامدة. وهذا التقسيم كان العامل الأساسي الذي حدد مجرى خطاب الدراسات التوراتية. فتم تقسيم تاريخ المنطقة بشكل متقن في "خانات" فكانت مرحلة "الآباء"، ثم الخروج والغزو والاستيطان، ثم تبعتها مرحلة مملكتي داود وسليمان الموحدتين، وممالك إسرائيل ويهودا المنقسمة، ثم المنفي وبعد ذلك الإصلاح. وعلى هذا الأساس يصبح تاريخ المنطقة هو تاريخ الشخصيات والأحداث الأساسية في التراث التوراتي، مع تغييب كامل ومطلق لتواريخ الشعوب الأخرى التي عاشت في المنطقة وأرست أسس حضارة نهلت منها هذه الجموع المهاجرة/الجوالة التي عرفت في التاريخ باسم "الإسرائيليين" و "اليهود".

وبدلاً من إعادة الاعتبار للزمان الفلسطيني ابتداء من القرن التاسع عشر حتى القرن الثالث عشر ق.م، كان ما حصل هو إبراز إنكار الزمان عن التاريخ الفلسطيني. ويبقى الزمان في مضمار التاريخ الإسرائيلي ومن ثم الحضارة العربية، وينظر اليه على أنه مجرد "ما قبل

التاريخ"و" التاريخ الأول" لإسرائيل القديمة(١٢)

ولقد أدى الجدل الدائر حول تقسيم المراحل الأولى للتاريخ الإسرائيلي الى نقل اهتمام أهل العلم الى مرحلة الهيكل الثاني. ولكن يمكن القول بأن الفهم التوراتي للزمان هو الذي يهيمن على أي مطالبة أخرى بالماضي ويسكتها. فقد شاع وصف هذه الفترة على أنها" فترة ما بين العهد القديم والعهد الجديد"، وهي بذلك تكشف عن استبداد الزمان التوراتي في فهم تاريخ المنطقة.لقد افترضت الدراسات التوراتية خلال معظم القرن العشرين أن المشروع التطوري يتجه من "العهد القديم" ماراً بفترة"ما بين العهد القديم والعهد الجديد"،ليصل الى الذروة في العهد الجديد

كان التقسيم الى عصور، الذي ظل سائداً في علم الآثار خلال معظم القرن العشرين، هو بديل طغيان الزمان التوراتي الذي كرسته الدراسات التوراتية. وهذا تعبير آخر عن المشروع التطوري للزمان الذي يتحرك بطريقة حتمية، من العصر الحجري الى العصر البرونزي ثم الحديدي وصولاً الى الوقت الحاضر. غير أن مؤرخي التوراة، وخاصة المتأثرين بأولبرايت حاولوا جعل التقسيم الزمني المستوحى من التوراة العبرية مساوياً لذلك الذي جاءت به تلك الأبحاث الأثرية، بحيث يصبح العصر البرونزي هو عصر الآباء، بينما العصر البرونزي المتأخر يعادل عصر الخروج والغزو أوالاستيطان، ويتزامن العصر الحديدي مع نشوء وتطور عصر الملكية،أما فترة "النفي" والهيكل الثاني فتتزامن، بالطبع، مع الفترة الفارسية والهلنستية والرومانية. تؤكد هذه المحاولة للمطالبة بماضي إسرائيل القديمة إنكار الزمان على التاريخ الفلسطيني، وتتجلى بوضوح من خلال التسميات البديلة الخاصة بالعصور الأركيولوجية التي طورتها الدراسات الإسرائيلية."

والنتيجة هي إنكار الزمان ومن ثم الحقيقة التاريخية على التاريخ الفلسطيني:فالماضي إما في دائرة نفوذ إسرائيل،أو أن إسرائيل تدعي ملكيته على أساس أنه" ما قبل تاريخها" أو" تاريخها الأول".

***

٢ ـ قبل أن نمضي في دراستنا، لا بد أن نقر بداية أننا لسنا بصدد سرد لمسيرة من تسموا باليهود عبر التاريخ، بقدر ما نحن أمام محاولة لوضع رؤية جديدة لتفسير أحداث أقرت تاريخياً؛ أو تم تصور أحداث وفرضت لتقر كتاريخ، حيث سنحاول تحليل الدوافع وراء وقوع هذه الأحداث أو فرضها دون سواها وتحري صحة الحدث التاريخي، كما جاء في المصادر اليهودية، ومحاولة إخضاعه لقواعد المنطق. أو بصورة أكثر دقة، لمنهج بحث جديد في دراسات التاريخ اليهودي، فهذه الدراسة تتناول الموضوع من زاوية الأنا، أي من خلال منظور الأنا الى تاريخه لا من خلال منظور الآخر (اليهودي أو الغربي) المتحيز للادعاء التاريخي، أي أننا أمام إشكالية تحيز منهجي كان لابد من تحديد أبعادها قبل الخوض في هذه الدراسة.

وقد يقول قائل أننا بهذا الطرح نحاول أن نلقي بتفسير عصري جديد لأحداث ماضية، أي أننا نلقي عليها من عندياتنا تفسيراً برؤية القرن العشرين، أو حتى الحادي والعشرين. أو كما حاول الكثير من العلماء الغربيين، وعلى رأسهم آلت، النظر الى الماضي من الحاضر، أي محاولة إثبات حقائق حاضرة من خلال ترسيخ جذورها في الماضي وتفسير الماضي على ضوئها. لكننا لن نفعل ذلك خاصة وأنه بات من الواضح للجميع، أن التاريخ المسمى بالتاريخ اليهودي ليس مجرد سرد لسيرة تاريخية، بل هو سجل للمعتقدات الدينية والاتجاهات الفكرية والتراث الأسطوري المتناقل عبر مسيرة تاريخية طويلة مختلطة مع

شذرات من الحدث التاريخي لتخلق لنا في النهاية خليطاً عجيباً لا يمكن فصله، أي أننا لن نتمكن من دراسة الحدث التاريخي دون فصله عن السياق الديني والأفكار الفلسفية والتراث الأسطوري، إضافة الى ما ألحق بهذا التاريخ من ثقافات وحضارات شعوب الجوار. ناهيك عن البعد الأدبي الذي لا يمكن فهم هذا التاريخ بدونه. ولهذا ليست هذه دراسة في التاريخ اليهودي بقدر ما هي محاولة لإعادة قراءة نصوص من المفترض أنها تاريخية.أوبتعبير أدق حاول أصحابها فرضها كتاريخ. وأقرهم في ذلك علم الاستشراق الحديث لأغراض ليس لها علاقة بالعلم أو أن علاقتها بعلم التاريخ أقل بكثير من علاقتها بأيديولجيات سياسية وتوجهات دينية.

ومع ذلك فإن هناك من يقول بأن "تاريخ اليهودية هو تاريخ العقيدة الدينية. ونحن حين نقر هذا التمييز بين التاريخين، فإننا نتبنى بذلك نموذجاً أكثر تفسيرية إذ يظل التاريخ نتاج تفاعل عدة عناصر من بينها الدين... ومن هنا يمكن القول، انطلاقاً من البعد الديني للتاريخ التوراتي،أنه تاريخ ذومغزى أخلاقي تستخلص منه العبر. أي إن العبرة قد تكون، في كثير من الأحيان، أهم من الحدث نفسه. وهو تاريخ يتبع نسقاً دينياً محدداً؛ يختار من الحدث ما يخدم الهدف، ويلجأ الى الصور المجازية والرموز والمبالغة ليوصل الحكمة الى المتلقي. وبالتالي، كثيراً ما تتناقض وقائع هذا التاريخ ووقائع التاريخ الدنيوي وإن كانت تتفق معها أحياناً. لكن كثيراً من القصص التي وردت في العهد القديم، والتي تدّعي لنفسها صفة التاريخية، لا يمكن إثباتها بالعودة الى التاريخ الدنيوي. كما أن بعض المدونات الأشورية والبابلية والمصرية تعطينا أحياناً صورة مختلفة تماماً

فقصة خروج "العبرانيين" من مصر، كما وردت في سفر الخروج،

تختلف في كثير من النواحي عن الشذرات المتناثرة التي وصلتنا عن هذا الخروج، إن لم تكن متناقضة معها(١٣)

وعلنا نلحظ هنا أن الموسوعة تعاملت مع هذه النصوص مفترضة فعلاً تاريخيتها، وخلطت بين مكونات هذه النصوص مفترضة أنها ذات مكون واحد وهو البعد الديني فيها. كما أنها في نفس الوقت أقرت بأنها نصوص انتقائية،أي أنها نصوص مختارة لتكون في النهاية صورة لتاريخ منتقى. وأصابت في ذلك. كما أنها تحدثت عن حدث الخروج من مصر وكأنه فعلاً حدث تاريخي ثابت أقرته المكتشفات الآثارية الحديثة، لكن هذا الحدث ما زال حتى الآن محل شك وجدل عميق بين المشتغلين بهذا الحقل من الدراسات، ولم يستقر الرأي بعد على صحة هذا الحدث من عدمه.

٢ - ١ ثمة مدارس عديدة تتباين آراؤها في قصص العهد القديم، إذ يرى البعض أن التاريخ الذي يرد في العهد القديم هو تاريخ رمزي. فإبراهيم، حسب هذا التصور، ليس شخصية تاريخية وإنما يمثل مرحلة تاريخية وحسب، وبالتالي فهو رمز أكثر أهمية ودلالة وعمقاً من الواقعة التاريخية. وهناك من يذهبون الى النقيض ويحاولون دراسة التاريخ من خلال المعلومات الواردة في العهد القديم.أي أنهم يقرون بتاريخية "العهد القديم". وثمة من يسلكون طريقاً وسطاً بين المدرستين. حيث يسترشد الباحث بالتاريخ المقدس في معرفة التاريخ الفعلي دون أن يكون ذلك ملزماً له. أو بمعنى آخر استخدام نصوص الكتاب المقدس في إثبات التاريخ وليس العكس.

وهناك نفر من الباحثين خلال بحثهم عن تاريخ أصول "شعب إسرائيل" في العهد القديم، أرجعوا هذه الأصول الى عوالم الفكر والأدب

أكثر منها الى عالم التاريخ، لذا لجأوا الى البحث عن الأصول في تلك التركيبة المعقدة من التراث التشريعي والديني والشعبي الذي كان الحفاظ علية أمراً محورياً بالنسبة لصوغ وعي ذاتي يرتبط تحديداً بشعب إسرائيل الجديد الذي خلفه التراث وأعطاه هويته[١٤].

وبالتالي فقد قدم أصحاب هذه المدرسة الكتاب المقدس اليهودي على أنه أدب يقدم مفهوم بني إسرائيل عن أنفسهم باعتبارهم من تبقوا ممن ارتبطوا بهذا الأدب كتراث خاص بهم وينظر حملة هذا التراث الى أنفسهم باعتبارهم "بني إسرائيل" بلا منازع.

ولقد رصد العلماء عدة أنماط من القصص في التوراة. فهناك القصة التاريخية، والقصة الأسطورية، والقصة الرمزية.

فنحن إذا بحثنا عن القصة في العهد القديم، فإننا نجده منذ اللحظة الأولى يسرد لنا الأحداث في صورة قصصية، بدءاً من قصة الخلق ومروراً بقصة الوجود البشري على الأرض الى حكاية برج بابل وتفرق الناس في شتى بقاع الأرض انطلاقاً من هذا المركز، ثم يضيق نطاق القصة ويركزها في العبرانيين فقط. وهنا يتخذ التاريخ شكل سلسلة من التراجم يصور من خلالها مصير هؤلاء "العبرانيين/ الإسرائيليين". وقد رسم لنا ذلك على هيئة مجموعات من الصور تصور مغامرات أجداد هذا الجنس.

والوحدة التي تربط بين حياة هؤلاء الشيوخ الأجداد ليست مجرد سلسلة من الأنساب، وإنما يربطهم أيضاً وضعهم الاجتماعي، حيث كانوا جميعاً بدواً رحلاً، ينتقلون بقطعانهم من مكان لآخر بحثاً عن المرعى الخصب ولم يكونوا قد ركنوا بعد لحياة الزراعة. وإذا كان لا بد من توفر عدة عناصر في البناء الأدبي تساعد على اكتمال الصورة، وأهمها الحدث والزمان والمكان والشخصيات والحوار ووضع نهاية ملائمة للقصة،

فإننا يمكن أن نعثر على هذه العناصر مجتمعة في القصة التوراتية.

وإذا حاولنا التعرف على أنواع القصة كما وردت في العهد القديم، فإنه يمكننا منذ الوهلة الأولى الوقوف على نوع متميز من القصة التاريخية. وهذا النوع من القصص لم يعرض في العهد القديم بأنموذج واحد وإنما تعددت صوره، فيطالعنا في البداية ذلك النوع من القصص التاريخي الذي يقوم على التسلسل من خلال عرض قصص حياة هؤلاء الأفراد الذين يشكلون في النهاية نشأة التاريخ الافتراضي "لليهود". ونلحظ على هذا النوع من القصص (قصص الأفراد) أنها ترتبط ببعضها بصورة واضحة، وكأنها قصة واحدة متعددة الفصول. ينتهي كل فصل منها بوفاة الشخص وإحلال إبنه محله ليكمل خط سير القصة. فهي في إجمالها قصة واحدة تعددت فيها الشخصيات، وأدت في النهاية الى صورة متكاملة عن المجتمع اليهودي وكيف عاش، الى أن نزلوا مصر، ليسرد لنا بعد ذلك قصة ـ وإن كانت تبدو أنها منفصلة عن باقي القصص ـ إلا أنها مرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً، وهي قصة موسى.

٢ ـ٢ هذا وقد حدد أصحاب المدرسة النقدية لمصادر العهد القديم، أنه لكتابة تاريخ مستقل لإسرائيل القديمة، لا بد وأن تؤخذ في الاعتبار ثلاثة أشكال مختلفة من البينات المباشرة المستخلصة من المصادر الأولية :

١ـالحفريات الأثرية وتحليلها،وتصنيف وتفسيرالحقائق المستخلصة من الحفريات ونماذج الاستيطان القديمة في فلسطين المعروفة جغرافياً وإقليمياً.

٢ـ ثروة الآثار الكتابية القديمة المرتبطة مباشرة أو بصورة غير مباشرة بفلسطين القديمة. (مثل رسائل تل العمارنه ـ رأس شمره

(أوجاريت) ـ أبله ـ المحفوظات الآشورية البابلية..الخ) والتي تكشف عن البنى الدينية والسياسية ونمط الحياة والأحداث المعروفة.. الخ

٣ـ الروايات التوراتية التي تعكس صراحة أو ضمناً المجال الذي تشكلت فيه والذي يرسم تصور بني إسرائيل لأصولهم وثقافتهم وديانتهم وتاريخهم.(١٥)

وقد تواصلت دراسات وأبحاث أصحاب المدرسة النقدية منكري روايات العهد القديم عن تاريخ اسرائيل القديم، معتمدين في ذلك على الاكتشافات الأركيولوجية وعلى تواريخ شعوب الشرق الأدنى القديمة وحضاراتهم، وكان منهم من حاول الربط بين هذه الاكتشافات الأثرية وتواريخ شعوب الشرق الأدنى القديم وبين مصداقية ما ورد في العهد القديم، وكان من أشهرهم الباحث الأمريكي ويليام أولبرايت والبرت ألت وغيرهم ممن أكدوا تاريخية التوراة على ضوء الحفريات، وخاصة فيما يتصل بقصة دخول بني إسرائيل لأرض كنعان والاستيطان بها باعتبارهما مفتاحاً لتفسير أصول إسرائيل القديمة. كما ركزا مع من سار في إثرهما، وخاصة أصحاب مدرسة ألت، على الدراسة البنيوية للتمييز بين المظاهر الكنعانية والمظاهر الإسرائيلية في نصوص التوراة على أساس قربها أو بعدها عما ورد في اللوحات المسمارية، ورغم اعترافه بالجذور الكنعانية للتقاليد والعبادات والقوانين اليهودية، إلا أنه، أعطى بعداً تاريخياً لهذا التناقض والتعارض لكن بصورة غير مشروعة.(١٦)

وخلال الستينات والسبعينات كتب الباحث الإسرائيلي ب. مازار عدداً من المقالات اشتملت على مواجهة شاملة لمقترحات آلت على ضوء تزايد المعلومات عن تاريخ فلسطين وحفرياتها الأركيولوجية مركزاً بحثه على التغيرات العامة التي وقعت في سوريا وفلسطين خلال

الفترة التي أدت الى ظهور ثلاث شعوب سامية جديدة أقامت كل منها دولة قومية ضمن إطار ثقافي: الإسرائيليون، الآراميون،الفينيقيون، وذلك في فترة انهيار السيطرة الإمبريالية الأشورية والحثية والمصرية على سوريا وفلسطين في نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الثاني عشر ق.م. مع هجرات وغزوات شعوب البحر(الفلستيون) أو شعب "البلست"على طول شواطيء البحر المتوسط. وقد سار على نفس الدرب دو فوكس عام١٩٧٠ في دراسته الشاملة لتاريخ اسرائيل موفقاً بين المرويات التوراتية والحفريات الآثارية في فلسطين وأثار الشرق الأدنى . وقد رأي طومسون أن محاولة التوفيق بين الروايات التوراتية وغير التوراتية كإثبات للمصداقية التاريخية لإسرائيل القديمة سرعان ما دخلت مرحلة انهيار مازالت متواصلة حتى اليوم، (١٧)

٢-٣ على الطرف الآخر، حظي الاتجاه التفكيكي في الدراسات التاريخية للعهد القديم بتركيز حاد. ففي الستينيات من القرن العشرين تبلورت نظرية ارتبطت أساساً باسم نورمان جوتفال تقول بأن إسرائيل ظهرت الى الوجود نتيجة للنضال الثوري للفلاحين الكنعانيين الذين كانوا يعانون القهر، وتحالفهم مع الأسباط الإسرائيلية شبه الرحل ضد المدن الكنعانية التي اضطهدت الفلاحين واستغلتهم. وقد تبنى الفلاحون الكنعانيون ديانة يهوه الإله الإسرائيلي الأول كأيديولوجية ثورية مشتركة.

والسمة المميزة لصياغة جوتفال لنظرية الثورة هو تركيزه على الجوانب الاجتماعية والسياسية لنموذجه. ويبدو أن هذا التركيز على الظروف الاجتماعية - السياسية في العصر البرونزي المتأخر في فلسطين يسمح باستبعاد التاريخ الفلسطيني. لكن التركيز على

إسرائيل، وتصوير النظام الاجتماعي والسياسي على أنه فاسد ولا قيمة له، يؤدي مرة أخرى الى استبعاد هذا الصوت بالفعل. ويتضح هذا من عبارته التالية:

"عندما دخل المهاجرون الإسرائيليون أرض كنعان وجدوا مجتمعاً كنعانياً تمزقه النزاعات، وكان تدهور هذا المجتمع لايزال مستمراً بعد قرن كامل من عصر العمارنه. ويبدو أن السكان في منطقة المرتفعات قد تضاءل عددهم في العصر البرونزي المتأخر،...أما مروجوا نموذج "الثورة" بالنسبة لجذور إسرائيل فإنهم يصورون هذه القبائل الإسرائيلية وكأنها كانت تتحالف مباشرة مع الطبقات الدنيا من الكنعانيين. فقد كانت الفئتان تشتركان في الانتماء الى الطبقات الدنيا، فالعبيد السابقون في مصر الذين أصبحوا مستقلين صاروا الآن موضوع إعجاب أقنان وفلاحي كنعان المتململين من أوضاعهم "(١٨).

وعلنا نلحظ هنا أن هذه النظرية تحاول الربط بين الكنعانيين سكان البلادالأصليين والأسباط الإسرائيلية على اعتبار أنهم أيضاً من مواطني المنطقة، **لكن كما سنرى لاحقاً لا يوجد أى أساس علمي يدعم هذه النظرية ، التي تحاول جاهدة ربط هذه القبائل بالمنطقة.**

واعتباراً من السبعينات قدمت في هذا الصدد دراسات عميقة وجادة أهمها ما نشره سبعة من المؤلفين في عام ١٩٧٧ في كتاب "التاريخ الإسرائيلي واليهودي" عالجوا فيه الروايات التوراتية والفترات التاريخية حتى المملكة الموحدة، وكشفوا بالإجماع أن المعروف عن أصل إسرائيل هو لا شيء أو قليل للغاية، وأنه من غير المحتمل أن تضيف المواد غير التوراتية كثيراً الى ما نعرفه عن التاريخ السابق لإسرائيل وأن الروايات التوراتية هي في أفضل الفروض ، مصدر غير مناسب للمعرفة التاريخية. وكان هذا الإجماع بين هذه المجموعة بين

الباحثين بمثابة تأكيد على أن هذا الإتجاه يمثل حركة واسعة الانتشار في هذا الحقل.

٢-٤ في معظم الكتابات اليهودية أو الصهيونية التي تعالج القضايا المتعلقة بالجماعات اليهودية في العالم، يلاحظ الدارس أنه لا توجد أي تفرقة بين تواريخ الجماعات اليهودية من جهة وتاريخ اليهودية من جهة أخرى، أو بين التاريخ المقدس والتاريخ الفعلي. فيتداخل التاريخ المقدس مع تاريخ العبرانيين، ويتداخل الإثنان مع تواريخ الجماعات اليهودية،لتصبح المحصلة النهائية ما يسمى"التاريخ اليهودى. وربما يعود هذا التداخل الى التيار الحلولي الواحدي في العقيدة اليهودية. ففي تصورهم الحلولي الواحدي، يرى اليهود أن تاريخهم مقدس ويعبر عن الإرادة الربانية، فإله إسرائيل يتدخل دائماً في مسار التاريخ لصالح شعب يسرائيل. ولم تأت الأمة اليهودية الى الوجود إلا من خلال تدخل مباشر، أي أن الإله قد حل في الشعب وتاريخه[١٩]. وهذا ما ألح عليه كثير من الباحثين في محاولة لإثبات أن التاريخ التوراتي اليهودي لا يمكن الاعتداد به كتاريخ موثوق نتيجة لتركيزه المفرط على فكرة " التاريخ المقدس"، و"التاريخ الموحى به".كما أن فكرة حلول الروح اليهودية في اليهود حولتهم الى أمة من القديسين والكهنة والأنبياء. وبالتالي يتحتم أن يكون تاريخهم تاريخاً مقدساً أيضاً مثلهم. وهذا نفسه ما أكد عليه مارتن بوبر حينما قال بوحيوية التاريخ اليهودي .وكما سنرى لاحقاً تأخذنا هذه الفرضية بعيداً عن التاريخ البشري وتضعنا أمام تاريخ إعجازي خارق، وهو ما يتنافى كلية مع التواريخ البشرية ويرتقي بهذا التاريخ الى مصاف التاريخ المقدس مثل الشعب الذي يتحدث عنه.

لكن مما لا شك فيه أن العبرانيين القدامى كان لديهم إحساس قوي بما تصوروا أنه مغزى التاريخ الديني ومعناه المقدس. لكن هذا الإحساس نفسه هو أحد أهم أسباب ضعف حسهم التاريخي وضموره بل واختفائه. فالاهتمام اليهودي القديم بالتاريخ، هو اهتمام في صميمه معاد للتاريخ[٢٠]. لأنه يصدر عن رؤية دينية حلولية واحدية تتجاهل أن الظواهر التاريخية لها منطقها الخاص والمستقل عن رغبات الإنسان وأحلامه وأنها ليست تجلياً لإرادة إله يحابي شعباً، وهي رؤية تذهب الى أن التاريخ بأجمعه إن هو إلا كشف الغطاء عن الغرض الإلهي الذي لا يدور حول البشر كافة وإنما يدور حول الشعب المختار بالدرجة الأولى (باعتباره موضع الحلول الإلهي). وهذه الرؤية تسطح التاريخ وتفرغه من تركيبته وإنسانيته وعالميته، وهي السمات الأساسية التي تعطي التاريخ معناه الإنساني المتعارف عليه بين الناس. ويظهر هذا التسطيح الذي يختزل كل الوقائع ويردها جميعاً الى مستوى واحد في تصور الرؤية اليهودية الحلولية الواحدية (والصهيونية فيما بعد) للظواهر التاريخية باعتبارها ظواهر مقدسة تقررت حركتها حسب خطة إلهية مسبقة وُضعت قبل بدء التاريخ. بل إن التدخل المستمر والعلني للإله هو تأكيد للقول بأن التاريخ يتم دفعه وتحريكه من الخارج وأن الإرادة البشرية لا مجال لها فيه، وأن التاريخ اليهودي (المقدس والإنساني) بدأ من مطلق لا يقبل النقاش أو التقييم (العهد مع إبراهيم) وينتهي بمطلق آخر(ظهور الماشيح المنتظرأووصول العصر المشيحاني الذي يشكل نهاية التاريخ). والتدخل المستمر للإله في التاريخ، حسب التصور اليهودي الحلولي، هو ما يكسبه معنى ويضفي على فوضاه اللامتناهية شكلاً[٢١]. ويتفق هذا الرأي تماماً مع ما قال به طيب تيزيني[٢٢] من أن هذا التاريخ تاريخ قدري ومتمنع على قواعد الضبط البشري.

ويؤكد ذلك أيضاً المؤرخ اليهودي الألماني جريتز الذي يرى أن اليهود أينما كانوا شعب من الشحاء، شعب على استعداد للتضحية بكل شيء ومن ذلك الحياة نفسها من أجل مهمته ورسالته. إنه شعب يعبر عن مفاهيم دينية وأخلاقية فريدة وخاصة (الجوهر الثابت الكامن)، واستمراره، برغم كل المذابح التي تحاك ضده، هو معجزة البقاء الدائم(٢٣).

كما يرى أيضاً أن التاريخ اليهودي هو أيضاً تجل لهذا الجوهر الثابت الكامن. وقد كتب أهم أعماله" تاريخ اليهود"(١٨٣٥ -١٨٥٧) ليثبت هذه الفكرة. وهو ليس تاريخاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة وإنما هو حشد من التفاصيل لإثبات وحدة اليهود ولإنكار وجود أية اختلافات بين أعضاء الجماعات والتواريخ المختلفة التي يتفاعلون معها.

ويحاول جريتز أن يربط بين العام والخاص وأن يحل مشكلة الخصوصية اليهودية والانتماء الإنساني، فيذهب الى استحالة التمييز بين اليهودية واليهود. فاليهودية ليست مسألة إيمان ديني منفصل عن ذات الإنسان يخضع له الفرد ويحكم على أفعاله وأفعال الآخرين بتطبيق أحكامه ومعاييره، إنما هي مسألة هوية وتلاحم عضوي وممارسة تاريخية وروح شعبية، الأمر الذي ينقل القداسة من النسق الديني الى أفعال اليهود ذاتها. لذا يعادل جريتز بين اليهودية والتاريخ اليهودي من جهة واليهود أنفسهم من جهة أخرى، فيرى أن العقيدة اليهودية نسق سياسي ديني فريد، روحه التوراة وجسده الأرض المقدسة والشعب اليهودي. وهنا يشير جريتز الى أن "الشعب اليهودي" في منزلة المركز للتاريخ العالمي.لكن الجنس البشري لا يحتاج الى فكرة اليهودية المجردة، وإنما يحتاج بالدرجة الأولى الى هذا الشعب اليهودي المشيحاني الذي لا تهزم روحه والذي يجسد بشكل متعين ومحسوس روح اليهودية

وجوهرها الثابت والكامن (٢٤)

ويقترب جريتز في أفكاره من أفكار اليهودية المحافظة التي رأت أن القداسة في اليهودية لا توجد في الكتب المقدسة وإنما في الشعب اليهودي ذاته وفي تراثه أو موروثه الشعبي،وهذا هو جوهر الصهيونية أيضاً .

وقد أثرت رؤية جريتز في كل الأجيال التي تلته بحيث دونت تواريخ الجماعات اليهودية وكأنها تاريخ أفكار دينية أو تاريخ يهودي مطلق متكامل لا علاقة له بما يدور حوله، وكأن القوى الدافعة للجماعات اليهودية هي يهوديتهم فحسب وليس ما يحيط بهم من ظروف.

بينما يرى أرنولد توينبي أن الفكرة اليهودية الخاصة بالشعب المختار من أهم المؤثرات في الحضارة الغربية. فالمجتمع العبراني القديم كان منغلقاً هامشياً داخل الحضارة السريانية الأوسع. وقد أصبح يهوه الغيور إله هذا المجتمع. وبسبب الإنغلاق القبلي لهذه الحضارة على نفسها، أخفقت اليهودية في انتهاز الفرصة التي سنحت لها بظهور المسيحية حتى تتحول الى ديانة عالمية. لكن، بدلاً من ذالك، وقع التمرد اليهودي ضد الرومان. وعندما أخمد هذا التمرد، انتهى دور اليهودية تماماً وأصبحت حفرية جامدة ميتة.

ويعد نحمان كروكمال من أوائل المفكرين اليهود الذين حاولوا علمنة المفاهيم الدينية التقليدية مثل الشعب المختار. كما أنه، في دراساته، لم يعالج الدين اليهودي وحسب، بل حاول أن يربط الدين بما أسماه "الشعب اليهودي" أي أنه مزج بين فلسفة التاريخ والميتافيزيقا وجعل من التاريخ.(وليس االنسق الديني) مركزاً للمطلقية والقداسة. وقد مهد بهذا لظهور الفكر الصهيوني بغيبياته العلمانية وبخلطه بين الانتماءين الديني والقومي(٢٥) .

٣ـ يتضح مما تقدم أن "تاريخ اليهود" يعد أكثر التواريخ إشكالية فى العالم كله.فليس هناك من شعب تعقد تاريخه،كما تعقد "التاريخ اليهودى". فلا ندرى هل نحن أمام تاريخ قوم أو عدة أقوام تمازجت عبر مسيرة تاريخية طويلة لتقدم لنا فى النهاية خليط أقوام لا قوم واحد (إثنياً) ؟ وهل نحن أمام تاريخ عبرانيين أو تاريخ إسرائيليين أو تاريخ يهود ؟.

وتعددت النظريات حول الأرض التى تعد مسرح أحداث هذا التاريخ. فالتوراة تؤكد أن أحداث هذا التاريخ دارت فى فلسطين، بينما تبحث أحدث النظريات العلمية عن هذا المسرح فى أرض عسير فى المملكة العربية السعودية. بل أن هناك من ذهب الى أبعد من ذلك وراح يبحث عن البدايات الأولى لهذا التاريخ فى أرمينيا، جنوب الإتحاد السوفييتى (سابقاً) .

ومن حيث الزمان. هل يضرب التاريخ اليهودى بجذوره ويصل الى سيدنا إبراهيم فعلاً، كما تقول التوراة، أم هو تاريخ الموسويين، الذين خرجوا مع موسى من مصر. دون أن تكون لهم أدنى علاقة بالعبرانيين (الإبراهيميين) الذين دخلوا مصر، أو على أكثر تقديرتوجد علاقة ما بهم، (هامشية وليست جذرية). لا أحد يدرى ولم تحسم هذه القضية بعد .

ولا ندرى أيضاً، هل نحن أمام تاريخ قوم/أقوام أم أمام تاريخ ديانة؟. فاليهود ـ كما رأينا ـ يميلون الى اعتبار تاريخهم سماوياً،أى تاريخ موحى به. أو على حد تعبير "مارتن بوب"، الفيلسوف الدينى اليهودى "التاريخ وحى والوحى تاريخ". وانطلاقاً من هذه النظرة يمكن اعتبارهم يمثلون معطى تاريخياً، ذا طبيعة إستثنائية"، حيث يمثلون ظاهرة إعجازية، خارقة، استثنائية، أي لا تخص التاريخ البشرى. ومن

هنا جاءت مفاهيم "الشعب المختار" و "الشعب المقدس" وصار التاريخ اليهودى، بصورة أو بأخرى، هو تاريخ العلاقة الخاصة بين الرب واليهود، مما يترتب عليه بالضرورة الا نخضعه لمقاييس البحث العلمى والتاريخى العادية، لأن هذه المقاييس مقاييس بشرية عامة، بينما التاريخ اليهودى، من هذا المنطلق، لا يخص التاريخ البشرى ولا يخضع لمعاييره، فهو تاريخ فرضته "السماء" وأقرته. أى أنه تاريخ قدرى .

٣ ـ١ على صعيد البحث التاريخى، لا بد أن نقر بداءة أننا لسنا بصدد سرد لمسيرة من تسموا باليهود عبر التاريخ، بقدر ما نحن أمام محاولة لوضع رؤية جديدة لتفسير أحداث أقرت تاريخياً (سواء كانت موحى بها أم لا)، حيث سنحاول تحرى صحة الحدث التاريخى،كما جاء فى المصادر اليهودية، ومحاولة إخضاعه لقواعد المنطق، مع مقارنة المصادر اليهودية بالمصادر الأخرى التى عرفناها من تواريخ الشعوب الأخرى التى لعبت دوراً بصورة أو بأخرى- فى صنع هذا التاريخ.

ونحن إذ نخضع الأحداث المقرة تاريخياً لقواعد المنطق إنما ننطلق من يقين تكون لدينا ـ تأسيساً على ما سبق ـ بأن "التاريخ اليهودى" ليس مجرد سرد لمسيرة تاريخية، بل تتداخل فيه المعتقدات الدينية والإتجاهات الفكرية مع التراث الأسطورى المتناقل عبر مسيرة طويلة خضع خلالها للكثير من الإعتبارات الشخصية والصراعات الطائفية ليخلق لنا فى النهاية خليطاً عجيباً يصعب فصله. كما أنه بوتقة انصهر فيها العديد من آداب الشرق الأدنى القديم واختلطت فيه ثقافات متعددة على رأسها الثقافة العربية ثم الثقافة الآرامية وثقافة بلاد النهرين كما تظهر فيه آثار واضحة وقوية لثقافات بلاد فارس واليونان (٢٦) .

لذلك فإنه لكي نفهم هذا التاريخ لا بد من تفكيكه، أي فصل هذه

العناصر عن بعضها ودراستها كل على حدة، ومن ثم إعادة تركيبها من جديد، بعد تنقيتها مما علق بها عبر التدوين.

ويتوجب الإقرار بصعوبة إعادة بناء تاريخ فترة لا تتوافر عنها إلا بينات كتابية قليلة. ورغم ذلك، فهذه مهمتنا، ولن يفيدنا اختراع البينات التي نحتاجها ولا استعارتها من مجتمعات أخرى في عصور وأماكن أخرى. وهذا لا يعني أننا نقول بأن لا مجال للمقارنة الاجتماعية في إعادة بناء تاريخ إسرائيل القديمة، بل نقول بعدم إساءة استعمالها. فالبحث التاريخي الدقيق لا يقوم على المبالغة في التأمل، بل على أسس منهجية محافظة جداً وعمل شاق بسيط للتمييز بين ما نعرف وما نجهل، وفحص فرضياتنا ونظرياتنا للتأكد من احترامها للفصل الهام جداً بين الحقيقة والوهم. وبهذا الأسلوب وحده يمكن أن يكون التاريخ، شأنه شأن أي علم اجتماعي آخر، علمياً وتقدمياً جامعاً (٢٧) .

خلال الستينات والسبعينات، كتب الباحث الإسرائيلي ب. مازار عددا من المقالات الهامة جداً مقترحاً نظرية توفيقية تشتمل على مواجهة شاملة لمقترحات ألت على أساس معلوماتنا المتزايدة عن تاريخ فلسطين وحفرياتها الأركيولوجية، وأعطت التحسينات الهامة التي أدخلها مازار على فرضيات ألت زخماً جديداً للأسئلة عن أصول إسرائيل والتي وصلت الى طريق مسدود في الخلافات التي نشبت بين مدرسة ألبرايت والمدرسة الألمانية والتي راجعها ويبرت.وكما فعل ألت من قبل نظر مازار الى نشوء إسرائيل على أنه تحول الدولة المدينية الكنعانية في الأراضي المنخفضة في العصر البرونزي المتأخر الى المستوطنات الإسرائيلية في المناطق الجبلية في العصر الحديدي،(٢٨) .وقد حدد مازار ظهور إسرائيل وقرنه بعدد من المستوطنات (لا مدن) في جبال فلسطين الوسطى في العصر الحديدي الأول. ويرى مازار ومن قبله ألت أن

المستوطنون الأصليون في المناطق الجبلية ارتبطوا بهذه المنطقة عبر استقرار تدريجي للبدو الرعاة.

ولقد ركز مازار مسألة أصول إسرائيل على نشوء إسرائيل الملكية وليس على عصر القضاة. هذه الفترة من التاريخ الاسرائيلي التي كانت مستقلة، خلال أواخر الستينات وأوائل السبعينات، عن مسألة الأصول ولم يكن هناك نزاع حول تاريخانيتها.

كما قال مازار أيضاً أن هناك خلفية تاريخية لروايات الفترة البطريركية خلال الفترة السابقة للملكية مباشرة، وأرجع شكلها الكتابي الأصلي الى جيل أو جيلين فقط. وهو بهذا لم يقدم فقط تقييماً تاريخياً أكثر إقناعاً لروايات الفترة البطريركية التي كانت متقدمة بصورة عامة، بل نجد أنه تجنب نقاط الضعف الأساسية في النظريات السائدة لدى مدرسة البرايت التي قرنت أصول إسرائيل بفترتين متمايزتين ومتناقضتين: أصل يعود الى الفترة البطريركية - سواء كان ذلك حسب الفرضية العمورية التي قالت بها مدرسة ألبرايت أو التنازل السابق للآراميين الذي قال به نوث - وأصل آخر مستقل أوائل العصر الحديدي سواء كان غزواً أو استيطاناً. وبربط قصص الفترة البطريركية ببداية مسار الاستيطان قدم مازار آراء معقولة مؤداها أن كلاً من الروايتين (البطريركية والاستيطان الاسرائيلي) تعكس ما كان في الواقع مساراً تاريخياً واحداً.

وفي عام ١٩٧٠ نشر دوفوكس المجلد الأول من دراسته الشاملة لتاريخ إسرائيل القديم وقدم بناءاً جديداً لأصول إسرائيل على أساس التوفيق بين المرويات التوراتية والأركيولوجيا الفلسطينية وآثار الشرق الأدنى. ولقد بذل جهداً مضنياً لدمج تاريخ إسرائيل مع جغرافيا وإنثربولوجيا وتاريخ فلسطين القديمة. وفي هذا الكتاب أفسح مجالاً

واسعاً للشك في تاريخ الفترة البطريركية[٢٩]

كما أكد دو فوكس بقوة على تاريخانية قصص يوسف وموسى، إلا أن أن عرضه لبينات الشرق الأدنى القديم غير التوراتية كإثبات لهذا التأكيد، لا يذهب الى إثبات ما هو أبعد من التشابه.

وخلال معالجته لسفر القضاة رفض دوفوكس بقوة موقف نوث القائل بوجود جماعة دينية في إسرائيل القديمة، وقبل المشاكل التاريخية الناجمة عن بحث وضع إسرائيل خلال فترة الاستيطان وعصر القضاة من دون ربط توحيدي فعال يمكن من النظر الى إسرائيل في الفترة السابقة على الملكية كوحدة. وبهذا شأنه شأن مازار حول البحث في أصول إسرائيل باتجاه الملكية، الفترة التي وجد فيها دو فوكس مركزاً مستقراً منطقياً لإسرائيل. وبهذا الافتراق الجذري عن تواريخ نوث وبرايت، اعتبر دوفوكس، مثل ألت، عصر القضاة والاستيطان جزءاً من التاريخ السابق لإسرائيل. ونتيجة لإنكار وجود إسرائيل كاملة قبل شاءول، كان دو فوكس حراً في تحديد مواقع الجماعات العديدة والشعوب التي شكلت إسرائيل، وتمديد فترة الغزو والاستيطان على مدى الألف الثاني قبل الميلاد.

في عام ١٩٦٨ قدمت هـ. فريس طرحاً جديداً أوضحت فيه أن المرويات التوراتية التي حددت تشكيل الدولة أو الملكية الموحدة تحت حكم داود كانت من إنتاج فترة السبي. كما حددت أصول التوحيد اليهوي في فترة السبي أيضاً.وبالتوافق مع هذا رأت أن روايات الملوك الثاني بكاملها قد كيفت لتشرح أسباب "السبي" الى بابل ويجب أن تكون قد كتبت بعد السبي بفترة من الوقت.

كما جاءت أيضاًدراسة جي.فان سيتر،لروايات الفترة البطريركية في جزأين. الأول مسح للبينات غير التوراتية في شأن تحديد تاريخ

قديم لروايات الفترة البطريركية، توصل الى استنتاج سلبي مؤداه أن البيانات المعروضة حتى ذلك الوقت توحي بتاريخ أحدث كثيراً مما حدد سلفاً. كما توصل الى سبعة استنتاجات متميزة :

١- قصص الفترة البطريركية، أو ما يطلق عليه عصر الآباء البطاركه، لا تعكس مرحلة بدوية سابقة على الاستيطان الاسرائيلي ، أو "حركات هجرة" في الألف الثاني قبل الميلاد.

٢- ما يتوفر من معلومات عن البداوة يمكن فهمه بصورة أفضل على أنه يتعلق بأواسط القرن الأول

٣- الأسماء القديمة لشعوب فلسطين لا تعكس تاريخ الألف الثاني قبل الميلاد ، بل تعكس فترة لاحقة.

٤- أسماء الأماكن في الفترة البطريركية تعكس تاريخ الملكية الإسرائيلية.

٥- التقاليد الاجتماعية وهي وسيلة ضعيفة لتحديد تاريخ المرويات ، تعكس تاريخ الملكية الإسرائيلية.

٦- البراهين المقدمة لإثبات علاقات مصر مع العصر البرونزي الوسيط غير مقنعة.

٧- الجهود التي بذلت لإثبات تاريخ روايات سفر التكوين ١٤ في الألف الثاني ق.م لم تكن ناجحة (٣٠).

٣ -٢ عل أول ما يستوقفنا فى دراستنا الآن، المقولة التى طرحها ول ديورانت عن اليهود وتاريخهم: " إن اليهود لم يوجدوا تاريخهم، بل إن تاريخهم هو الذى أوجدهم"(٣١)

فلو أننا قبلنا هذه المقولة وأخذنا بها لتحتم علينا الإقرار بأن "تاريخ اليهود هو فى نهاية المطاف تاريخ الآخرين". أو بصورة أخرى،

أن اليهود لم يسهموا فى صنع تاريخهم بقدر ما صنعته لهم الشعوب الأخرى (وهذا ما حاولت الصهيونية فى بداية عهدها فى فلسطين التركيز عليه وإقراره فى الوجدان القومى اليهودى) وهنا نجد أنفسنا ننساق الى اعتبار التاريخ اليهودى قدراً حتمياً، مما يستوجب معه أن يتحول البحث العلمي الى استحالة .

كما أن هذه المقولة التى شاعت فى أغلب الدراسات التى تناولت التاريخ اليهودى، تصادر على الدراسة العلمية للحدث التاريخى بمعزل عن السياق الذى جاء فيه، وتجعل من الدراسة التاريخية نوعاً من النفاق الأيديولوجى، الذى يؤدى بالضرورة الى التعاطف أخلاقياً مع مصائر شعب لم يسهم فى صنعها. ونحن لا نملك إلا أن نرفض هذا المنهج لأنه يصادر على حرية البحث "العلمى" فى الحدث التاريخى بمعزل عن سياقه الدينى، وبمعزل أيضاً عن باقي السياقات التي أسهمت في تركيبه.

ولهذا فإننا فى هذه الدراسة نرفض الأخذ بمقولة بوبر ومن ساروا على نهجه "بوحيوية" التاريخ اليهودى، ونستبعد مقولة ديورانت، التى تبنتها الصهيونية والتى تقضى بأنه تاريخ من صنع الآخرين. وبالتالى فإن منطلقنا المبدئى فى هذه الدراسة هو أن هذا التاريخ ليس أكثر من تاريخ بشري ، كأي تاريخ آخر. ولذا فإننا نضع بين أقواس كل ما من شأنه أن يقودنا الى حقل المطلقات لأنه لا يوجد مطلق في التاريخ، ونرفض أيضاً أن يكون هذا التاريخ ظاهرة إعجازية خارقة، لأن التاريخ الذى يصنعه بشر ليس فيه ظواهر إعجازية تستحيل على العقل البشري .

٣ ـ ٣ لعلنا نقول بصيغة معممة لا تخلو من بعض الاجحاف بأن

اليهودية نشات في الأساس من صلب العقائد الشرقية القديمة، تلك العقائد التي مثلت آنذاك أوجه أو أنساقاً واحتمالات من الذهنية الأسطورية، دون أن تكون مماثلة لها أو صوراً(نسخاً) أخرى عنها، كما يرى البعض؛وكذلك ، في نفس الوقت، دون أن تكون قد تجاوزتها،جذرياً، في مداخلها وركائزها الرئيسية، وفي بعض ما طرحته من آفاق دينية (توراتية).

ولقد عانت من تناقض نموذجي كبير اكتسب، شيئاً فشيئاً ومع تعاظم وتفاقم الوضعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، وكذلك الإثنية، طابع الصراع المفتوح، والمحتمل دائماً. ذلك هوالتناقض بين إلهها (يهوه) السائر صعداً في الحالة الإجمالية العامة - باتجاه كوني (عالمي) من طرف، وبين تصورها الإشكالي عن الشعب اليهودي المختار (المصطفى) من طرف آخر، هذا التصور الذي قاد لاحقاً الى نتائج خطيرة على صعيد العلاقة بين "النحن" و"الغير"، بين"الجيتوية" و"الإندماج"، وأخيراً بين "المركز" و"الهامش"(٣٢).

لهذا لابد لكي نفهم هذا التاريخ من أن نقف على طبيعة الإله الذي قاد حركية هذا التاريخ "المدون" ومتى ظهر هذا الإله في حياة هذه الجموع، وهل كان هو فعلاً المحرك لأحداث تاريخ هذه الجماعات أم أن هذه الجماعات حملته ما ليس له. وهل يصح فعلاً القول بأنه فعلاً إله بلا شعب عثر على شعب بلا إله، ليصنعا معاً تاريخاً "مقدساً".

٣-٤ كما يجدر بنا أيضاً قبل تناول التاريخ اليهودي، أن نقدم أولاً المصادرالتي وصلنا منها هذا التاريخ. ونعني بها المصدر"الديني" اليهودي، وتواريخ الشعوب الأخرى المتداخلة في الحدث التاريخي اليهودي ، مرجئين الشواهد الأثرية والنظريات العلمية الى سياقها

داخل كل وحدة في الحدث التاريخي .

ولنبدأ بأهم هذه المصادر . العهد القديم .

١ـ ينقسم العهد القديم الى ثلاثة أقسام رئيسية (التوراة ـ الأنبياء ـ المكتوبات).

التوراة والأنبياء يحكيان قصة حياة العبريين/بني اسرائيل منذ البداية وحتى عودتهم من "التهجير"البابلي في القرنين الخامس والرابع ق.م.

ولكي يتم ظهور الشخصية"العبرية/الإسرائيلية"خلال هذه الملحمة على مسرح التاريخ الإنساني، في دور البطولة، نجد التوراة تبدأ بالحديث عن خلق العالم، بحيث يتم خلال ذلك انتقاء "شعب الله المختار" من بين الأمم الأخرى لهذا الدور الذي رشحته له السماء(٣٣)

وتنقسم التوراة الى خمسة أقسام "أسفار" أي كتب ، وهي تنسب الى موسى (على الرغم من عدم صحة هذا الاعتقاد)(٣٤) وتغطي الفترة التاريخية منذ بدء الخليقة وحتى وفاة موسى على جبل نبو في الأردن حوالي ١٣٠٠ق.م.

وترتيبها على النحو التالي:

١ـ سفر التكوين: يقع في خمسين إصحاحاً (فصل) ويعنى بقصة خلق العالم وآدم ونوح والطوفان وأبناء نوح بعد الطوفان (سام وحام ويافث) ثم يصل الى ابراهيم (أبرام وأبراهام) محدثنا عنه تفصيلاً. وبعد ذلك يركز الحديث عن ابنه إسحق ثم يعقوب (الذي يسمى أيضاً في التوراة باسم إسرائيل) وينهي السفر القصة بيوسف ووصوله الى مصر واستدعائه يعقوب واخوته ليعيشوا معه في مصر.

٢ـ سفر الخروج: يقع في أربعين إصحاحاً. ويبدأ بالحديث عن اضطهاد الفراعنة (لبني اسرائيل) في مصر ثم ولادة موسى ونشأته

وخروجه الى أرض مدين. ثم الوحي والعودة الى مصر والخروج "ببني إسرائيل" منها. وينتهي السفر بوفاة موسى وهو على مشارف فلسطين، بعد أن منح " بنى اسرائيل" ديانتهم.

٣- سفر اللاويين : يقع في سبعة وعشرون إصحاحاً ، وفيه يتوقف سرد التاريخ ، حيث يعرض علينا التعاليم الخاصة بالحياة الدينية.

٤- سفر العدد: يقع في ستة وثلاثون اصحاحاً وسمي بهذا الاسم لتكرار التعداد خلال نصوصه، حيث تتعدد الصورة التفصيلية للجماعة /الشعب، الذي وصل مع موسى في الصحراء. كما يتضمن أيضا عودة الى قصة موسى وبعض الأحكام الموسوية في مختلف شئون الحياة.

٥- سفر التثنية: يقع في ستة وأربعون إصحاحاً ويحتوي على إعادة الشريعة وتكرارها على بني إسرائيل" مرة ثانية، عند وصولهم الى سهول النقب وجنوب الأردن. وهذا السفر الذي ينهي التوراة، يعبر دينياً واجتماعيا أصدق تعبير عن الفكر الإسرائيلي ، بل لعله يعبر عن ذلك أوضح من تعبيره عن موسى نفسه (٣٥)

٢- الأنبياء : وينقسم الى قسمين :

أ - الأنبياء الأول ب - الأنبياء الأخر

أ - الأنبياء الأول : يقع في أربعة أسفار

١- يشوع: ويقع في أربعة وعشرون إصحاحاً تروي قصة دخول (الإسرائيليين)الى فلسطين تحت قيادة يشوع بن نون الذي خلف موسى.

٢- القضاة: ويقع في أحد وعشرون إصحاحاً. يروي خلالها قصة الزعماء العسكريين والدينيين الذين حاولوا علي مدى أكثر من قرنين أن يمنعوا التجمع(الإسرائيلي) من الإنزلاق الى الكفر بالديانة. وكانوا في نفس الوقت يهرعون الى حماية القبائل الإسرائيلية في لحظات الخطر.ولعل أشهر هؤلاء القضاة شمشون، الذي خلدت قصته حتى يومنا

هذا مع دليلة على أنها من أروع قصص الحب والخيانة في التاريخ وإن كانت هذه القصة قد امتزجت بالأسطورة لتخلق لنا في النهاية مزيجاً غريباً وعجيباً للشخصية غير السوية .

٣ـ صموئيل: وينقسم الى قسمين. يروي الأول انتقال صموئيل من صفة القاضي الى صفة النبي ونضاله من أجل توحيد (الإسرائيليين) ولم شملهم.ثم اختياره لشاءول ليكون أول ملك على الإسرائيليين بعد أن ألحوا عليه في ذلك. وتنتهي حياة شاءول نهاية مأساوية ليكون بذلك أتعس الملوك في التاريخ. ويروي الجزء الثاني جهود(النبي) صموئيل في تولية داود العرش والأعمال التى أتى بها داود في مختلف المجالات العسكرية والإجتماعية والدينية. وينتهي السفر بالحديث عن تفكير داود في شيخوخته بتنصيب إبنه سليمان ملكاً من بعده.

ويتسم هذا السفر ببداية بلورة فكرة النبوة عند الإسرائيليين/ اليهود بشكل واضح .

٤ـ الملوك : وهو أيضاً في جزأين . الملوك الأول والملوك الثاني.

أ ـ الملوك الأول: يقع في٢٢ إصحاحا، منها أحد عشر لذكر مملكة سليمان والهيكل المقدس. ويتحدث الباقي عن وفاة سليمان وانقسام المملكة الإسرائيلية الى قسمين شمالية (اسرائيل وعاصمتها السامرة) وجنوبية(يهوذا وعاصمتها أورشليم) ويستمر في عرض أحداث المملكتين الى أن تسقط المملكة الشمالية (اسرائيل) على يد شلمانصر الأشوري .

أما الجزء الثاني فيقع في خمسة وعشرين إصحاحاً وفيه تستكمل أحداث المملكة الشمالية وتاريخ الجنوبية الى أن يدمرها نبوخذ نصر أيضاً ويقوم بتهجير الجزء الأكبر من الإسرائيليين الى بابل.

وهنا يمكن القول بأن التاريخ الإسرائيلي (الدنيوي) يبدأ من نهاية صموئيل وبداية الملكية، (وإن كانت هذه أيضاً محل شك لدى كثير من

الباحثين، على الأقل بالنسبة للحجم الذي قدمت لنا به في الكتاب المقدس) في حين أن ما قبل ذلك هو تاريخ/تراث/ أسطورة، متمازجاً مع بعض الوقائع التاريخية.

ب - الأنبياء الأخر: ينقسم الى أربعة أقسام وهي إشعيا وإرميا وحزقيال والإثنى عشر مجلة (الأنبياء الصغار) وهم وفق الترتيب التالي: هوشع - يوئيل - عاموس - عوفاديا - يونس - ميخا - ناحوم - حبقوق - صفنيا - حجاي - زكريا - ملاخي.

ويحتوي هذا الجزء على تراث القادة الروحيين الذين حاولوا الوصول ببني إسرائيل/ اليهود الى بر الأمان والسلام في ظل ظروف سياسية وعسكرية سيئة.

٣- المكتوبات: ويطلق عليه أيضاً كتب الحكمة أو أسفار الحكمة. وهو مجموعة من الأسفار يغلب عليها الطابع الأدبي. وبعضها يتضمن تراث القصص اليهودية عبر الأجيال (والمتماذج مع تراث الشعوب الأخرى في المنطقة. والبعض الآخر يتصل بالكيان السياسي والإجتماعي والديني. وهي مرتبة على النحو التالي : مزامير داود - الأمثال - أيوب - نشيد الأنشاد زوث - المراثي - الجامعة (وهو سفر فلسفي ينسب الى سليمان) واستير- (النبية التي تعاونت مع الامبراطور الفارسي، أحشويرش ، للقضاء على أعداء اليهود) - دانيال - عزرا (الذي يقال أنه جامع أسفار العهد القديم في كتاب واحد) - نحميا - أخبار الأيام (وهو تلخيص للوقائع التاريخية المذكورة عبر العهد القديم وينقسم الى قسمين :

١- أخبار الأيام الأول . ٢- أخبار الأيام الأخر .

ينتهي الأول بتولي سليمان الملك. بينما يلخص الثاني التاريخ اليهودي الى عصر قورش.

٤ ـ نخلص بهذا الى القول بأن التوراة قد بدأت بالأسطورة في مطلع سفر التكوين، حيث جاءت بعدة أساطير تنتمي الى النسق الميثولوجي الآرامي ـ البابلي. ثم تنتقل الى السرد الملحمي الذي يعتمد أحداثاً مغرقة في القدم تختلط بالخرافة وتحيط بها هالات البطولة والمعجزة، بطريقة يصعب معها التعرف على الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال. أو كما يقول أحد الباحثين "إن العهد القديم لم يكن تاريخاً تحول الى خيال بل خيالاً تحول الى تاريخ" وهو ينطلق في ذلك من فرضية إيسفلت بأن المبدأ السائد على نطاق واسع والقائل بأن حوادث محددة تشكل خلفية للمرويات التوراتية،رغم وجود أكثر من وصف أو اختلاف فيها، باق في النصوص المنقولة،وإن حادثاً تاريخياً أصلياً مما كان يعتبر منشأ هذه الروايات المعقدة يمكن استعادته، كما يرى إيسفيلت، بحذف أو شطب الإضافات التالية حتى يكتشف المرء في النهاية النواة التاريخية التي كانت مخبوءة في جميع المرويات القديمة الهامة.

بعد ذلك يبدأ الخط التاريخي في الوضوح تدريجياً من بين الخيوط المتشابكة للسرد الملحمي، حتى توصل محرروا التوراة الى محاولة ناجحة جزئياً للتوثيق التاريخي، يجب التعامل معها بحذر لانتقائيتها وتدخل أهواء أصحابها. بمعنى أننا لسنا أمام سرد لأحداث تاريخية متسلسلة بقدر ما نحن أمام تاريخ انتقائي صنف الأحداث التاريخية وأعاد صياغتها من جديد بما يتمشى وتوجهات وأهواء أصحابه.

كما تجدر الإشارة هنا أيضاً الى أن الوجود السياسي للإسرائيليين /اليهود لم يستمر أكثر من ثلاثة قرون ونصف في أرض كنعان (فلسطين) التي يرجع تاريخها الطويل الى الألف الرابع ق.م. وأكثر من

ثلثي هذه الفترة - كما سنرى لاحقا - لم يكن وجوداً سياسياً منظماً بقدر ما كان وجوداً لجماعات إثنية تعيش على هامش أكبر حضارتين آنذاك، وما كان لهذه الجماعة الإثنية أن توجد كيانا سياسياً بالمعنى الكامل لهذه الكلمة إلا في فترات الضعف التي كانت تنتاب هاتين الحضارتين أحيانا. وعدا ذلك فهم تنظيم اجتماعي قبلي (غير حضري) لم يتمكن من أن ينتظم ضمن منظومة النسيج الإجتماعي للمنطقة، وبالتالى ما كان له أن يسهم في تشكيل وجه الحضارة في هذه المنطقة أو حتى يكون عنصراً مؤثراً في العلاقات المتشابكة بين شعوبها.

ولهذا فإننا نميل الى القول بأن التوراة،أو العهد القديم،الذي خلفه اليهود هو في الواقع ظاهرة ثقافية لا يمكن فهمها ودراستها إلا ضمن السياق العام للحضارة الكنعانية إجمالاً، واعتباره إنجازاً من إنجازاتها تم على يد فئة - خارجية على أغلب الظن حتى ننفي نظرية جوتفال عن "الثورة"- "تكنعنت"في شتى مناحي حياتها وثقافتها. كما أنه يمكننا القول بشئ من التأكيد أن العهد القديم لا يفسر الأحداث التاريخية إلا على أنها علاقة شخصية بين الرب واليهود الذين اختارهم /أو اختاروه، ليكونوا خاصته من بين الشعوب.

وقد لا نكون مغالين إذا قلنا أن العهد القديم يعد مرآة لحياة (العبرانيين/ الإسرائيليين/اليهود) في عصورهم الأولى، كما أرادوا هم أن يروا أنفسهم فيها، فهو يعرض علينا الظواهر الدينية والعقلية والاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك الوقت من منظور أحادي الزاوية.

لكن قبل التسليم بقبول هذا المصدر كتاريخ أو رفضه،لا بد أولاً من طرح هذا السؤال: ما مدى قدسية هذه الأسفار ؟ وهل ترجع قدسيتها الى أنها "منزلة" أم أن اليهود " انتقوها" لتقديسها ؟

في الحقيقة أنه منذ ظهور النقد المنهجي للتوراة في بداية القرن الثامن عشر، وهناك شبه إجماع بين كل المشتغلين في هذا الحقل على أن هذه الأسفار أرضية،خاضعة للمناقشة وللنقد(يستثنى من ذلك الاتجاه اللاهوتي الذي يقر بأن الكتاب في صورته الحالية هو كلمة الرب الموحاة الى الأنبياء. ويجب علينا احترام هذا التوجه، خاصة وأننا في هذه الدراسة لا شأن لنا بالمعتقد الديني، وإنما نحن ننقب عن التاريخ فقط.). ثم جاء عصر الاكتشافات الأثرية الكبرى في آشور وبابل عند نهاية القرن التاسع عشر، وفي سورية عند مطلع القرن العشرين ليضع بين أيدي الباحثين التوراتيين معلومات تاريخية وآثارية لا تقل قيمة عن هذا المصدر التوراتي.

٤ ـ١ أما المشتغلون بالنقد النصي للتوراة فقد أجمعوا تقريباً على أن هناك عدة مصادر استقت منها مادة التوراة، وبالتالي فهي أرضية من صنع البشر. وهذه المصادر هي:

١ـ المصدر اليهوي: وقد سمي بهذا الإسم لأن إسم "الرب"الوارد فيه هو"يهوه".ويعتقد العلماء أنه يرجع الى القرن التاسع ق.م.أو بصورة أدق الي حوالي ٨٥٠ ق.م. ورواته من الجنوب (من مملكة يهوذا) وهو مصدر قصصي بحت يتسم بشدة الإيجاز وقوة العبارة، مع بعض الاختلاف في الأسلوب مما جعل المتخصصون في النقد النصي للعهد القديم يفرقون بين أكثر من مصدر يهوي واحد. فصار لدينا ي١،ي٢ الخ،للإشارة الى مختلف المصادر عند الحاجة. وعلي كل فانه يركز علي الوعد الذي أعطاه الرب لمن عرفوا في التاريخ اليهودي باسم "الآباء البطاركة"، من إبراهيم إلى موسى. وإن كان يحق لنا أن نري هذا التركيز في هذا المصدر إنما هو محاولة لاضفاء الشرعية التاريخية

والدينية، على الائتلاف الذي أنشأه داود بوضعه هو وأسلافه في خضم تاريخ أقدم، لجعل مملكة داود عهداً مع الرب يمتد شرعاً الي العهد مع إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسي، ويمنح القبائل المعروفة بالأسباط وجوداً تاريخياً قديماً.[٣٦]

وبالتالي يمكن القول بشيء من التأكيد أن هذا المصدر إنما جاء لتكريس آراء ومفاهيم مملكة يهوذا الجنوبية في مقابل المملكة الشمالية بما لها من آراء ومفاهيم وقيم احتماعية مختلفة.

المصدر الإلوهيمي: سمي بهذا الإسم لأن إسم الرب الوارد فيه هو "إلوهيم"، ويرجع الى القرن الثامن ق.م. ويعتقد أن إسم إلوهيم هو الإسم الذي كان شائعاً بين الأسباط العشرة في الشمال. وإن كان هناك أيضاً اعتقاد بأن تسمية "إلوهيم" هي التسمية التقليدية القديمة لدى (العبريين) الى ظهور موسى. وأن يهوة لم يظهر إلا مع الدعوة الموسوية نفسها.(وسوف نتناول ذلك بالتفصيل في الصفحات التالية) وهو أيضاً مصدر قصصي وعلى قدر من التأمل والذهاب الى ما هو أبعد من الرواية البحتة، بالإضافة الى الفرق بين شخصية "الرب"في المصدر اليهوي وشخصية "الرب" في" إلوهيم". فيهوة في القصص اليهودية يتصرف كالبشر، يحب ويكره، يعرف ويجهل، يأنس ويتعصب..أما "إلوهيم" في الروايات الألوهيمية فهو أكثر تعالياً عن عالم البشر.

ويتفق هذان المصدران في الخطوط العريضة للموضوع الذي يتناولانه، كما يتفقان أيضاً في الطابع القصص وأسلوبها. وربما كان قد حدث مزج بين الروايتين (اليهوية) و(الألوهيمية) على السنة الناس في القرون التالية للقرنين التاسع والثامن [٣٧].ويرى القمني أيضاً أن هذا المصدر قد عني باستكمال القصص الذي حدثت في المصدرين اليهوي والكهنوتي [٣٨].

٣ـ المصدر الكهنوتي: يرجعه بعض العلماء الى القرن الخامس ق.م. وعلى وجه الدقة الى النصف الأخير منه[٣٩] بينما يرجعه آخرون الى القرن السابع ق.م.[٤٠] ويرون أنه أضيف الي نص التوراة في عهد عزرا ونحميا، أي بعد عودة اليهود من "التهجير" البابلي. وهو يختلف عن المصدرين السابقين بكونه تعليمياً وليس قصصياً. ويتسم باهتمامه بالطقوس والتشريعات. وكذلك يولي اهتماماً خاصاً بالأنساب. كما أنه يعود الى التركيز على العهد مع نوح وإبراهيم وموسي وداود ويقوم علي وجوب إخلاص اليهود للعهد حتي يستمتعوا بالخلاص والوفاء بالعهد. وذلك عن طريق التزامهم شريعتهم بدقة، شريطة أن يتمسكوا بلحظتين تاريخيتين، الأهم والأخطر فيهما هي لحظة الخلاص بكبرى المعجزات (فلق البحر) بعد الخروج من مصر، لذلك يكاد العزف علي معجزة البحر عند اليهود يشكل ترنيمة وركناً أساسياً في المعتقد. ويلاحظ تداخل الكهنوتي في اليهوي والألوهيمي حينما يرويان قصصا عن شخصيات معينة، فيأتي الكهنوتي ويعطي هذه الشخصيات أنسابها بأسلوب يختلف كلية عن أسلوب القصة. وكثيراً ما يأتي التداخل الكهنوتي مشوهاً للأسلوب القصصي في الرواية اليهوية والألوهيمية. وهناك شبه إجماع بين المختصين على أن صاحب أو أصحاب هذا المصدر الكهنوتي هم الذين قاموا بجمع الروايات اليهوية والألوهيمية في أسفار التكوين والخروج والعدد، ثم أضافوا اليها من عندهم. ويعتبر سفر اللاويين كهنوتياً صرفاً، علماً بأنه يقتصر على الأمور الطقسية والتشريعية. وهو الوحيد بين أسفار التوراة الخمسة الذي لا ترد فيه أى رواية قصصية.

ويعتقد العلماء بوجود تعديلات أدخلت على نصوص التكوين والخروج والعدد بعد أن جمعها لأول مرة أصحاب المصدر الكهنوتي. وهم

ينسبون هذه التعديلات الى ما يسمونه "المحقق"، مع الأخذ في الاعتبار بأن هذا المحقق لم يكن شخصاً واحداً عمل في زمن واحد، بل هو أشخاص عديدون وعملوا في فترات زمنية متباعدة الى أن جاء أصحاب هذا المصدر وجمعوا هذه التعديلات وأضافوها الى الأسفار .

٤ـ مصدر تثنية الشريعة: وهو في جوهره تشريعي بحت صادر عن وسط مثقف لا يهتم بالقصص الشعبي، بقدر ما يهدف الى التوجيه والتعليم عن طريق سن القوانين. ويتسم هذا المصدر بتشديده على مكانة (اليهود) كشعب خاص بالرب (يهوه) وعلى دور (يهوه) الأساسي في تاريخ هذا الشعب. وهناك اعتقاد بأن أصحابه دونوا أيضاً سفر يشوع وسفر القضاة وسفري صموئيل الأول والثاني وسفري الملوك الأول والثاني .

ويرجعه العلماء الى عام ٦٢٢ ق.م. أثناء حكم الملك اليهودي يوشيا .حيث كشف عنه عند ترميم معبد اورشليم (ملوك٢ ٢٢/٣ـ١٠) و٢٢/٣ ـ٢٥، حيث عثر المرممون في وجود كبير الكهنة (حلقيا) علي كتاب الشريعة وأحضروه للملك. فترك فيه أثرا عظيما، حتي قام بموجبه بتحريم كل الطقوس المتخلفة عن الوثنية وقصر العبادة علي معبد يهوه في أورشليم وحده. لكن من الملاحظ أن هذا المصدر تعرض لكثير من الحشو والإضافات من عناصر ثقافية لا علاقة لها بالبيئة الصحراوية البدوية ، وواضح أن كاتبها ينتمي الي ثقافة دولة متماسكة يحكمها ملك، ويعني هذا السفر بالاضافة الي الشريعة، بوضع تشريعات الحرب والاوامر الالهية بشانها.[٤١]

ولم يهدأ الباحثون حتى الآن في البحث عن المصادر التوراتية لدرجة أنهم اكتشفوا مؤخراً مصادر رئيسية جديدة، مثل المصدر العلماني الذي اكتشفة إيسفلت[٤٢]. وكذلك المصدر الجنوبي الأدومي

الذي اكتشفه بفايفر[٤٣] .

كما أن المدرسة البحثية الألمانية انتهت الى أنه قد تم تجميع المصادر الأربعة في كتاب واحد هو العهد القديم حوالي عام ٢٠٠ ق.م. أما الاسفار المتأخرة مثل سفر المكابيين الاول والثاني (في الترجمة السبعينية) فقد تم تحريرها خلال القرن الأول ق.م. إلا أن مدرسة فلهاوزن قامت بعمل جريء عندما عكست الترتيب اللاهوتي التقليدي القديم لتأليف الأسفار، بحيث أصبح الترتيب على النحو التالي: أسفار الانبياء والأسفار التاريخية، ثم أسفار موسى الخمسة مضافاً اليها سفر يشوع لتشكل التوراة ستة أسفار بدلا من خمسة[٤٤].

وإن كان علماء اللاهوت اليهود قد رفضوا هذه النظرية " نظرية المصادر "ورأوا أن استخدام الإسم "يهوه" يعني الإسم الخاص بإله إسرائيل، أما استخدام "إلوهيم" فهو الإسم العام المشترك بين إله إسرائيل وآلهة الشعوب الأخرى... وهذا لا يعني أن الكاتب اليهودي لم يشعر بالفرق الملموس بين الاسماء المقدسة. فمن المؤكد أنه شعر شعوراً واضحاً ومطلقاً بالفارق في المعنى. ولكن انطلاقاً من أسباب موضوعية ونفسية اختار أحياناً أن ينوع أسلوبه ويدعو "يهوه" بالإسم العام "إلوهيم"...وصحيح أن هناك مواضع في العهد القديم يستخدم فيها الإسم العام "إلوهيم" في مقابل الإسم العادي"يهوه" عن قصد . فمثلاً في بداية التوراة ، وفي قصة خلق العالم، تعرض التوراة الإلوهية على القارىء بالإسم القديم والعام "إلوهيم" ،وهو الإسم المعروف لكل العالم. وفي القصة الثانية تتحدث التوراة عن الإلوهية بالإسم الخاص ، كما كان معروفاً في إسرائيل. ولكن مركباً مع الإسم العام "يهوه - إلوهيم"، لكي ترمز الى هوية ووحدة الألوهية المرموز اليها بهذين الإسمين. وأن "يهوه"إله إسرائيل هو "إلوهيم" المعروف في العالم، وأن "إلوهيم" خالق

السماء والأرض هو يهوه.(٤٥)

ومن النتائج الهامة لهذه الدراسات النقدية، أنه يجب فهم هذه المصادر الأربعة للأسفار الخمسة على أنها وثائق أدبية تم تأليفها وقت كتابتها وتعكس فهم ومعرفة مؤلفيها وعالمهم، بما يعني، أنه لا يمكن الحصول منها على أي شيء تاريخي يعتمد عليه في المراحل السابقة لتاريخ إسرائيل، مما ألغى فكرة الاستفادة منها لإعادة تشكيل تاريخ إسرائيل القديم. وسرعان ما أثرت نتائج فلهاوزن وتلاميذه بشأن إعادة بناء الروايات، على فهم بقية أجزاء العهد القديم، مما أدى الى نقل الدراسات التاريخية النقدية الى مسار بعيد عن التفكير الديني وأعطاها طابعاً تاريخياً علمانياً متزايداً، وهو الاتجاه الذي دعم نتائج التنوير الأوربي والاتجاه التاريخي الحديث في الفكر الغربي خلال القرن التاسع عشر. وكان لتأثير هذه المدرسة المقترنة بالتحرر من العقلية اللاهوتية، الفضل في التوصل الى فهم جديد لتاريخ إسرائيل القديم، ولم ينظر الى مدوني المصادر اليهوية والإلوهيمية على أنهم مؤرخون لماضي إسرائيل، بل على أنهم جامعون ومحررون لأساطير وحكايات شعبية مختلفة متعددة الأصول والتواريخ، وأن الروايات التوراتية هي شظايا ذكريات مكتوبة أو شفهية، وسلاسل من القصص، وأعمال أدبية معقدة، وسجلات إدارية وأغاني، وحكم نبوية وكلمات مأثورة عن فلاسفة، وقوائم وحكايات، جمعت ودونت انتقائياً وفسرت على أنها ماض هو بقايا دور خيالي غير مترابط جمعها العائدون من "السبي" البابلي(٤٦).

٤ ـ٢ هناك أيضاً نظريات أخرى في النقد النصي للتوراة، منها ما يركز على الأنماط الأدبية المختلفة في النص الواحد، فيفرق بين ما هو

أسطورة شعبية أو قبلية، وما هو خرافة دينية، وما هو عرف شرعي أو طقسي يتعلق بعبادة معينة. ومن هذه النظريات ما يلح على أن هذه القصص التوراتية هي في أساسها تقاليد شعبية شفهية انتقلت من جيل الى جيل ، ثم دونت وأدخل عليها ما أدخل من تعديلات.

كما أن هناك أيضاً نظرية تركز على أهمية المدونات العراقية والسورية والفلسطينية (الكنعانية والمصرية القديمة من جهة أخرى) وعلى أهمية الربط بين روايات التوراة والمكتشفات الأثرية ما بين النيل والفرات .

وفي الحقيقة، فإنه منذ ظهور النقد المنهجي للتوراة اعتباراً من مطلع القرن الثامن عشر، لم تقم مدرسة واحدة على القول المطلق للرواية التاريخية باعتبارها تاريخاً حقيقياً غير خاضع للمناقشة أو النقد.

وهنا نجد أنه قد يبدو غريباً أن العهد القديم يتحدث في مواضع عديدة عن تراث جذور شعب لم يكن له أي وجود. وهذه الأرض واللغة المجازيتين لأمة مجلزية، وتاريخ ذلك الشعب الوهمي هو تراث جذور ينتمي الى "شعب إسرائيل الجديد" لا القديم. ولايقدم لنا العهد القديم قصة يرويها شعب إسرائيل عن ماضيه أو أية قصة عن الجذور تؤكد هوية شعب إسرائيل الذاتية أو رؤيته لذاته. ولم يضف التراث هوية على شعب إسرائيل، بل على الهوية اليهودية لا"كأمة" تعيش بين الأغيار (الجوييم). بل كشعب الرب الذي يحيا حياة تقوى.(٤٧)

٤ ـ٣ قد يصح هنا أن نطرح هذه المقولة الختامية، التي وإن لم يكن هناك ما يدعمها تاريخياً حتى الآن، إلا أنها تعد، في حد ذاتها، طرحاً قيد البحث، وهي أن الأقوام التي توحدت في (اليهودية) ـ كما سنرى لاحقاً ـ

جلبت معها في ذهنيتها الأسطورية معتقداتها، فظهرت (يهوية) قوم و (ألوهيمية) آخرين، ثم جاء الكهنوت ووحد بينها ودمجها مع بعضها ليقدم لنا في النهاية هذا الخليط غير المتجانس من الروايات المتناقلة عبر أزمنة مختلفة، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن تشكل أساساً قدسياً واحداً لشعب واحد، كما أنه لا يمكن الاعتداد بها كتاريخ موثوق.

وقد يدفعنا هذا الى التوقف برهة لطرح سؤالين نرى أنهما ضروريان في هذا السياق .

١- متى بدأ تسجيل هذا الكتاب؟

٢- كيف كان الوضع قبل الإقدام على تسجيله من قبل مجموعة كبيرة أو صغيرة من الكتاب ؟

يقول إدموند جاكوب في هذا الصدد: من المحتمل أن ما يرويه العهد القديم عن موسى والآباء الأولين لا يتفق بشكل تقريبي مع المجرى التاريخي للأحداث. لكن الرواة كانوا يعرفون ، حتى في (مرحلة) النقل الشفهي، كيف يضعون الأناقة والخيال حتى يربطوا بين أحداث شديدة التنوع [٤٨]

وهو محق في ذلك الى حد كبير، حيث أن هناك فارقاً زمنياً بين ظهور الإنسان وممارسته لأوجه نشاطه على الأرض وبين بدء تدوينه (كتابته) لهذا النشاط. فلا بد - من الناحية المنطقية - أن هذه الأحداث التي تم تناقل أخبارها شفاهة قبل أن يخترع الانسان وسيلة تدوينها، أضاف اليها النقلة من عندياتهم. وبالتالي فهذه المادة الشفهية، حينما يتم تحويلها الي مادة مسجلة ومضبوطة لغويا، تفقد الكثير من شخصيتها الأصلية لصالح نمط الفهم والتمثل اللغوي الذي أنجزه الكتبة إزاءها في مراحل تاريخية متعددة ومتعاقبة. وهنا يمكن أن يفقد الحدث "حقيقته" مرتين. مرة في مرحلة التناقل الشفهي المتعدد والمتنوع

المديد ومرة أخرى في مرحلة صياغته كتابة بأقلام متناوبة ومتباينة أو متناقضة ومتصارعة اجتماعياً[٤٩]..

ويفترض بعض الباحثين[٥٠] أن العبرانيين/الإسرائيليين (اليهود) بدأوا باستخدام الكتابة لحفظ انتاجهم الذهني - أو بتعبير أدق ما استوعبوه من ثقافات وحضارات الشعوب المحيطة، مضافاً اليه بعضاً من تجربتهم الشخصية - الى أجيال لاحقة منهم، بعد أن تمكنوا من تحقيق استقرارهم جغرافياً واقتصادياً في كنعان، أى في نهاية القرن الثالث عشر ق.م. لكن تجدر الإشارة الى أنهم حينما دخلوا كنعان كانوا بدواً أميين. وبعد أن أقاموا فيها وتبنوا بعض الأنماط الاقتصادية والحياة الاجتماعية فيها(الإنتاج الزراعي الناجم عن التحول من حياة البداوة الى حياة الاستقرار)، تعلموا الكتابة الكنعانية، بل إنهم كتبوا أيضاً بالحرف الكنعاني وأطلق على اللغة العبرية آنذاك "لغة كنعان" (وهذا أيضاً نمط من أنماط السطو الذي مارسته هذه الجماعات على الحضارة الكنعانية (الفلسطينية) وأقرها فيه بعد ذلك علماء التاريخ الغربيين الذين عمدوا الى تغييب الوجودالعربي/الفلسطيني(الكنعاني) وتجييره لصالح التاريخ المتوهم لهذه الجماعات .

كما تجدر الإشارة أيضاً الى أن اليهود/العبرانيين حينما دخلوا مرحلة الكتابة، فإن هذا لا يعني أنهم ابتعدوا كلية عن مرحلة النقل الشفهي، بل إن هذا التداول الشفهي استمر بصورة فاعلة الى القرن الحادي عشر ق.م ، بل وربما الى ما بعد ذلك أيضاً وتجلى ذلك فيما عرف بعد ذلك باسم "الهجاداه"، وهي مصدر هام لا يمكن تجاهله في سياق البحث التاريخي؛ لأنه مكمل لمرحلة التاريخ المدون.

ويمكن أن نخلص من ذلك الى أن هذا المصدر (الهام في حد ذاته) يمثل صيغة ملفقة من النصوص متعددة الأصول والمتنوعة بكتبتها

والمعلقين عليها وشراحها ومفسريها. كما أنه لا يمكن - والحال هكذا - أن يمثل الحقيقة كلها (أو حتى جزء من الحقيقة التي ضاعت بين جنباته وأصبح من العسير فصل الحقيقة التاريخية عن الموروث المتناقل)، وبالتالي فإنه يمكن القول أن هذا المصدر يمكن الأخذ به على أنه موقف تراثي أكثر منه سجل تاريخي. ومع ذلك فليس أمام الباحث الا أن يجتهد فيه، خاصة وأن علم الآثار لم يقل كلمته الأخيرة بعد.

٤ -٤ بعد أن وقفنا على تعدد المصادر التي جمع منها العهد القديم - ونعني بها هنا المصادر الداخلية ، أي فئات المدونين والمصادر الخارجية - ونعني بها تأثيرات الشعوب المحيطة على الذهنية العبرية/ الإسرائيلية /اليهودية، فإنه يمكن أن نلخص الموقف كله في النقاط التالية :

١- إن تناول(الفكر اليهودي)- كما جاء في هذا المصدر - يجعلنا نرى فيه لوناً من الوان الفكر الكنعاني الفلسطيني ولا يمكن أن يفهم هذا المصدر بذاته بمعزل عن أنماط الفكر الكنعاني بدرجة كبيرة وأنماط فكرشعوب الشرق الأدنى القديم بدرجة أقل.

٢- إن هذه الأسفار تخلط خلطاً مثيراً بين الأزمنة التاريخية، الأمر الذي يضع الباحث أمام إشكالية إعادة ترتيب الأوراق.

٣- هذا المصدر يمنح الحدث الديني الأيديولوجي قدرة إعجازية خارقة، بحيث يجعلها خارج حدود الضبط البشري ومتمنعة عليه، بصفتها "كلاً مقدساً" لا يمكن تجزئته أو فصله.

٤- يؤرخ هذا المصدر لوقائع عديدة، إذا كان بعضها أو كلها قد حدث، فلا بد أنها حدثت قبل تدوينه بأزمنة طويلة جداً.

٥- في هذا المصدر امتزج الموقف التاريخي مع الموقف التراثي، كما امتزج الحدث التاريخي بالحدث التراثي، مما أدي الى نشوء

اضطرابات في وضعيتيه الحقيقيتين، التاريخية والتراثية على حد سواء.

وهكذا يمكن أن يجد الباحث نفسه أمام حالة من التشوش والبلبلة في تناول هذا المصدر،الذي يجعلنا نقر بأننا إذا قبلناه كمصدر تاريخي، لا بد وأن نتوخى الحذر في هذا التناول، ولا بد من أن "نصفي" الحدث التاريخي ونعزله عن باقي التداخلات التي وضعت فيه عن عمد.

أو لعله يصح هنا القول بأنه إذا كان اليهود يعتقدون أنهم "شعب الله المختار"، فلا بد أنهم اعتبروا هذا التاريخ أيضاً "تاريخاً مختاراً"، بمعنى أنهم انتقوا من الأحداث التاريخية والمداخلات الأسطورية والذاتية ما يتفق مع توجههم العام في هذا التدوين واستبعدوا ما لم يرق لهم، وإذا لم يكن الأمر كذلك فبم يمكن أن نفسر ما يعرف في التاريخ اليهودي بكتب"الأبوكريفا"، أى الكتب أو الأسفار المستبعدة، إما لأن اليهود لم يروا فيها قدسية معينة فاستبعدوها، أو بالأحرى لأنها لم تتفق في محتواها مع التوجه العام لأسلوب التدوين الذي تم به "العهد القديم". ويدفعنا كل هذا الى ضرورة الأخذ أيضاً بما يسمى بالمتناقل الشفهي "الهجاداه" وبما جاء أيضاً في المدراش والتلمود،الذي ظل مفتوحاً أمام التدوين حتى قرابة القرن الخامس الميلادي كما يدعون، إن لم يكن الى ما بعد ذلك أيضاً.

٥ ـ آثار مصر الفرعونية :

يمكن الاستعانة علي صعيد البحث في مصداقية التاريخ اليهودي ببعض الآثار الفرعونية التي تتفق في بعض نواحيها مع النصوص التوراتية، أو على الأقل في جزء منها، وإن كان هذا لا يعني أنها وثائق مدعمة للحقيقة التاريخية، بل ربما كانت من قبيل التأثير الفرعوني القديم في حضارات الشعوب والجماعات المحيطة والمعاصرة، وسوف

نشير الى هذه المصادر في عجالة مرجئين تناولها التحليلي الى حين تقاطعها مع سرد الحدث التاريخي

٥ ـ١ - نص من عصر الفرعون"سنوسرت الثالث (١٨٨٠ق.م. تقريباً) يتحدث كاتبه عن حملة الفرعون المتجهة جنوباً نحو بلاد النوبة ثم انقلابه شمالاً لتأديب الأسيويين [اتجه جلالته نحو الشمال لقهر الآسيويين، فوصل المنطقة الأجنبية المسماة "شكميم" فسقطت في يده]. وشكميم هذه التي في الشمال قد تكون هي شكيم التوراتية التي تذكر التوراة أن إبراهيم نصب خيامه فيها (تك ٢/٣٤). (نابلس الحالية) ، وهي مدينة كنعانية ازدهرت في فلسطين خلال العصر البرونزي الوسيط. ومن المعروف أن العصر البرونزي الوسيط أوالأوسط ينقسم الى قسمين كما يؤرخ له أولبرايت. المرحلة الأولى من ٢١٠٠ ـ ١٩٠٠ ق.م. والمرحلة الثانية من ٢٠٠٠ ـ١٨٠٠ ق.م. في المرحلة الأولى هناك افتراض بوجود تأثير عموري قوي، في حين أنها عند بعض العلماء فترة رعي بين حضارات كبيرة ضخمة كانت قائمة في الألفين الثالث والثاني ق.م. وفي رأي أحد الباحثين أن ثمة عناصر جديدة في هذه الحضارة وفدت مع غزاة جاءوا من وراء القوقاز، بينما ينكر البعض ذلك ويؤكدون أنها ربما كانت حضارة محلية. أما المرحلة الثانية فهي تتميز بحياة المدن وهي المرحلة التكوينية للحضارة المادية التي ازدهرت في سوريا وفلسطين خلال الألف الثانيةق.م. والتي تميز الحضارة الكنعانية العمورية القديمة(٥١).

٥ ـ٢ لوح مرنبتاح الحجري : اكتشف عام ١٨٨٦، ويعود تاريخه

الى عام ١٢٢٠ ق.م.وفيه يذكر لأول مرة إسم إسرائيل خارج نصوص التوراة، لذا فهو يكتسب أهمية خاصة في الجدل الدائر حول مصداقية النص التوراتي. فالإشارة المحرجة لهزيمة الفرعون مرنفتاح لليهود "وقضى على إسرائيل ، لكن لم يتم القضاء على ذريتها"، أصبحت مركز الاهتمام في الدفاع عن إسرائيل التوراتية في مواجهة النزعة التشكيكية لدى أصحاب حركة "البحث الجديد في إسرائيل القديمة". ودافع كثير ممن درسوا التوراة عن تاريخ إسرائيل المستوحى من التراث التوراتي، والمبني على تفسيرهم لهذا النقش. وقد أصروا بعناد على أنه "لا يوجد أى سبب مطلقاً للشك في أن إسرائيل التي وردت في هذا اللوح الحجري المنقوش هي إسرائيل التوراتية في فترة ما قبل المملكة" وأنه من غير المعقول إنكار هذه العلاقة. وهنا يصبح اللجوء الى ما هو معقول جزءاً من الخطاب الذي يدعي الموضوعية ليدعم التصور المهيمن فيما يتعلق بتاريخ إسرائيل القديمة كما صورها خطاب الدراسات التوراتية. والمعلومات الوحيدة الواضحة التي يوفرها هذا اللوح هي أن كياناً ما يدعى إسرائيل واجه جيش الفرعون في أواخر القرن الثالث عشر ق.م. ولكن هذا لا يثبت أو ينفي أن إسرائيل كانت تنظيماً قبلياً أو مساحة جغرافية (من المحتمل أن هؤلاء الذين حملوا إسم إسرائيل وأشار اليهم النص كانوا من البطون التي انتسبت الى يعقوب (أي إسرائيل) ولم يرحلوا بصحبته الى مصر. وقد لعب روح مرنبتاح دوراً رئيسياً أيضاً عند بعض أولئك المهتمون بالبحث عن إسرائيل القديمة.

ويقول ل. طومسون أن إسم إسرائيل الوارد في هذا اللوح يرجع الى الى القرن الثالث عشر ق.م. حيث كانت إسما لشعب كنعان

(فلسطين الغربية)، الذي يقول النقش أن جيش الفرعون المصري دمره. ويضيف طومسون أن ربط إسرائيل بكنعان في هذا النقش المصري المبكر لا يمكن اعتباره مرادفاً لإسرائيل الواردة في التوراة. إن ما يقدمه هذا النقش هو مجرد أول ورود تاريخي لاستخدام إسم إسرائيل معروف لدينا. وهذا لايشير الى إسرائيل التي نعرفها من الكتابات الأشورية والنصوص الفلسطينية القديمة. فإسرائيل تلك كانت دويلة محلية سيطرت على المرتفعات شمالي القدس وقد ظهرت للوجود بعد بضعة قرون من الفرعون مرنفتاح. وهذا لا يمكن اعتباره مرادفاً لإسرائيل التوراتية، فإذا كان نقش مرنفتاح يعبر عن أي حقيقة تاريخية فإن التوراة لا تذكر عنه شيئاً[٥٢].

٥ ـ٣ مسار حملة تحوتمس الثالث وعلاقتها بما جاء في سفر يشوع وانتصار باراق وديبورة في سفر القضاه.

لقد أدرك تحتمس الثالث، مهندس الإمبراطورية المصرية، أنه لكي يصنع من مصر عنصراً سياسياً يحتل موقع الصداره، فعليه أن يضم أرض فلسطين وسوريا، وقد حقق هدفه هذا من خلال عمل عسكري مخطط يرمي الى احتلال مناطق آسيوية تصل الى عبر الفرات وإقامة إدارة مصرية في البقاع المحتلة. ...وقد اضطر تحتمس الثالث لشن ثلاث حملات على آسيا وسع بفضلها تدريجياً من سلطانه ونفوذه في الشمال ، وكرس أغلبها لقمع تمردات ملوك المنطقة، التي كانت ما لبثت أن تتكرر من جديد.

بيد أن قسماً من المنطقة التي تم احتلالها شق عصا الطاعة مثل غزة (التي منحت إسماً مصرياً أيضاً) وكذلك يافا حيث لا تظهران مجدداً

في غزوات الفراعنة اللاحقين،وتأسيساً على ما تقدم فقد حظي المصريون بسلطة كاملة ومتعاقبة في الشريط الساحلي الجنوبي للبلاد.

أما بخصوص الحملة الأولى، التي اعتبرت فاتحة وأساس حملاته المستقبلية،والتي صورت بإسهاب في المصادر المصرية،فقد كانت موجهة فيما يبدو ضد إحدى غارات حكام كنعان، التي أرادت القضاء على الفتوحات المصرية في المهد. وبناء على هذا الافتراض - يمكن تفسير الحلف الموسع الذي ضم ملوك كنعان، ... ويمكننا أن نستقي المعلومات عن المدن التي استعبدها تحوتمس في أرجاء كنعان من خلال قوائمه الجغرافية . ففي إحداها يحصي ١١٩ موقعاً في فلسطين وجنوب سوريا. وكانت هذه المدن تقع في الغالب بالقرب من الطريق الساحلي بتعرجاته، اي في السهول الساحلية، مرج ابن عامر، ووادي بيت شان وبقاع لبنان، ومناطق أخرى في الجليل وباشان والمناطق المجاورة لدمشق(٥٣)

٥ ـ٤ إخناتون ووثائق تل العمارنه (١٣٦٩ - ١٣٥٣ ق.م.)

ترجع الأهمية الحقيقية لوثائق تل العمارنه، فيما يتعلق بتاريخ فلسطين، وكذلك تاريخ بني إسرائيل، الى أنها تسلط الأضواء على أوضاع العواصم الكنعانية المتفرقة، وعلى العلاقات فيما بينهما. والتي كانت تتغير بين الفينة والأخرى، وعلى الفرقة والعلاقات العدائية فيما بينها وعلي الأحلاف(٥٤)

والاستنتاج الهام الذي نخرج به من رسائل تل العمارنه، هو أن مراكز الحكم كانت موجودة أساساً في سهول فلسطين، بينما ذكرت نابلس والقدس فقط في الجبل الأوسط، وكانت منطقة تجوال الآباء

بالذات في منطقة الجبل الإوسط والنقب. وحقيقة أن كتابات العمارنه وقصص الآباء تعرض مجالات جغرافية مختلفة، هي حقيقة ذات مغزى كبير. والنتيجة المستفادة من ذلك هي، أنه ليس طابع الحياة البدائي للآباء هو الذي حال بينهم وبين البحث عن المعيشة في الأقاليم الخصبة من البلاد، ولكن حيل بينهم وبين الدخول الى سهول البلاد والوديان، التي كانت مأهولة بكثافة سكانية كبيرة على عكس الاستيطان الهزيل الموجود في المنطقة الجبلية(٥٥).

٥ ـ ٦ وثائق سيتي الأول (١٣٠٨ ـ ١٢٩٠ق.م.

تشير الاكتشافات الأثرية التي أميط عنها اللثام في فلسطين (شواهد قبور بيت شان، وتل الشهاب في حوران وصور) الى حملات الفرعون سيتي الأول الى كنعان، بالاضافة الى القوائم الجغرافية الخاصة بالمدن التي غزاها في كنعان، والنقوش والكتابات التي زين بها معبد أمون في الكرنك...ويمكن أن نستخلص من قوائم سيتي الجغرافية أن هدفه الاساسي كان استعادة السيطرة المصرية على بيت شان والجليل والساحل الفينيقي. ونستقي معلومات مثيرة عن منطقة بيت شان والخطة السياسية العسكرية التي جابهها فرعون من خلال نصبان تذكاريان له عثر عليهما في هذا المكان. ولقد اقيم احد هذين النصبين احياء لذكرى الانتصار على قبائل العبيرو(هي الصيغة المصرية للإسم الأكادي خابيرو) الذين أغاروا على هضاب الجليل الأدنى، عرضوا أمن السكان المحليين للخطر. وتتعالى هنا أصداء من غارات متناثرة في منطقة الجليل، كانت بمثابة بشائر لقدوم إسباط بني إسرائيل الى شمال أرض فلسطين، وقد ورد في قوائم سيتي الثاني الجغرافية أول

ذكر لإسم "أشير" [وقد كتب أ س ر] ، الذي عرف فيما بعد وفي فترة متأخرة بأنه سبطاً إسرائيلياً[٥٦].

٥ ـ ٧ وثائق رمسيس الثاني (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق.م.).

وصل الصراع المصري الحثي من أجل السيطرة على منطقة عبر النهر الى ذروته في عهد وريث سيتي الأول الفرعون رمسيس الثاني، خلال معركة قادش التي اندلعت في عام ١٢٨٥ ق.م. ويتفاخر رمسيس بهذه المعركة بوصفها أكبر انتصاراته، ومن المعروف أن المصريين والحثيين عقدوا بعد هذه المعركة معاهدة سلام عام ١٢٦٩ ق.م ولا توجد في الميثاق التفصيلي المنسوخ لدى الطرفين تفصيلات بشأن الخطوط الحدودية المتفق عليها بينهما، لكن يبدو أنها كانت تتمشى مع الحدود الشمالية لأرض كنعان المنصوص عليها في العهد القديم سفر العدد ٣٤ . وقد وجد بنو إسرائيل هذا الموقع الجغرافي ـ السياسي قائماً أثناء شن غزواتهم على البلاد، وينعكس ذلك عند وصف الأرض الموعودة في سفر يشوع ١ ـ ٤ :"من البرية ولبنان هذا(حتى هنا كانت تبسط السيادة المصرية) الى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين (وهذه هي حدود السيادة الحثية في سوريا)

٦ـ آثار وادي الرافدين :

أ ـ آثار ومدونات آشور ـ تجلات بلاصر الأول.آشور ناصر بال الثاني .

ب ـ شالمنصر الثالث وفترة المد الآشوري .

ج ـ حدد نيراري الثالث .

د - تجلات بلاصر الثالث .

هـ - سرجون الثاني .

و - سنحاريب .

ز - أسر حادون .

ح - مدونات نبوخذ نصر .

٤- الآثار الكنعانية :

وسنأتي على ذكر كل منها في حينه لدي تقاطعها مع الحدث التاريخي.

٧ - الأقوام التي توافدت عل المكان عبر الزمان :

يجدالباحث في التاريخ اليهودي نفسه في حيرة بالغة. حيث لا يدري من أين يبدأ. هل يبدأ من فلسطين أم يعود بالتاريخ "اليهودي" الى الوراء الى بداياته (التوراتية) في العراق، أم يأخذ بالنظريات الحديثة والتي ربما كان آخرها نظرية كمال الصليبي التي تعود بالتاريخ اليهودي الى منطقة عسير(في المملكة العربية السعودية)[٥٧] وهي بهذا تغير مؤشر الحركة التاريخية في اتجاه عكسي تماما مناقضاً لكل ما أجمع عليه العلماء حتى الآن. وهي، على أية حال، نظرية لها وجاهتها من الناحية العلمية، وعلينا احترامها ومناقشتها موضوعياً، وبأسلوب علمي. ولها أيضاً خطورتها البالغة من الناحية القومية (وعلى أية حال فسوف نعود اليها تفصيلاً فيما بعد) أم يأخذ بالطرح الذي يقدمه القمني ويعود بجذورهم الأولى الى منطقة أرمينيا ؟ .

على كل يجدر بنا أن نبدأ من فلسطين، المسرح الطبيعي لأحداث هذا التاريخ، والتي تتفق مع إجماع كل المصادر المشار اليها آنفاً، على

أنها "المسرح الطبيعي" لأحداث هذا التاريخ.

من البديهيات أن تاريخ فلسطين المعروف لا يبدأ بتاريخ "اليهود" فيها. فهذه حقيقة عامة أجمع عليها علماء التاريخ والآثار. فلقد كانت فلسطين آهلة بالسكان وبالتكون الحضاري الزراعي، حينما دخلها من سيعرفون باليهود بطريقتين رئيسيتين هما الغزو المسلح والتسلل السلمي البطيء[٥٨] ولعل أقرب الى الدقة التاريخية أن نحدد تاريخ فلسطين القديم بمرحلتين كبيرتين: الأولى وهي الأساس والأكثر قدماً، تتمثل في دخول الكنعانيين اليها، بعد أن نزحوا من الجزيرة العربية في مطلع الألف الثالث ق.م. واستوطنوا ما يسمي الآن سوريا ولبنان وفلسطين [٥٩] ، (منطقة الهلال الخصيب)[٦٠] .

وفي هذا الصدد يقول أولبرايت "لدينا من البراهين والأدلة على أن الكنعانيين أصحاب اللغة السامية الغربية استقروا في فلسطين أوائل الألف الثالث ق.م. وحيث عثر على أسماء كنعانية ترجع الى الأسرة الخامسة المصرية (٢٩٥٦ ق.م.) ، كما وردت أيضاً كلمات كنعانية في المدونات المصرية في عصر الأهرام(القرن٢٨ق.م.)[٦١]. وصارت اللغة الكنعانية مهيمنة في كل الأوساط السامية - ما عدا الآرامية - بل سادت أيضاً بين الشعوب الأخرى التي دخلت فلسطين في مراحل لاحقة مثل "الفلستيين" و"اليهود العبرانيين".

أما المرحلة الثانية من التاريخ الفلسطيني، فقد برزت عبر حركتين عسكريتين استهدفتا" فلسطين"، البلد المتقدم زراعياً بمقاييس ذلك العصر. الأولى تمثلت في "بني إسرائيل" الذين دخلوا فلسطين عند نهاية القرن الثالث عشرق.م.وذلك بعد أن هاجروا من مصر أوأرغموا على الهجرة منها(وسنناقش ذلك تفصيلاً في حديثنا عن الخروج من

مصر)، ثم استطاعوا بعد حين، عند بداية القرن الثاني عشر أن يدعموا مواقعهم في بقعة جبلية في المنطقة الغربية للأردن ولكن ضمن شروط اقتصادية وبشرية لم تكن تحتمل توسعاً سكانياً كبيراً (وهي الفترة التي عرفت في التوراة بعصرالقضاة). وأثناء عملية استقرار هؤلاء "الإسرائيلين" في هذه المنطقة انطلقت الحركة العسكرية الثانية، متمثلة في الفلستيين (البليست)الذين انحدروا من الأقوام الإيجية(أهل السواحل أو شعوب البحر) (٦٢) [أوائل القرن الثاني عشر ق.م.]. وقد احتلوا بعض السواحل السورية العليا، وانطلقوا منها نحو مصر بهدف احتلالها،إلا أن رمسيس الثالث(١١٩٨-١١٦٦ق.م.) استطاع صدهم عام ١١٩١ ق.م.، فكان عليهم تحت وطأة ضربات المصريين أن يرتدوا الى أسفل يافا شمالاً وأسسوا هناك خمس مدن (دول مدن) تمتد من الشمال الى الجنوب (غزة - إشقاون (عسقلان)، جت، أشدود، وعفرون (٦٣)

يضاف الى ذلك أنه كان يوجد في هذه المنطقة مجموعة أخري من الأقوام التي ترجع في جذورها الى الجزيرة العربية مثل الآرامين (٦٤) والعمونيين(٦٥)والمؤابيين(٦٦)،عاشوا على تخوم كنعان(فلسطين) وبخاصة حول جنوب البحر الميت. وكان العموريون على الحدود الشمالية لكنعان، وسيطروا على جزء كبير من المنطقة قبل الزحف المصري الفرعوني الى الشمال حوالي عام ٦٦٠ ق.م.

ولم يتبق أمامنا إلا التعرف على العبريين من الناحية العرقية. من هم وما هي علاقتهم بهذه الأرض؟

إذا عدنا الى المرجع التوراتي، نجد أن التوراة تحدثنا في سفر التكوين عن سلسلة الأنساب بدءاً من آدم (عليه السلام) ومروراً بأبنائه قابيل وهابيل، لتحدثنا بعد ذلك عن سلسلة أبناء آدم وتصل الى قصة

نوح. وتذكر لنا أنه كان لنوح ثلاثة أبناء هم سام وحام ويافث. ومن سام خرج - فيما بعد - الساميون ومن حام الحاميون ومن يافث الآريون. وتركز التوراة على ذكر سلسلة أبناء سام حتى تصل بنا في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين لتقول: " وهذه هي مواليد تارح. ولد تارح أبرام وناحور وولد هاران لوطاً. واتخذ أبرام وناحور لأنفسهما إمرأتين إسم إمرأة أبرام ساراي واسم إمرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكة وأبي يسكة .. وأخذ تارح أبرام إبنه ولوطاً إبن هاران أبن إبنه وساراي كنته إمرأة أبرام إبنه فخرجوا معاً من "أورالكلدانيين"ليذهبوا الى أرض كنعان. فأتوا الى حاران وأقاموا هناك. ومن سلالة أبرام خرجت شعوب كثيرة،منها- وفقاً للرواية التوراتية- الإسماعيليين، أبناء إسماعيل (عليه السلام) وهم العرب - في رأي التوراة - وكذلك الآراميين والعبريين.

هذا ما ترويه التوراة عن ظهور العبريين على مسرح التاريخ.

لكن من الناحية العلمية البحتة، فإن كلمة" عبري" و" عبريين" كانت تطلق في الألف الثانية ق.م، بل وحتى قبل ذلك على طائفة كبيرة من القبائل في شمال الجزيرة العربية وفي الشام.كما يعتقد أن العبريين قبل وصولهم الى أرض كنعان (فلسطين) كانوا مجموعة من العشائر السامية المتنقلة حول المدن العراقية الكبرى مثل أور في جنوب العراق، وماري في وسطه، وحران في شماله(٦٧) ويبدو أن مدينة حران - وهي تقع في ملتقى حدود العراق وسوريا - كانت منطلق الخطوة الثانية لرحلة هؤلاء البدو من بلاد أكاد الى بلاد أمورو غرباً. فهم هنا يعبرون نهر الفرات ويسمون على أثر هذه الرحلة بالعبريين(٦٨). فالمنطقة التي سكنها العبريون قبل قدومهم الى فلسطين هي المنطقة

المحصورة بين الضفة الغربية للفرات والأقاليم المتاخمة لسوريا والتي تسمى بادية الشام والتسمية عبري تنطبق على من يهاجر من العراق فيعبر نهر الفرات الى الشام(٦٩) لهذا السبب تطلق التوراة على إبراهيم عليه السلام إسم أبرام العبراني نسبة الى عبوره النهر وهجرته الى فلسطين.

ويعتقد أن هذه الرحلة قد تمت في بداية الألف الثاني قبل الميلاد وبهذا الشكل تكون الأصول العربية للعبريين قد تمت بمرحلتين من الهجرة. الأولى من شبه الجزيرة العربية الى جنوب بلاد النهرين (أور) ومنها الى فلسطين عبر النهر في بداية الألف الثاني قبل الميلاد. وقد احتكت هذه الجماعة في أطراف بادية الشام بالآرامين الذين دخل معهم العبريون في علاقات مصاهرة واحتكاك ثقافي وديني وفي فلسطين عاش العبريون جنباً اي جنب مع السكان الأصليين وهم خليط من الكنعانيين والفلسطينيين والأموريين والحثيين والحوريين والأدوميين واليبوسيين وغيرهم .

وهناك رأي يذهب الى أن العبرانيين كانوا قبائل بدون هوية محددة واكتسبت هويتها من خلال اتحادها وعبادتها "ليهوة"، أو كانوا قوماً من الأقوام الكنعانية انسلخوا عن العقيدة السائدة وعبدوا"يهوه" (٧٠)حيث هناك نظرية يقودها نورمان جوتفال، تقول بأن"إسرائيل" ظهرت الى الوجود نتيجة للنضال الثوري للفلاحين الكنعانيين الذين كانوا يعانون القهر، وتحالفهم مع الأسباط الإسرائيلية شبه الرحل ضد المدن الكنعانية التي اضطهدت الفلاحين واستغلتهم. وقد تبنى الفلاحون الكنعانيون ديانة يهوه، الإله الإسرائيلي الأول، كأيديولوجية ثورية مشتركة. ومن هنا جاء رفض هؤلاء لعبادة البعل التي كانت العبادة

السائدة في المدن الكنعانية، حيث كانت العودة اليها تعني العودة الى القمع الطبقي القديم.[٧١]. وكانت العبرية (أى لغة هؤلاء القوم) أنذاك هي لغة أهل فلسطين الكنعانية، ومنهم العمالقة[٧٢] والمديانيون[٧٣] وغيرهم من الأقوام العربية في المنطقة حتى صارت كلمة "عبري" مرادفة لابن الصحراء أو إبن البادية بوجه عام. وبهذا المعنى أيضاً وردت كلمة "الخبيرو"[٧٤] أو "العبيرو"[٧٥]، في المصادر المسمارية والفرعونية. وهذا ما يؤكده نداف نئمان في مقاله Habiru and Hebrews : The Transfer of a Social Term to the Litererary Sphere, Jornal of new Eastern Studies .vol.45. oct 1986. University of Chicago Press، حيث يؤكد أن كلمة "خبيرو" التي تعني العبريين لا تصف جماعة عرقية بل هي وصف سوسيولوجي لمجموعات هامشية في المجتمع تعمل في مجالات عمل هامشية وتنتقل من مكان لآخر بل وتقوم بأعمال السرقة وتحاول السيطرة على المجتمع، لذا فهي لا تستقر في مكان. وبالتالي فإن العبريين ليسوا آباء الإسرائيليين بل هم إسرائيليون وصلوا الى أماكن استقرارهم داخل المجتمع وعملوا في مهن هامشية. وهذه مغالطة تاريخية خطيرة. فإن هذا الرأي يرجع العبرانيين الى أصول عربية من الجزيرة هاجرت مع الأقوام المهاجرة الى الشمال، بل إنه يرجح أنها كنعانية . ولا ندري من أين لأصحاب هذه النظرية بهذا الرأي. وإن كان من الممكن أن نوافقهم عليه بشرط ألا يمتد وجود هؤلاء "العبريين" ليلتحم بالإسرائيليين واليهود بعد ذلك، بمعنى أننا هنا نريد الفصل بين الجنس "العبري" دون ربطه بما يطلق عليه "الجنس الإسرائيلي" أو بمن دانوا باليهودية بعد ذلك.

ومما يدعم هذه النظرة لدينا هو أن التوراة تتحدث عن "العبرانيين" بصفتهم غرباء عنهم وليسوا منهم. فقد ورد على سبيل المثال، في الأحكام التي يقال أن موسى وضعها أمام أتباعه ما يشير الى أن الإسرائيلي إذا اشترى عبداً عبرانياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً(٧٦) ثم تقول التوراة أيضاً أن العبيد يجب أن يكونوا من غير بني إسرائيل(٧٧). وبهذا يثبت ومن واقع نصوص التوراة ذاتها أن "العبري" غير"الإسرائيلي" أو"اليهودي". ويلاحظ أيضاً أن كلمة "عبري" أو"عبراني" لم ترد في القرآن الكريم مطلقاً. فقد ورد ذكر الإسرائيليين على أنهم "بني إسرائيل" و" قوم موسي" و" يهود" (الذين هادوا) وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن العرب في عصر النبي (صلعم) لم يعرفوا اليهود بغير التسميات المذكورة ولو أنهم عرفوهم باسم العبرانيين أو العبريين لورد ذكرهم في القرآن الكريم بهذه التسمية. وبهذا يتضح أن"العبريين"لم يشكلوا في تاريخهم شعبا ذو قاعدة حضارية تعتد بها دول المنطقة الأخرى. ومن المرجح أنهم ذابوا في الحضارات الأخرى وبقي منهم بعد ذلك أصداء لتراث قديم لديهم، حاول "الإسرائيليون" فيما بعد السطو عليه ونسبه لأنفسهم ليضربوا بجذورهم عميقاً في تاريخ هذه المنطقة. وإن كان هذا الرأى لا يزال في حاجة الى أدلة علمية تسانده أو استنطاقات منطقية للأحداث.

وهناك رأي يجدر أن نسجله هنا لما يلقيه من ضوء هام للغاية على صعيد البحث عن تاريخية "العبريين"وأصلهم، وهو يرى أن تقاليد العبريين في القرن الرابع عشر ق.م. كانت قريبة من تقاليد الحثيين وشعوب ما بين النهرين. ويؤكد أصحاب هذا الرأى أن لغتهم كانت قريبة من اللغة "الحوية" (وهى كتابة هيروغليفية استخدمها الحثيون

الأوائل). ولما كان الههم يدعى (يه) أو (يهوه) فثمة صلات لغوية وعرقية تربطهم بالحثيين والحويين الساكنين في البلاد[٧٨]. وبالتالي فمن المفترض ـ وفقاً لهذه النظرية ـ أن العبرانيين يؤلفون بقايا الحثيين[٧٩] الذين اجتاحوا مملكة بابل حوالي عام ١٩٠٠ ق.م. (ويلاحظ هنا التقارب الزمني بين ظهور الحثيين في المنطقة والتاريخ المفترض لظهور سيدنا ابراهيم على مسرح التاريخ ومحاولة البعض ـ كما سنرى لاحقا ـربطه بالأصل الحثي).

ويرتكن أصحاب هذا الرأى الى ما جاء في التوراة من أن الحثيين والحويين[٨٠] كانوا على صلات طيبة بالعبرانيين. ويتابع رائد هذه النظرية(هـ.ي.ميدلكو)، ملقياً الضوء على ظهور العبرانيين في فلسطين بحيث يميز بين "الخبيرو"، الذين وفدوا من أور وانضمت اليهم القبائل الآرامية ، من طرف، وبين تلك البقايا الحثية (العبرانية) من طرف آخر. ومن ثم وتحت ضغط شعوب آتية من الشمال هاجر"العبرانيون" مخترقين الصحراء السورية نحو فلسطين عابرين نهر الأردن للتمركز في أريحا. ومن ثم، وبعد حروب عديدة بالغت فيها التوراة، استقر المهاجرون الجدد في البلاد. فسكن هؤلاء العبرانيون بين الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين واتخذوا أبناءهم وبناتهم كما عبدوا آلهتهم [٨١]، واندمجوا بأبناء البلاد حتى قال لهم حزقيال "أمكم ـ أي سلالتكم ـ حثية وأبوكم أموري"[٨٢].

ولعل ما يدعم هذه النظرية أيضاً ما كتبه" هنري بريستيد" في هذا الصدد، حيث يقول:"في فلسطين اختلطت شعوب سامية وبنوع خاص الأناطولية القديمة وهي غير سامية ألفت فيما بعد الشعب "الحثي"الذي خلف في فلسطين طابعاً عرقياً مميزاً بالنسبة لباقي

الأعراق السامية وهو الأنف المعكوف الذي كان يعتقد بأنه من المميزات السامية و"اليهودية" بنوع خاص. فهو إذن غير سامي انتقل الى الساميين عن طريق التمازج السلالي. ومن ثم ترتب على ذلك أن تكون المحصلة نمطاً من الأخلاط الأقوامية التي كان عليها أن تعاني من عملية تحول واسعة وبطيئة وطويلة قبل أن تحقق شخصية فيها من التجانس الأقوامي النسبي (٨٣).

وقد تلتقي هذه النظرية الجديدة القديمة مع النظرية التي يطرحها سيد القمني عن أصل إبراهيم والعبرانيين ، والتي أشرنا اليها بإيجاز في السطور السابقة)

وهكذا فإننا نجد أنفسنا في النهاية أمام عدة تسميات. "العبرانيين" و"الإسرائيليين " و" اليهود" وكل منها له دلالته الخاصة، التي تختلف اختلافاً بيناً عن الأخرى. حتى وإن كانت التوراة قد خلطت بينها، على الرغم من أنه ، وكما تبين لنا، يمكن لكل من هذه التسميات أن يخص قوم مختلفين (إثنياً) عن الأقوام الإثنية الأخرى .

٧ـ ١ هكذا يمكننا القول بأن ما يسمى بالجنس العبري أو الإسرائيلي أو اليهودي هو "جنس" تحيط به هالات الغموض ولم يعرف بعد "تاريخيا"، الأصل القطعي لهؤلاء القوم أو لهذه الأقوام التي تمت المغالطة باحتسابها قوماً واحداً متحداً إثنياً.

أما بالنسبة للمصدر الذي اعتمدوه تاريخاً لهم، فنحن نجد أنه بدأ بالأسطورة في مطلع سفر التكوين، حيث جاءت بعدة أساطير تنتمي الى النسق الميثولوجي الآرامي - البابلي . ثم ينتقل بنا الى السرد الملحمي الذي يعتمد أحداثاً مغرقة في القدم تختلط بالخرافة وتحيط بها هالات البطولة والمعجزة، بطريقة يصعب معها التعرف على الخط

الفاصل بين الحقيقة والخيال. وبعد ذلك أخذ الخيط التاريخي يتضح تدريجياً بين الخيوط المتشابكة للسرد الملحمي، حتى توصل محرروا التوراة الى محاولة ناجحة "جزئياً" للتوثيق التاريخي، ولكن يجب أن نتعامل معها بحذر بسبب انتقائيتها وتدخل أهواء أصحابها كما أشرنا الى ذلك من قبل.

وعلى أية حال فإننا نفضل أن نسير مع هذا المصدر منذ بدايته مع محاولة تطبيق منهجنا "التفكيكي" عليه. وبالتالي فإنه يمكن أن نقسم هذا التاريخ - وفقاً للمصدر التوراتي - الى المراحل التالية، التي نرى أن كل مرحلة منها مستقلة تماماً عن الأخرى من الناحية الإجتماعية والسياسية وإن كان كاتب/كاتبو التوراة قد وحدوا بينها من الناحية العقائدية. وهذه المراحل هي :

١- مرحلة الآباء،أو عصر الآباء. وهو العصر الذي يمكن أن نصطلح مؤقتاً على تسميته بعصر "العبريين"أو"ما قبل الإسرائيليين "وهو تاريخ متوهم ومختلق،لاعلاقة لبني إسرائيل به، اللهم إلا السطو عليه ومحاولة الانتساب لأصحابه وهم إبراهيم وإسحق ويعقوب .

٢- مرحلة بني إسرائيل. أو عصر بني إسرائيل أو عصر موسى. وهو يبدأ بفرضية الخروج من مصر ويمتد حتى نهاية المملكة الجنوبية (مملكة يهوذا) على يد نبوخذ نصر عام ٥٨٧ ق.م. وهو عصر، إن صحت تاريخيته، فهو مستقل بذاته ، كما سنرى لاحقاً.

٣- عصر ما بعد السبي،أو العصر اليهودي.حيث عادت الى فلسطين أقوام تختلف كلية عن "الآباء" وعن قوم موسى دانوا باليهودية كدين دون أن يكونوا من جنس واحد، أو على كثر تقدير يمكن القول أنهم أقوام مختلطة، ربما كان من تبقي من بنى إسرائيل جزءاً منهم .

هوامش ومراجع المقدمة :

(١) البرايت، وليام. من العصر الحجري الى المسيحية ـ التطور التاريخي. نيويورك.دبلداي.١٩٥٧ عن كيت وايتلام اختلاق إسرائيل القديمة ت. سحر الهنيدي. مراجعة فؤاد زكريا. عالم المعرفة ٢٤٩. الكويت سبتمبر ١٩٩٩ ص١٤٦

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) نفس المصدر ص١٥٨

(٤)نفس المصدر ص١٦٠

(٥) مجموعة من الباحثين. تحرير أحمد عبد الرحيم. حرب المصطلحات. دراسة تصحيحية للمفاهيم والمصطلحات المتداولة في الإعلام العربي حول الصراع العربي الصهيوني. إتحاد الصحفيين العرب. القاهرة ص١٧٠ ـ١٧١.

(٦) نفس المصدر ص١٧٢

(٧) نفس المصدر ص١٠٠

(٨)اختلاق إسرائيل. م.س.ذ. ص١٠٧

(٩) نفس المصدر ص١١٢

(١٠) سعيد، إدوارد. تأنيب الضمير. لندن، فيرسو. عن اختلاق إسرائيل .م.س.ذ. ص١٠٩

(١١)اختلاق إسرائيل م.س.ذ. ص١١٢

(١٢) مالمات،أفراهام. تاريخ إسرائيل القديم. دراسة في المنهج ١٩٨٣وكذلك سوغن . تاريخ إسرائيل القديم منذ بدايته وحتى ثورة بر كوخبا ١٩٨٤ عن اختلاق إسرائيل م.س.ذ. ص١١٥

(١٣) المسيري،عبد الوهاب. موسوعة اليهود واليهودية وإسرائيل.

دار الشروق القاهرة

(١٤) طومسون، توماس. ل. أسفار العهد القديم في التاريخ .اختلاق الماضي .ت. عبد الوهاب علوب. مراجعة محمد خليفة حسن. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ٢٠٠٠ ص٥١

(١٥) مالمات،أبراهام. العبرانيون وبنو إسرائيل في العصور القديمة.. بين الرواية التوراتية والاكتشافات الأثرية . ترجمة وتقديم. د.رشاد الشامي ط١ ٢٠٠١ص٢٥. وراجع أيضاً توماس ل. طومسون. م.س.ذ. ص٩١

(١٦)نفس المصدر ص٢٦

(١٧) نفس المصدر ص٢٧

(١٨) وايتلام، كيت . اختلاق إسرائيل القديمة.م.س.ذ. ص١٨٥

(١٩) عبد الوهاب المسيري. موسوعة اليهود. م.س.ذ.

(٢٠) نفس المصدر

(٢١) عبد الوهاب المسيري . موسوعة اليهود. م.س.ذ.

(٢٢) تيزيني، طيب. من يهوه الى الله المجلد الأول دار دمشق بيروت. ط١ ١٩٨٥ص١٨

(٢٣) موسوعهاليهود م.س.ذ.

(٢٤) نفس المصدر

(٢٥) هرتزبرج،أرثر.الفكرةالصهيونيةتحليل تاريخي ومختارات، ترجمة لطفي العابد وموسى عز، إشراف أنيس صايغ. بيروت، منظمة التحرير الفلسطينمية ، مركز الأبحاث . ١٩٧٠ ص٣٣١ .

(٢٦) حسن، محمد خليفة. رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم. القاهرة ١٩٩٥ ص١٠٢

(٢٧) طومسون ، توماس ل. م.س.ذ. ص٤٦

(٢٨) نفس المصدر ص٦١

(٢٩) مالمات، أبراهام. م.س.ذ. ص٦٢

(٣٠) نفس المصدر ص٦٧

(٣١) ديورانت، ول. قصة الحضارة. الجزء الأول. المجلد الأول. نشأة الحضارة - الشرق الأدنى الطبعة الثالثة. ترجمة زكي نجيب محمود . القاهرة ١٩٦٥ ص٣٢٨ .

(٣٢) تيزيني، طيب . م.س.ذ. ص٢١

(٣٣) ظاظا، حسن . الفكر الديني الإسرائيلي - أطواره ومذاهبه . دمشق . دار القلم. الطبعة الأولى ص٣١.

(٣٤) توجد في التوراة عبارات تتعلق بموسى ويستحيل أن تصدر عنه ، مثل الفقرة التي تقول :" وأما الرجل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض (عدد ١٢/١٢) وأيضاً " الرجل موسى كان عظيماً جداً في أرض مصر في عيون فرعون وعيون الشعب (خروج ٣/١١). وكذلك " فمات هناك موسى عبد اله في أرض مؤآب حسب قول الله ودفنه في الجوار في أرض مؤاب (تثنية ٥/٣٤) وغيرها كثير .

(٣٥) سيحال،م.ص. مقدمة للعهد القديم. دار نشر كريات سيفر. القدس الكتاب الأول ١٩٧٣. ص ١٧

(٣٦) طومسون . التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي ص١٤

(٣٧) ظاظا، حسن . م.س.ذ ص٣٩

(٣٨) يقول سيد القمني في كتابه التوراة .. التاريخ ...ص٢٨ ، إن تأليفه يرجع الى حوالي عام ٨٥٠ ق.م. في مملكة يهوذا. ويرى أن هذا

المصدر ركز على الوعد الذي أعطاه الله لبطاركة من إبراهيم الى موسى. وإن كان يحق لنا أن نرى ذلك التركيز في هذا الصدد محاولة لإضفاء الشرعية التاريخية والدينية على الائتلاف الذي أنشأه داود بوضفه هو وأسلافه في خضم تاريخ أقدم، لجعل مملكة داود عهداً مع الله، يمتد شرعاً الى العهد مع إبراهيم واسحق ويعقوب وموسى. ويمنح وحدة القبائل المعروفة الأسباط وجوداً تاريخياً قديماً، وهي الوحدة التي لم تتحقق إلا بعد خروج قبائل راحيل الإسرائيلية من مصر، بهدف وضع أساس قومي متين للدولة التي وحدت القبائل حتى يصعد بتاريخ القومية التاريخية عبر الأنساب الى زمن الخليقة الأولى .

(٣٩) يضيف القمني أن هذا المصدر عني باستكمال القصص الذي حدث في المصدرين اليهودي والكهنوتي . نفس المصدر والصفحة.

(٤٠) تيزيني. طيب. من يهوه الى الله، الجزء الثالث المجلد الأول ، الطبعة الأولى دمشق ١٩٩٥ ص١٨٥.

(٤١) القمني ، سيد م.س.ذ. ص٢٩

(٤٢) نفس المرجع والصفحة.

(٤٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤٤) تيزيني. م.س.ذ. ج١ ص١٨٥

(٤٥) وقد ظهر لاحقاً أن المسألة الخاصة بمصادر التوراة أكثر تركيباً وتعقيداً واتساعاً كما كان يعتقد لدى جل الباحثين التوراتيين . ففي عام ١٩٤١ استطاع لودز أن يميز في الوثيقة اليهوية ثلاثة مصادر. وفي الألوهيمي أربعة وفي سفر التثنية ستة وفي النص الكهنوتي تسعة. هذا دون حساب الإضافات الموزعة بين ثمانية محررين. ومنذ فترة أكثر قرباً وصل التفكير الى أن كثيراً من قواميس أو قوانين

أسفار موسى الخمسة كان لها ما يوازيها خارج التوراة، في فترة تسبق بكثير التاريخ المنسوب الى هذه الوثائق وأن عدداً من روايات أسفار موسى الخمسة يفترض وجود مصدر آخر أكثر قدماً من ذلك الذي يفترض أن هذه الوثائق قد خرجت منه.

أنظر موريس بوكاي. دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص٢٩ وكذلك سيجال م.س.ذ ص ٩٨

(٤٦) الشامي ص ٤٩. طومسون ص ٣٥

(٤٧) بوكاي. موريس. م.س.ذ. ص٢١

(٤٨) تيزيني . م.س.ذ. ص.١٨

(٤٩) نفس المرجع ص٢١

(٥٠) يتحدث كاتب النص عن حملة الفرعون المتجهة جنوباً نحو بلاد النوبة ثم انقلابه شمالاً لتأديب الآسيويين:"[اتجه جلالته نحو الشمال لقهر الآسيويين ، فوصل الى المنطقة الأجنبية المسماة [شكميم] فسقطت في يده مع "رينيتو" الأندال ...] . وتشير كلمة "الرينيتو" ، بإجماع علماء الهيروغليفية الى بلاد سوريا وفلسطين .

راجع فراس السواح. الحدث التوراتي م.س.ذ. وكذلك John P.Wilson . Egyption Historical Texts (in James Precherd's A ncient Near Eastern Textd . Prieton . 1969. P 320

(٥١) طومسون .ص ٥٢

(٥٢) نفس المرجع ص ٥٥

(٥٣) نفس المرجع ص٥٦

ويقول إن الكنعانيين قبائل سامية نزحت من صحراء شبه الجزيرة العربية أو الصحراء السورية، وبما تم ذلك في النصف الأول من الألف

الثالث في شكل هجرات مكثفة. وهم ثاني جماعة سامية بعد العموريين لعبت دوراً مهماً في تاريخ سوريا وأرض كنعان . وينتسب الفريقان الى نفس موجة الهجرة. لذا فإن الاختلاف بينهما يكاد يكون معدوماً . وقد نشأ الاختلاف نتيجة أن العموريين قطنوا في شمالي سوريا فتعرضوا لتأثيرات سومرية بابلية، في حين كان مركز الكنعانيين الجغرافي في أرض كنعان والساحل، لذلك كان تأثرهم بالمصريين والحثين والعرب. وقد بقيت سيادة الكنعانيين في أرض كنعان بوصفهم شعباً وقوة حضارية. ويرتبط تاريخ الكنعانيين الى حد كبير بالتاريخ المصري . ففي الأسرة الثانية عشرة (٢٠٠٠ ـ ١٧٨٦ ق.م.) ضمت مصر أرض كنعان. كما غزا الحوريون أرض كنعان في منتصف القرن الثالث عشرق.م.وجمعوا أعداداً كبيرة من المرتزقة الكنعانيين الى جانب العبرانيين. وهذه الجماعة هي التي يطلق عليها اسم الهكسوس الذين احتلوا مصر الى أن طردهم أحمس عام ١٥٧٠ ق.م. وعندما طردهم المصريون ضم تحتمس الثالث(١٥٠٠ـ١٤٥٠ق.م)أرض كنعان وتسلل العبرانيون الى كنعان (١٢٥٠ ـ ١٢٠٠ق.م). واختلطوا بسكانها من الكنعانيين وغيرهم واستوعبوا حضارتهم وذابوا فيها . بينما نجد رأياً آخر يقول أنهم خليط من الساميين الغربيين والحورانيين قاموا بعدة موجات تغزو مصر خلال عصر الدولة الوسطى (١٩٩١ ـ١٧٨٦ق.م.)،وهذا يفسر وجود أسماء سامية في وقت مبكر في عصر تلك الدولة، وتكوين امبراطورية شملت الى جانبها كنعان وسوريا.لكن أصل الهكسوس مازال محل خلاف بين علماء التاريخ القديم، والأفضل تفسيره في إطار الوضع العرقي والسياسي والعسكري الذي كان يسود المنطقة في النصف الأول من الألف الثانية ق.م. وكانوا يأتون الى الدلتا في

موجات متعاقبة،وربما ارتبط بهم عناصر حورانية جاءت من سوريا من الشمال، بمعنى أن الهكسوس كانوا خليطاً من الساميين الغربيين والحورانيين.(عن اليهود في العالم القديم، ص٤٨ـ٤٩وكذلك راجع ظاظا الساميون ولغاتهم ص٣٧ ـ٣٩)

(٥٤) طومسون، م. س. ذ. ص ٦٨

(٥٥) نفس المرجع ص٦٩

(٥٦) الصليبي، كمال. التوراة جاءت من جزيرة العرب . ترجمة عفيف الرزاز. ط٢ . مؤسسة الأبحاث العربية لبنان .١٩٨٦.ص ٥٨

(٥٧) حتي، فيليب . خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى . مجلد ١ . الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٥ ص١٢٧

(٥٨) سوسه، أحمد.العرب واليهود في التاريخ .لبنان. ١٩٨٠.ص٣٢

(٥٩). Albright, W.F : Archielogy and Religion of Israel . Baltimore 1942 . P 68 .

(٦٠) تيزيني، طيب . م.س.ذ. ص٨٨

وكذلك قارن مع ارنولد توينبس "تاريخ البشرية" الجزء الأول. ترجمة نيقولا زيادة. الأهلية للنشر والتوزيع . بيروت ١٩٨١ ص١٣٣.

(٦١) شعوب اليحر تعبير يطلق على مجموعة من الشعوب من البحارة الذين هاجروا الي الأناضول وسوريا وفلسطين وقبرص ومصر حوالي عام١٢٠ ق.م. ويقال أنهم المسئولون عن تدمير الامبراطورية الحثية. ويشار اليهم بأسماء عدة تدل على أنهم جاءوا من اليونان والأناضول وصقلية وسردينيا وكريت . كما أن الفخار الذي تركوه يدل على أن أصولهم يونانية. ويقترب التاريخ المفترض لهذه الأواني الفخارية من التاريخ المحدد لطرد رمسيس الثالث لهؤلاء الغزاة وهو

حوالي ١١٩٦ ق.م . وتؤكد الآثار المصرية على كون شعوب البحر جماعة مركبة من عدة عناصر تعود الى عدة قبائل حيث تذكر آثار رمسيس لبثالث أسماء عدد من القبائل هي الفلسطينيون (يولاساتي) والشردانو والدانونو والشكليش والزقّالة والوشاشا وتضيف بعض القوائم المصرية أسماء قبائل أخرى. وقد اختلفت المصادر حول تحديد أصول هذه القبائل فالتوراة تربط الفلسطينيين بكفتور المناظرة لكفتيو في المصادر المصرية والتي يقولون أنها جزيرة كريت. بينما يؤكد بعض العلماء أن هذه القبائل جاءت من جنوب غرب آسيا الصغرى . راجع حسن، محمد خليفة م.س.ذ ص٢٤٣

(٦٢) توينبي .م.س.ذ. ص١١٤ . وكذلك سوسه م.س.ذ. ص١٥٧

حيث هناك نظرية يقودها نورمان جوتفال تقول بأن اسرائيل ظهرت الى الوجود نتيجة للنضال الثوري للفلاحين الكنعانيين الذين كانوا يعانون القهر، وتحالفهم مع الأسباط الإسرائيلية شبه الرحل ضد المدن الكنعانية التي اضطهدت الفلاحين واستغلتهم.وقد تبنى الفلاحون الكنعانيون ديانة يهوة، الإله الإسرائيلي الأول. كأيديولوجية ثورية مشتركة. ومن هنا جاء رفض هؤلاء لعبادة البعل التي كانت سائدة في المدن الكنعانية ، حيث كانت العودة اليها تعني العودة الى القمع الطبقي القديم.

أنظر بوعزعفرون.الحساب القومي.ت. محمد أبو غدير. مركز الدراسات الشرقية . القاهرة ١٩٩٥ ص٥٣.

(٦٣) الآراميون : شعب سامي استقر في منطقة الهلال الخصيب ثم في بلاد الشام حوالي القرن السادس عشر ق.م. وقد ورد أول ذكر لهم في أيام تجلات بل أسّر الأول عام ١١٠٠ق.م. وتحاول التوراة أن تجد صلة

بينهم وبين العبرانيين (تك ٢٢/١٠) .فأسلاف القبائل كانوا يأتون من المنطقة الآرامية، كما أن الآباء العبرانيين ارتبطوا بأصول آرامية واحتفظوا بالعلاقات مع الآراميين من خلال التزاوج. وقد تحدث يعقوب عن نفسه وعن أبيه قائلاً : آراميا تائها كان أبي (تث ٢٦/٥) وقد استقر الآراميون في منطقة الهلال الخصيب مع ضعف آشور في القرنين الحادي عشر والعاشر ق.م.، وانهيار الإمبراطورية الحثية . وأسسوا عدة ممالك الى الشرق من الفرات، كما بسطوا نفوذهم على الشام وعلى سهل البقاع الواقع بين سلسلتي جبل لبنان الشرقية والغربية.

(٦٤) شعب سامي قديم تجمعه - حسب الرواية التوراتية- صلة قرابة بالعبرانيين.أنشأوا مملكة شمالي مؤاب استمرت من عام ١٥٠٠ ق.م. حتي القرن الثاني الميلادي. وسموا عاصمتهم ربات عمون (عمان الحالية) ونشب بينهم وبين العبرانيين صراع طويل استمر طويلاً ، تبادلا خلاله الهزائم عند انقسام المملكة العبرانية الموحدة (٨٩٨ق.م.) وتحالفوا مع الكلدانين والآراميين وهاجموا المملكة الجنوبية.

(٦٥) قوم ساميون يرجع تاريخهم في فلسطين الى أواخر القرن الرابع عشر ق.م. ، أى انهم أسبق من القبائل العبرانية بزمن طويل في فلسطين، وينسبهم العهد القديم الى لوط (تك١٩/٣٧) من إبنته الكبرى، أى أنهم أبناء غير شرعيين له. وتقع مملكتهم في سهل مرتفع شرقي االبحر الميت يحدها شمالاً نهر الأردن والأدوميون جنوباً. وكان بينهم وبين العبريين حروب كثيرة. وقد بدأ الصراع حينما منع المؤابيون القبائل العبرانية من المرور بأراضيهم الى فلسطين. وفي عصر القضاه خضع العبرانيون للمؤابيين لمدة ١٨ سنة. وكان مقر الملك في أريحا، كما حاربهم شاءول في القرن الحادي عشر ق.م. وغزا داود مملكتهم بعد

أن كان لاجئاً عندهم أثناء هروبه من شاءول. وبعد موت سليمان أصبحت مؤاب جزءاً من المملكة الشمالية. وتحرم التوراة الزواج من المؤابيين ، علماً بأن راعوث ، جدة داود، كانت مؤابية وكذلك كانت إحدى زوجات سليمان.

(٦٦) حسن. محمد خليفة.م.س.ذ. ص٧٨

(٦٧) ظاظا، حسن م.س.ذ. ص٨٩

(٦٨) نفس المصدر ص٨١

(٦٩) وايتلام، كيث. م.س.ذ. ص١٠٣

(٧٠) بوعز عفرون. م.س.ذ. ص٥٥

(٧١) العمالقة أوالعماليق شعب سامي قديم أقام في أرض مدين (النقب) وكان يتجول بين جنوب كنعان ووسطها ثم استقر في الجنوب . أتى ذكره في التوراة بوصفه شعباً معادياً للقبائل العبرانية وهاجمهم بعد الهجرة من مصر، فقتل العديد منهم ولم يأت ذكر لهم في الكتابات المصرية أو الأشورية.

(٧٢) المديانيون: قوم من البدو كانوا يقيمون في منطقة صحراء النقب الواقعة بين مصر وفلسطين والحجاز. وكانوا يعملون بالزراعة والرعي والتجارة وهم ينتسبون - بصلة قربى - الى إبراهيم (حسب التوراة) . وقد تعاونوا مع المؤابيين ضد العبريين ، كما هاجموهم فيما بعد.

(٧٣) خابيرو: كلمة أكادية ذات دلالات متعددة، وهي تطلق على قبائل رحل من البدو ، كما ورد ذكر الخابيرو أيضاً في النقوش المصرية في القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق.م. واستخدمت للإشارة الى القبائل التي كانت تهاجم بلاد الرافدين وحدود مصر وتغير من أونة

الى أخرى على أرض كنعان. ومن دلالات الكلمة أيضاً" الجندي المرتزق" فهي تطلق إذن على جماعة من الرحل أو الغرباء المستعدين للانضمام الى صفوف أى جيش مقابل أجر. وكانت تستخدم أيضاً للإشارة الى أي عناصر فوضوية في المجتمع. ولا نعرف الكثير عن أصلهم من الناحية العرقية. وكل ما يمكن أن يقال أنهم ساميون كانوا لا يزالون في مرحلة البداوة والتجوال. وقد ظهروا أيضاً ضمن القبائل الآرامية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية، وإن كان بعض الباحثين يرون أنهم غير ساميين وهم عبارة عن جماعات مهاجرة عاشت حياتها متجولة تبيع خدماتها لأي أمة في المنطقة. ويقرن بعض الباحثين الخابيرو بالعبرانيين اعتمادا على التشابه الصوتي بين الكلمتين. وهذا ما يؤكده أيضاً نداف نئمان في مقاله Habiru and Hebrews . The Transfer of Social term to the Literary sphere. Jornal of new Eastern Studies. vol.45 oct.1986 . University of Chicago Press. حيث يقول أن كلمة " خبيرو" التي تعني "العبريين" لا تصف جماعة عرقية بل هي وصف سوسيولوجي لمجموعات هامشية في المجتمع تعمل في مجالات عمل هامشية وتنتقل من مكان الى آخر بل وتقوم بأعمال السرقة وتحاول السطيرة على المجتمع. لذا فهي لا تستقر في مكان. والعبريون إذن ليسوا آباء الإسرائيليين بل هم اسرائيليون وصلوا الى أماكن استقرارهم داخل المجتمع وعملوا في مهن هامشية . راجع بوعز عفرون. م.س.ذ.

(٧٤) عبيرو: كلمة ترد في المدونات المصرية القديمة في الفترة من منتصف القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثاني ق.م.ومعناها "عبيد". وتشير الى العمال الذين استخدموا في أعمال السخرة.ويقرن

بعض الباحثين هذه الكلمة بكلمة (خابيرو) التي وردت في المدونات الأكادية والتي تقرن بدورها بالعبرانيين .لكن هذا غير مؤكد.

وإن كان كثير من الباحثين يعتقدون أن لفظتي"عبرى"و"خبيرو" تعبران عن أمر أو مضمون واحد.و"العبوري" هو - وفق ذلك الاعتقاد الشائع - الشخص نفسه المنحدر من "الخبيرو"، أي من القبائل التي كان لها ارتباط وصلة بالآراميين ، بحيث يغدو العبريون ذو أصول آرامية قريبة أو بعيدة.

وهناك ما يشبه الإجماع على صحة القول بأن اليهود (العبرانيين) دخلوا الى فلسطين من مصر عند نهاية القرن الثالث عشر ق.م.، فإن ما يسميه بعض الباحثين - ومنهم فيليب حتي - "الهجرة الأولى" لليهود من الجزيرة العربية الى بلاد كنعان وعبر صلة ما مع قدوم الآراميين الى هناك، أو ربما كذلك عبر الاختلاط والاندماج بهم في بداية القرن الرابع عشر ق.م. وجد في دراسات تاريخية وآثارية ولغوية نقداً ذا دلالة تاريخية بعيدة المدى وصائبة الى حد بعيد. ومثل هذا النقد نجده لدى فرويد في حديثه عن "الخروج من مصر"(.. فإلى هذه البلاد(كنعان) كانت عشائر من الآراميين المحبين للحرب قد تسللت غازية ناهبة بعد تقوض الهيمنة المصرية.وترد في سجلات تل العمارنه تسمية هؤلاء المحاربين باسم "عابيرو"وقد أطلق هذا الإسم فيما بعد على الغزاة الجدد اليهود/ العبرانيين،الذين ما كان في مستطاع رسائل تل العمارنه أن تسميهم لأنهم قدموا في زمن لاحق. ويعلن Grahman بصيغة التأكيد واحدة من نتائج بحوثه في العلاقة بين الآراميين والخبيرو فيقول :"... من المؤكد أن العنصر العربي - البدوي في شبه الجزيرة العربية ، وهو على الأرجح مصطلح مرادف لتسمية (آرام) و(عبيرو) و(خبيرو)، وجد في

الأصل في المنطقة الممتدة بين سوريا وبلاد ما بين النهرين، والتي تعد أقدم مركز للساميين

راجع A.Grahman. The Arabis . Encycleobidia of Islam. New Edition. 1960 . vol1 .P 255 . وكذلك أيضاً أحمد سوسه م.س.ذ. ص٩٩

وبالتالي فقد أدى الالتباس في فهم اللفظتين (عبرى) و(خبيرو) الى تحريف الثانية لصالح الأولى ، بحيث أدى ذلك الى دمج العبريين والخبيرو والعبيرو في شعب واحد ، منح فيما بعد صفات إثنية ودينية واحدة مشتركة.

لذا فلا بد من أن نميز بين اللفظتين تمييزاً واضحاً ودقيقاً، إذ من شأن ذلك، إن تم على نحو تاريخي موثق،أن يقود الى النتيجة التالية:أن اليهود (العبرانيين) دخلوا فلسطين بعد الكنعانيين أولاً ثم بعد الخبيرو والآراميين ثانياً.

ويقول طيب تيزيني في مرجعه السابق ذكره أنه بالتالي يمكن أن نجمل عملية الدخوال الأقوامية الى فلسطين بثلاث حلقات كبرى تمت على النحو التالي :

١ـ الحلقة الكنعانية.

٢ـ الحلقة الآرامية (الخبيرو).

٣ـ الحلقة التي مثلها العبرانيون اليهود والفلستيون .

وإن كنا هنا نرى أن ط. تيزيني في تحديده للمرحلة الثالثة بأنها مرحلة العبرانيون والفلستيون إنما يقودنا الى منزلق اعتبار أن العبرانيين قد ساهموا في التشكيل الحضاري للمنطقة بصورة أو بأخرى . لكنهم في الحقيقة مع الفلستيون (شعوب البحر) عاشوا على

هامش حضارات المنطقة، بل إنهم (الفلستيون) سرعان ما ذابوا فيها، بينما عاش العبرانيون على هامش هذه الحضارات ينهبون من تراثها وينسبونه لأنفسهم، وهذا أقصى ما كان باستطاعتهم فعله في ذلك الوقت في ظل وجود الإمبراطوريات العملاقة التي تحيط بهم من كل جانب.

(٧٥) سفرخروج

(٧٦) سفراللاويين

(٧٧) تيزيني ، طيب. م.س.ذ.ص١٠٨

(٧٨) الحثيون : شعب غير سامي، يعتقد أنه دخيل على المنطقة وترجع جذوره الى أصول أناضولية.

(٧٩) الحويين: أحد الأقوام الكنعانية السبعة التي كانت تقطن في شمالي أرض كنعان حينما تسلل اليها العبرانيون. والإسم مأخوذ من لفظ كنعاني معناه " قرية" أو "مخيم"، ويقرن بعض العلماء إسمهم بكلمة حواء. وفي رواية أخرى فإن كلمة "حوي" حينما ترد في التوراة تكون تحريفاً لكلمة "حوري" في معظم الأحيان". وهناك نظرية ثالثة تقول أن الحويين كانت تربطهم صلة قربى بالآنيين وأن الإسمين مترادفان، وأنهم هاجروا الى كنعان في نفس الوقت الذي هاجر فيه الأخيون الى اليونان. وكانت علاقة الحويين بالعبرانيين طيبة .

(٨٠) سفرالقضاة

(٨١) سفر القضاة

(٨٢) تيزيني ، طيب . م.س.ذ. ص١١٠

(٨٣) نفس المرجع ص١١١

(٨٤) نفس المرجع ص ١١٦

"عصر التاريخ المختلق"
المسمى عصر الآباء
(٢١٠٠ - ١٢٠٠ ق.م)

هناك اتفاق بين المؤرخين على أن تحركات من يسمون "الآباء" الواردة في سفر التكوين، جاءت في فترة الاضطرابات التي أحدثها ظهور العمورين (قبل عام ٢٠٠٠ ق.م). وبعدها بقليل اجتاحت جميع أقطار الشرق القديم غزوات متبربرة أوقفت التطور الحضاري بها الى حين، بما في ذلك عصر بناة الأهرام في مصر، وأطلق عليهم البابليون إسم أهل الغرب، وتذكرهم المصادر الأكدية. وكانت هذه الشعوب تضم جماعات يرجح أنه كان بينها الآراميون الأوائل الذين استقروا في فدّان أرام أو على الأقل جماعة انحدر منها الآراميون فيما بعد. وبعد عام ٢٠٠٠ق.م بقليل نسمع بوجود دول عمورية في كل المنطقة، منها ماري وحرّان وقطانا وأوجاريت، ظهرت بوصفها مدناً عمورية يحكمها ملوك عموريون، وأصبحت بابل عاصمة دولة عمورية، كان يحكمها حمورابي العظيم عام ١٧٥٠ق.م. ويبدو أن العموريين وأقاربهم اندفعوا الى فلسطين ومصر مثيرين للقلاقل بهما. ومن الواضح أن العموريين كانوا في الأصل بدواً ساميين سكنوا صحراء الشام غرب أرض الواقدي. في منطقة الهلال الخصيب فيما بين نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني ق.م(١)، حيث اتسمت هذه الفترة بتعطل تام للمراكز الحضارية في المنطقة وتدمير للمدن ونزوح وهجرات ومن المعروف أن المملكة القديمة في مصر انتهت حوالي عام ٢١٨٥ ق.م إثر غزوات بربرية، شكل الآسيويون جزءاً رئيسياً من عناصرها البشرية، وأعقب ذلك فترة من الفوضى لم تنته إلا عام ١٩٩٠ ق.م مع ابتداء حكم الأسرة الثانية عشر.

وكما عرفنا من قبل، في بلاد الرافدين اجتاح العموريون القادمون من السهوب السورية كلاً من سومر وأكاد وأسسوا الأسرة العمورية التي كان حمورابي أشهر ملوكها. وتلقت كنعان موجة من هؤلاء

العموريين قضت بشكل كامل على مدن العصر البرونزي المبكر، أعقبتها فترة فراغ طويلة في الاستيطان الحضري، لأن العموريين في فلسطين لم يعتادوا سكنى الحواضر ولم يعمدوا الى إعادة بناء المدن التي دمروها (٢).

ولقد كشفت الحفائر الأثرية عن آثار العموريين في فلسطين. وعندما بدأت المدن الكنعانية تعيد بناء مواقعها القديمة خلال الربع الأول من الألف الثاني ق.م، أخذ العموريون يذوبون في هذه المجتمعات الى أن زالوا تماماً من التاريخ.

لكن من المرجح أن الفصل الأخير من تاريخ العموريين كتبه الهكسوس في مصر عندما دخلوها أواسط القرن الثامن عشرق.م وأنهوا بذلك المملكة المتوسطة. وأصبح من الثابت الآن ـ لدى كثير من العلماء ـ اعتماداً على نصوص"ماري"و" أوغاريت" أن أسماء ملوك الهكسوس الذين حكموا مصر خلال الفترة الانتقالية الثانية هي أسماء كنعانية أو عمورية مثل "يعقوب هاز"و" سيمو فنيا" وصار من الواضح الآن أيضاً لماذا قال المؤرخ المصري "مانيتو"في القرن الثالث ق.م. بأن الهكسوس كانوا قوماً من الفينيقيين وتراجعت نظريات الأصل الحثي أو الحوري أو الهندو أوروبي للهكسوس (٣).

وأكثر الآراء شيوعاً بين الباحثين الآن هو أن شخصيات روايات التكوين في التوراة(أى الآباء) تنتسب الى الأقوام العمورية، اعتماداً على الأصول اللغوية لأسمائها، كإسحق ويعقوب وعيسو. وأن تحركاتهم التي بدأت بنزوح إبراهيم من بلاد الرافدين ترجع الى النصف الأول من القرن الثامن عشرق.م وبالتالي،ووفقاً لهذه النظرية، فإن العبريين، الذين يفترض أن من أطلق عليهم الآباء قد خرجوا منهم، يعدون رافداً من الشعوب العمورية وصل الى كنعان في صورة أسرة أو قبيلة تعتمد

على السكنى في الخيام على هامش الحضارة الكنعانية، وهي في الغالب كانت قبيلة مسالمة، على الرغم من أنه لم يتم حتى الآن العثور على أدلة آثارية تثبت رواية التكوين. لأن تحركات الآباء كانت في حقيقتها تحركات قبلية قامت بها مجموعات لم تعرف الاستقرار ولا سكنى الحواضر.أو ممن أطلق عليهم تاريخياً "بدو الحمير"الذين اعتادوا السكنى على تخوم الحضر. أما النصوص التاريخية فتكاد تكون صامتة تماماً عن هذا الموضوع، سواء في بلاد الرافدين والشام أو في مصر .

وهذا الصمت هو الذي دفع باحثين محدثين الى البحث عن "الأصول المفترضة" للعبريين بعيداً عن النظرية العمورية وأصلهم السامي. فذهب كمال الصليبي الى اعتبار أنهم قبائل غير سامية نزحت عبر جبال أرمينيا الى العراق ومنها الى فلسطين، بينما يحاول سيد القمني السير على نفس النهج ويحاول إرجاع أصلهم الى الشعب الحوري . وهو ما سنناقشه تفصيلاً في الصفحات التالية.

ومن هنا فإنه يمكن القول بأن كل ما كتب ويكتب الآن عن روايات الآباء في التوراة ليس له سند آثاري أو تاريخي يدعمه. وكل ما كتب عبارة عن افتراضات علمية تعتمد المنطق في تحليلها دون أن يكون تحت يدها أدلة تاريخية تدعم بها نظرياتها. وبالتالي ليس أمامنا إلا أن نساير الرواية التوراتية - مؤقتاً- ومحاولة تطبيق المنهج التفكيكي عليها، باعتبارها المصدر الوحيد المتاح أمامنا، أو على الأقل، الأكثر ترابطاً، أمام شذرات الآثار التي تم العثور عليها حتى الآن. وسوف نحاول تفسير النصوص التوراتية في ضوء الأوضاع السائدة في الشرق القديم إبان تلك الفترة، وإن كان هذا لا يعني قبولنا لتلك الفترة على أنها البداية الحقيقية للتاريخ اليهودي، بل نحن نوردها هنا ونناقشها لا لشيء إلا لأن التوراة حاولت الانتساب اليها ومد الجذور

في أعماقها. وبالتالي فنحن سنحاول هنا استشراف تلك العلاقة دون التقيد بانتساب "الإسرائيليين" أو "اليهود" لها .

***

الفصل الأول

* * *

إبراهيم في التوراة

"لِمَ تحاجون في إبراهيم"

١ ـ استفاض العهد القديم في سفر التكوين في عرض سيرة إبراهيم (عليه السلام) لدرجة أنه أرجع مولده الى(أور) الكلدانيين[٤] وارجع نسبه الى سام بن نوح. فهو ، كما جاء في سفر التكوين " أبرام بن تارح بن ناحور بن ساروج بن أرغو بن فالج بن عابر بن شالح بن قينان بن أرفخشاد بن سام بن نوح[٥].

وجاء أيضاً في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين ذكر أبناء تارح : ولد أبرام وناحور وحاران. وأن حاران ولد لوطاً ومات قبل أبيه في أرض ميلاده. وأن أبرام وناحور اتخذا لهما زوجتين، حيث تزوج أبرام من سارة(ساراي) وناحور من(ملكة) بنت حاران...أما سارة فكانت بنت تارح من زوجة أخرى، كما جاء على لسان إبراهيم: "وبالحقيقة هي أختي إبنة أبي غير أنها ليست إبنة أمي فصارت لي زوجة[٦]. وفي نفس الإصحاح،أخذ تارح أبرام إبنه ولوطاً بن حاران وساراي زوجته فخرجوا معاً من أور (الكلدانيين) ليذهبوا الى أرض كنعان. فأتوا الى حاران وأقاموا هناك وكانت أيام تارح ٢٠٥ سنة. ومات في حران[٧]

ويأتي الإصحاح الثاني عشر لتبدأ فيه قصة أبرام (إبراهيم) حيث تبدأ القصة بذكر أن الرب قال لأبرام :

" إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك وأعظم إسمك وتكون بركة وأبارك من يباركك ومن يلعنك ألعنه.وفيك تتبارك جميع قبائل الأرض". فخرج أبرام وقومه ومعه لوطاً إبن أخيه، كما أمره الرب، متخذا طريقه الى كنعان. وهناك في كنعان يستقر به المقام في "شكيم" (نابلس) الى أن ظهر له الرب ثانية وقال له:"لنسلك أعطي هذه الأرض، فبني هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له. ثم انتقل من هناك الى الجبل ونصب خيمته شرق بيت إيل ثم واصل رحلته الى الجنوب[٨] ويستطرد سفر التكوين بعد ذلك فيقول لما جاء الى كنعان لم يرتح

للإقامة فيها. وبعد أن حدث جوع في الأرض ارتحل عنها متخذاً طريقه الى مصر. وقال لساراي (ساره) إمرأته وهو على مقربة من مصر" إني علمت أنك إمرأة حسنة المنظر، فإذا رآك المصريون قالوا هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك، قولي أنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك[٩].وحدث ما توقعه "فلما دخل أبرام مصر رأي المصريون أن المرأة حسنة جداً ومدحها رؤساء فرعون لديه. فأخذت المرأة الى بيت فرعون فصنع الى أبرام خيراً بسببها وصار له بقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال[١٠]. لكن (الرب) أنزل على فرعون ضربات عظيمة مما اضطره لأن يعيدها الى زوجها ومعها كثير من الهدايا والإماء والعبيد وكان من بين هذه الإماء "هاجر"(التي دخل بها إبراهيم بعد ذلك وأنجبت له إسماعيل).

وخرج أبرام بعد ذلك من مصر هو وامرأته وكل ما حصل عليه حيث صار ثرياً جداً وعاد الى بيت إيل[١١]، حيث كانت خيمته قبل انحداره الى مصر. لكن الأرض لم تحتمل أبرام ولوط ومن معهما من حاشية فاتفقا على أن يسكن أبرام في أرض كنعان ولوط في مدن الدائرة ونقل خيامه الى سدوم. وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب[١٢] .

بعد ذلك تجلى الرب (يهوه) لأبرام في أرض كنعان وقال له"إرفع عينيك وانظر في الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً،لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الأبد وأجعل نسلك كتراب الأرض. حتى إذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك يعد أيضاً. قم إمش في الأرض طولها وعرضها لأني لك أعطيها". فنقل أبرام خيامه بعد ذلك وأقام عند بلوطات ممرا التي هي حبرون (الخليل) وبنى فيها مذبحاً للرب.[١٣]

ونشب قتال بين أمراء البادية والحضر في تلك البقاع "فخرج ملك سدوم وعموره وملك أدمه وملك صبوييم وملك بالغ التي هي صوعر ونظموا حرباً معهم في عمق السديم مع كدر لعومر ملك عيلام وتدعال ملك حوييم وإمرافل ملك شنعار وأربوك ملك الآسار.. فهرب ملكا سدوم وعموره وسقطا هناك، والباقون هربوا الى الجبل، فأخذطوا جميع أملاك سدوم وعموره وجميع أطعمتهم ومضوا...وأخذوا لوطاً إبن أخي أبرام ومضوا.إذ كان ساكناً في سدوم. فلما سمع أبرام أن إبن أخاه سبي جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته وعدتهم ثلثماية وثمانية عشر وتبعهم الى دان. ودهمهم ليلاً هو وعبيده فكسرهم وتبعهم الى حوبة الى الشمال من دمشق واسترجع ما أخذوه واسترجع لوطاً وسبي النساء والرجال"(١٤) وقد سير اليهم ملوك آشور جيوشهم وفرضوا عليهم الجزية، وبعد فترة استمرت ثلاثة عشر عاماً ثار حكام سدوم، فاجتاح الأشوريون سوريا كلها وأخضعوا سلالة العماليق، ونزلوا أرض سدوم وقتلوا من أهلها الكثيرين وأسروا ما تبقى، وكان لوط من بين الأسرى وكان يحارب الأشوريين كحليف للسدوميين، وسارع إبراهيم الى نجدة لوط ورفاقه من السدوميين وفاجأ الأشوريين عند "دان" وهي لاخيش وسميت دان من عصر القضاه) وأوقع بهم الهزيمة وطاردهم الى حوبه في أرض الدمشقيين وانقذ السدوميين. وهناك تقابل مع ملكي صادق ملك (شاليم)(١٥)

بعد ذلك يظهر (الرب) لأبرام (في الرؤيا) قائلاً:" لا تخف يا أبرام. أنا ترس لك، وأجرك عظيم .. الذي يخرج من أحشائك هو الذي يرثك،. وقال له الرب أنا الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها. فقال ...وبم أعلم أنني أرثها ".. وهنا قطع الرب معه عهداً:" خذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشاً ثلاثياً ويمامة وحمامة. فأخذ هذه كلها

وشقها من الوسط واجعل كل شق مقابل صاحبه، وأما الطير فلم يشقه وجعل أبرام يزجر الجوارح التي تهبط عليه. ولما صارت الشمس الى المغيب وقع على أبرام سبات ونزلت عليه رعبة عظيمة فقال (الرب) لأبرام:"إعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم يستعبدون فيها ويستذلون أربعماية سنة.ثم أدين الأمة التى تستعبدهم فيخرجون بأملاك جزيلة وتمضي أنت الى آبائك بسلام. وتدفن بشيبة صالحة، ثم يرجع نسلك في الجيل الرابع الىّ هاهنا. إذ لم يتم بعد ذنب الأموريين. ثم غابت الشمس ورانت فتحة في الأفق. وإذا تنور دخان ومصباح نور يجوز بين تلك الشطور...في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقه قائلاً: "لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات ".

ويأتي الإصحاح السادس عشر ليخبرنا أن ساراي زوجة أبرام كانت عاقراً لا تلد.فطلبت من أبرام أن يدخل بجاريتها هاجر"هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة. فادخل الى جاريتي لعلي أرزق منها بنين" فلما رأت هاجر أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها. فقالت ساراي لأبرام ظلمي عليك دفعت جاريتي الى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت في عينيها، يقضي الرب بيني وبينك .فقال أبرام لساراي "هو ذا جاريتك في يدك إفعلي بها ما يحسن في عينيك فأذلتها ساراي فهربت من وجهها. فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية، على العين التي في طريق شور، فقال : ياهاجر جارية ساراي من أين أتيت؟ والي أين تذهبين؟ ...إرجعي الى مولاتك واخضعي تحت يديها.. تكثيراً أكثر نسلك فلا يحصى .. ها أنت حبلى وتلدين إبناً وتدعينه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك.وكان أبرام إبن ستة وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل.

ويأتي الإصحاح السابع عشر ليخبرنا أنه حينما كان أبرام ابن

تسع وتسعين سنة ظهر له الرب(يهوه) وقال: أنا الله القدير (إيل شداي)، سر أمامي وكن كاملاً. فأجعل عهدي بيني وبينك. وأكثرك تكثيراً جداً. فخر أبرام ساجداً وتكلم مع الله (الوهيم) قائلاً:"أما أنا فهذا هو عهدي معك. وتكون أباً لجمهور من الأمم، فلا يدعى إسمك بهد اليوم أبرام بل يكون أبراهام لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً ومنك ملوك يخرجون. وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبدياً، لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك، وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم. أما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم . هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم. إبن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر في أجيالكم".

وقال الله (إلوهيم) لأبرام

"ساراي إمرأتك لا تدعو إسمها ساراي،بل إسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضاً منها إبناً. فخر إبراهيم ساجداً وضحك وقال في قلبه: هل يولد لإبن مائة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة؟". وقال أبرام لله:"ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله: بل سارة إمرأتك تلد لك إبناً وتدعو إسمه إسحق، وأقيم عهدي له عهداً أبدياً لنسله من بعده. .. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنذا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. إثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة، ولكن عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت من السنة الآتية (١٦).

وبعد ذلك تلد سارة إبناً أسمته إسحق وكان عمرها في ذلك الوقت تسعون عاماً.

ويأتي الإصحاحان الثامن عشر والتاسع عشر ليحدثانا عن قصة سدوم وهلاكها. وينتهي الإصحاح التاسع عشر بهلاك سدوم. وفي

الإصحاح العشرون نعود ثانية الى أبرام حيث يرتحل الى أرض الجنوب ويسكن بين قادش وشور ويتغرب في جرار. وهنا تتكرر قصة سارة مع فرعون مصر، لكنها هنا مع أبيمالك ملك جرار..وصار لأبرام بسببها غنماً وبقراً وعبيداً وإماء وردت اليه سارة. وقال أبيمالك: "هو ذا أرضي قدامك تسكن فيها ما حسن في عينيك".

وفي الإصحاح الحادي والعشرون تلد سارة إسحق وختنه أبرام وهو إبن ثمانية أيام . وكان عمر أبرام مائة عام .

ولما رأت ساره إبن هاجر (إسماعيل) يمرح قالت (لإبراهيم) "إطرد هذه الجارية وإبنها. لأن إبن هذه الجارية لا يرث مع إبني إسحق. فقبح الكلام جداً في عيني إبراهام بسبب إبنه فقال (الله) لأبراهام لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقول لك ساره إسمع قولها لأنه بإسحق يدعى لك نسل وإبن الجارية أيضاً سأجعله نسلاً لأنه نسلك." فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعاً إياهما على كتفها وصرفها. فمضت وتاهت في برية بئر سبع ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد. تحت إحدى الأشجار مضت وجلست مقابله بعيداً على مرمى القوس. لأنها قالت لا أنظر موت الولد . فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء. وقال لها: ما لك ياهاجر لا تخافي . لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي إحملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعلك أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء. فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر وأخذت أمه زوجة له من أرض مصر[١٧] .

ثم يأتي الإصحاح الثاني والعشرون ليحدثنا عن قصة الفداء (بإسحق وليس بإسماعيل) وامتحان الله لأبراهام:"خذ إبنك وحيدك، الذي تحبه، إسحق واذهب الى أرض الموريا واصعد هناك محرقة على

أحد الجبال التي أقول لك"..“فأخذ أبراهام حطب المحرقة ووضعه على إسحق إبنه وأخذ بيده النار والسكين. فذهبا كلاهما معاً. وكلم إسحق إبراهام أباه وقال ياأبي فقال ها أنا ذا ياإبني. فقال هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة...وبني إبراهيم هناك المذبح ورتب الحطب وربط إسحق إبنه ووضعه على المذبح فوق الحطب... فناداه ملاك الرب من السماء وقال لا تمد يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئاً ، لأني علمت أنك خائف الله. فلم تمسك إبنك وحيدك عني". وبعد ذلك يناديه ملاك الرب ثانية من السماء قائلاً له: " بذاتي أقسمت يقول الرب. إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك إبنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطيء البحر ويرث نسلك باب أعدائه. ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي".

ويخبرنا الإصحاح الثالث والعشرون بموت سارة وهي في السابعة والعشرين بعد المائة "في قرية أربع التي هي حبرون في أرض كنعان"(١٨). ولم يكن أبراهام يمتلك أرضاً ليدفن فيها موتاه. فكلم بني حث "الحثيين" قائلاً : " أنا غريب ونزيل عندكم،إعطوني ملك قبر لأدفن ميتي من أمامي. فأجاب بنو حث إبراهيم قائلين له: إسمعنا ياسيدي . أنت رئيس من الله بيننا. في أفضل قبورنا إدفن ميتك. لا يمنع أحد منا قبره عنك. لكن أبراهام طلب أن يشتري مغارة المكفيلة الموجودة في حقل عفرون بن صوحر. وكان عفرون جالساً بين بني حث. فأجابه على مسمع من قومه لدى جميع الداخلين باب مدينته قائلاً :لا ياسيدي.. إسمعني. الحقل وهبتك إياه والمغارة التي فيه وهبتها لك.فقال أبراهام: بل أعطيك ثمن الحقل فأدفن ميتي هناك. فأجاب عفرون أبراهام: ياسيد إسمعني.أرضي بأربعمائة شاقل فضة ما هي بيني وبينك فادفن ميتك.

واشترى أبراهام الحقل والمغارة.

وتقترب القصة من نهايتها في الإصحاح الرابع والعشرون. فيخبرنا أن أبراهام شاخ وتقدم في العمر.ورفض أن يزوج إبنه إسحق فتاة من الكنعانين. فطلب من عبده مستحلفاً إياه ألا يأخذ زوجة لإبنه من بنات الكنعانيين، بل يزوجه من عشيرته. فقال له العبد: ربما لا تشاء المرأة أن تتبعني الى هذه الأرض. هل أرجع بإبنك الى الأرض التي خرجت منها؟ فقال أبراهام:إحذر من أن ترجع بإبني الى هناك. الرب الله السماء الذي أخذني من بيت أبي ومن أرض ميلادي والذي كلمني والذي أقسم لي لنسلك أعطي هذه الأرض هو يرسل ملائكته قدامك. فتأخذ زوجة لإبني من هناك.وإن لم تشأ المرأة أن تتبعك تبرأت من حلفي هذا. أما إبني فلا ترجع به الى هناك".

ومضى العبد الى آرام النهرين، كما أمره أبراهام. وهناك التقي عند عين ماء برفقة التي ولدت لبتوئيل بن ملكة إمرأة ناحور أخي أبراهام خارجة وجرتها على كتفها وكانت الفتاة حسنة المنظر جداً، وعذراء لم يعرفها رجل. وسرعان ما تعرف اليها وما أن عرف أنها بنت بتوئيل بن ملكة الذي ولدته لناحور حتى خر ساجداً للرب...

وطلب العبد الفتاة من لابان أخاها وأخبره بكل قصته وبكل ما قال له أبراهام . فقال له: هو ذا رفقه قدامك . خذها واذهب فلتكن زوجة لإبن سيدك كما تكلم الرب.

وفي لحظة وداعها في صبيحة اليوم التالي، قال لها إخوتها : أنت أختنا، صيري ألوف وربوات.وليرث نسلك باب مبغضيه"وعاد بها العبد الى كنعان واتخذها إسحق زوجة له وأحبها فتعزى إسحق بعد موت أمه ونصل الى الإصحاح الخامس والعشرون والأخير في قصة أبراهام ليخبرنا أن أبراهام تزوج إمرأة إسمها"قطورة" وأنجب منها العديد من

الأبناء.. وأعطى أبراهام إسحق كل ما كان له. أما أبناء السراري اللواتي كانت لأبراهام فأعطاهم عطايا وصرفهم عن إسحق إبنه شرقاً الى أرض المشرق، وهو بعد على قيد الحياة. ومات أبراهام وهو يبلغ من العمر ١٧٥ سنة . ودفنه إسحق وإسماعيل إبناه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون بن صوحر الحثي الذي أمام ممرا .

١ـ١ ويمكننا الآن أن نتوقف لنلقي ببعض الملاحظات الأولية على بناء القصة كما جاءت في التوراة قبل أن نتعامل معها تفكيكياً .

١ـ يلاحظ ـ وفقاً للرواية التوراتية ـ أن أبراهام توقع قبل الوصول الى مصر ما سيحدث له ولسارة. وقد نم هذا السلوك عن جانب هام في التصور التوراتي للشخصية.

٢ـ أو لم يكن أبراهام ثرياً قبل ذلك. وهل كان ـ وهو الرجل المؤهل للنبوة ـ في حاجة الى هذه الخدعة ليكسب الحياة المادية ويفقد الحياة الروحية التي خلق لها ؟ .

٣ـ يلاحظ أن أبراهام ـ الرجل المسالم ـ الذي ترك أرضه في سبيل دعوة دينية، يتحول الى رجل حرب له جيشه الخاص"المتمرنين" ويخوض معارك دموية ضد أعدائه ويسبي النساء والرجال .

٤ـ يلاحظ في البناء اللغوي للفقرة الخاصة بتفضيل إسحق على إسماعيل أنها مقحمة على النص الأصلي لتبرير تميز إسحق ." خذ إبنك وحيدك الذي تحبه إسحق، وضح به". فوضع كلمة "وحيدك" مع كلمة إسحق لا يمكن أن يستقيم لغوياً. فعلى سبيل المثال لو افترضنا أن شخصا ما قابلنبي في الطريق وسألني "كيف جال إبنك"؟ لو كان لدي إبن واحد، لأخبرته على الفور بحالته. أما لو كان لدي أكثر من إبن لبادرته بالسؤال أيهما؟ ومن هنا فإنه لابوجد ما يبرر وجود كلمة

وحيدك بجوار الإسم لأنه معرف هنا بالتخصيص. وبالتالي فإن الجملة السليمة المفترضة في النص الأصلي هي" خذ إبنك الذي تحبه وضح به". ولو صح ذلك فإنه يمكن القول بما يشبه الجزم أن الذي طلب أن يضحى به هو الإبن الوحيد لإبراهيم. وهو في هذه الحالة إسماعيل وليس إسحق.

٥- يلاحظ الإختلاف بين طبيعة الوعود الإلهية لأبراهام (وسوف نتناولها في مبحث خاص).

٦- يلاحظ أن أبراهام لم يكن يمتلك أى قطعة أرض في كنعان قبل "حصوله"على مغارة المكفيلة، مما يعني أنه ظل حتى وفاته غريباً عن المكان وليست له أى ملكية فيه على الرغم من ثرائه الذي أشار اليه سفر التكوين. كما لفت انتباه النقاد أيضاً الحديث عن" الفضة الرائجة بين التجار"، (قال عفرون:"أرضي تساوي أربع مائة مثقال من الفضة، وهذا ليس بشيء بالنسبة لي أو اليك؛ فادفن ميتك فيها. فلما سمع ابراهيم ذلك منه، وزن له الفضة التي ذكرها على مسامع بني حث، أربع مائة مثقال فضة، مما هو رائج بين التجار".[١٩] إذ أن أرض كنعان لم تعرف سك النقود في زمن ابراهيم.

٧- يلاحظ أن دعاء إخوة رفقة لها لحظة انصرافها بتكثير النسل والتفوق على كل الكارهين والأعداء، يكاد يتطابق مع نفس الوعد الإلهي لأبراهام بالتكثير ووراثة الأرض. وهنا يحق لنا أن نتساءل هل كان هذا دعاءاً شائعاً لدى الشعوب القديمة ولا علاقة له بوعد سماوي؟ ولعل أصداء هذا الدعاء لا زالت باقية حتى الآن في صورة دعاء الوالدين لأبنائهما لحظة الزواج أوالسفر للترحال "روح يابني ربنا يطرح فيك البركة وينصرك على من يعاديك ".

٨- إذا كان أبراهام قد صرف أبناء السراري، بل وحتى أبناء

زوجته قطورة، وإذا كانت هاجر(في العرف اليهودي سرية أو حتى تعادل قطورة، فلماذا يظهر إسماعيل - دون باقي إخوته - ليشارك في دفن أبيه ؟. قد يقول قائل لأنه الإبن الأكبر. ولكن هل تعترف اليهودية بغير الإبن "الشرعى" بكراً؟

ونظراً لأنه تكون لدينا الآن يقين بتعدد المصادر التي جمعت منها التوراة، فلا بد من أن نتعرف على المصادر في قصة إبراهيم - كما سردتها التوراة - لتحري الصدق التاريخي ومصداقية هذا السرد .

أول ما يمكن أن نلاحظه في قراءتنا لقصة أبراهام هو أننا كنا طوال القصة نتعامل مع "يهوه" حتى جاء الإصحاح السابع عشر ليظهر إلوهيم جنباً الى جنب مع يهوه.

وإذا قمنا بمحاولة الفصل بينهما نجد الآتي :

" ولما كان أبرام إبن تسع وتسعين سنة ظهر(يهوه) لأبرام وقال له أنا الله القدير(إيل شداي) سر أمامي وكن كاملاً.فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً(تك ١/١٧ - ٢). "فسقط أبرام على وجهه وتكلم (إلوهيم) معه قائلا: أما أنا فهذا هو عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم، فلا يدعى إسمك بعد أبرام بل سيكون إسمك إبراهيم لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم".

ومن الآن فصاعداً يبدأ تداخل المصدرين(اليهوي والألوهيمي)معا بصورة تكاد تكون غير ملحوظة،لدرجة أنهما يظهران معا أحياناً داخل الفقرة الواحدة. وعلى أية جال فإنه يمكن الفصل بين يهوه وإلوهيم تفكيكياً في قصة إبراهيم التوراتية على االنحو التالي :

يهوه	الوهيم
من ١٢ : ١٦	
١- (يهوه) هو الذي أخرج إبراهيم من أور	

الكلدانيين (تك ١/١٢) وكان عمره ٧٥ سنة

٢ـ الوعد(الأول) : لنسلك أعطي هذه الأرض (تك ٦/١٢).

٣ـ يختفي يهوه طوال رحلة إبراهيم الى مصر وحتي افتراقه عن لوط ولم يعاود الظهور إلا في تك ١٤/١٢ ليكرر الوعد " لنسلك أعطي هذه الأرض ".

٤ـ يختفي يهوه طوال الإصحاح الرابع عشر .

٥ـ يظهر في الرؤيا . لا تخف يا أبرام . أنا ترس لك . أجرك كثير جداً . والوعد (الثاني): أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها " ثم قطع معه العهد .

٦ـ ساره عاقر . ودخول إبراهيم بهاجر وولادة إسماعيل .

٧ـ ولما كان أبرام إبن تسع وتسعين سنة ظهر له (يهوه) وقال له أنا الله القدير (إيل شداي) سر أمامي وكن كاملاً فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك جداً فسقط أبرام على وجهه وتكلم (الوهيم) معه قائلاً: " أما أنا فهذا هو عهدي معك ، وتكون أباً لجمهور من الأمم . فلا يدعى إسمك بعد أبرام بل يكون أبراهام. لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم (الوعد الألوهيمي) .

وقال أبراهام (لإلوهيم) ليت إسماعيل
يعيش أمامك. فقال (الوهيم) بل سارة
إمرأتك تلد لك إبناً وتدعو إسمه
إسحق وأقم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله
من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك
فيه.هاأنا أباركه وأثمره وأكثره جداً.لكن
عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده لك
ساره في هذا الوقت من السنة الآتية.

ص١٨ "

" وظهر له (يهوه) عند بلوطات ممرا وهو
جالس في باب الخيمة وقت حر النهار ..
فقال " يهوه" لأبراهام [يلاحظ هنا يهوه
مع أبراهام] لماذا ضحكت ساره قائلة
فبالحقيقة ألد وأنا قد شخت ، هل يستحيل
علي الرب (يهوه) شيء . في الميعاد أرجع
اليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة إبن
ومن ثم يضرب سدوم

٢٩/١٩:" يحدث لما ضرب (الوهيم)
مدن الدائرة أن الوهيم"ذكر أبراهام
وأرسل لوطاً من وسط الإنقلاب حيث
قلب المدن التي سكن فيها لوط (٢٠)
قصة إبراهيم وساره مع ملك جرار .

(١٨/٢٠)
لأن (يهوه) كان قد أغلق كل رحم لبيت

أبيمالك بسبب ساره إمرأة أبراهام (٢١/ ١-٢) ؛ وافتقد (يهوه) ساره كما قال. وفعل (يهوه) كما تكلم فحبلت ساره وولدت إبناً في شيخوخته في الوقت الذي تكلم

(الوهيم (٢١/١٧). فسمع (الوهيم) صوت الغلام ونادى ملاك (الوهيم) هاجر من السماء وقال لها مالك ياهاجر لا تخافي لأن (الوهيم) قد سمع لصوت الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة.[يلاحظ هنا وعد إلوهيم لإسماعيل].وكان الوهيم مع الغلام فكبر.(تك٢٢/قصةالتضحيةبإسحق

١١/٢٢

فناداه ملاك (يهوه) من السماء وقال أبراهام، أبراهام. فقال ها أنذا .فقال لا تمد يدك الى الغلام لا تفعل به شيئاً لأني علمت أنك

خائف(الوهيم) فلم تمسك إبنك وحيدك عني

١٤/٢٢

فدعا أبراهام إسم ذلك الموضع يهوه يراه. حتى أنه يقال اليوم في جبل الرب يرى. وينادي ملاك (يهوه)

أبراهام ثانية من السماء : فقال بذاتي
أقسمت يقول (يهوه) ..أني من أجل أنك
فعلت هذا ولم تمسك إبنك وحيدك أباركك
مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء
ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض (الوعد
الثالث)
تك ١/١٤
وبارك (يهوه) أبراهام في كل شيء.....
استحلفك بيهوه إله السماء والأرض
إلا تأخذ زوجة لإبني من بنات الكنعانيين
يهوه اله السماء أخذني من بيت أبي ومن
أرض ميلادي والذي كلمني والذي أقسم لي
قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض هو يرسل ملاكه
أمامك . فتأخذ زوجة لإبني من هناك . ومات
أبراهام

(تك٢٢/١١) وكان بعد موت
أبراهام أن الوهيم بارك إسحق
إبنه
***

١ـ ٢ يمكننا الآن أن نطرح هذه الملاحظات علّها توضح لنا كنه هذه القصة التوراتية :

١ـ يلاحظ أن يهوه قدم ثلاثة وعود. الأول والثاني منهما يتعلقان بالأرض ووراثتها، بينما يتعلق الثالث بتكثير النسل ولا علاقة له بالأرض. بينما لم يقدم (إلوهيم) إلا وعدا واحداً بتكثير النسل

وكان خاصاً بتكثير نسل إسماعيل ولم يتحدث بالمرة عن إسحق.

٢- يلاحظ أن قصة فرعون مصر مع ساره هي قصة يهوية بينما نفس القصة مع ملك جرار إلوهيمية.

٣- يلاحظ أن تغيير إسم أبرام الى أبراهام إلوهيمياً وليس يهوياً . على الرغم من ظهور يهوه ومناداته لأبرام بهذا الإسم في الإصحاح الثامن عشر. لكن هذا لا يغير من حقيقة أن مانح الإسم الجديد هو إلوهيم وليس يهوه .

٤- عقم ساره كان يهوياً وإنهاء عقمها إلوهيمياً، على الرغم من ظهور ذلك أيضاً في اليهوي (٢١/١-٢).

٥- قصة التضحية(بإسحق) إلوهيمية، على الرغم من الخلل اللغوي فيها وخاصة فيما يتعلق بالإسم (إسحق) و(إسماعيل).وعلى الرغم من ظهور يهوه في الصورة في الإصحاح ٢٢/١١ .

ويمكن هنا أن نتوقف ثانية مع القصة كما جاءت في سفر التكوين، وبخاصة بدءًا من الإصحاح الثاني عشر لتوضيح مدى عدم اتساق الرواية التوراتية، الذي يؤدى بالضرورة الى عدم الثقة في مصداقيتها التاريخية.

" فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب معه لوط. وكان أبرام إبن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران (تك ١٢/٤).

وهذا يعني أن أبرام كان عمره ٧٥ سنة حينما غادر حاران متخذاً طريقه الى كنعان .

" فأخذت ساراي إمرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها ومن بعد عشر سنين لإقامة أبرام في أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له (تك ١٦/٣).

فإذا كان أبرام قد خرج من حاران الى أرض كنعان وعمره ٧٥ سنة فهذا يعني أنه تزوج من هاجر وعمره ٨٥ سنة.

" كان أبرام إبن ستة وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام (تك ١٦/١٦) .

وهذا يعني أن هاجر حملت مباشرة وولدت في العام التالي . وكان عمر أبرام ٨٦ سنة كما ورد بصريح العبارة.

لكنا نرى في الإصحاح السابع عشر :

" ولما كان أبرام إبن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له أنا الله القدير سر أمامي وكن كاملاً (١/١٧) وكان إسماعيل إبن ثلاث عشرة سنة حين ختن في لحم غرلته (تك ٢٤/١٧).

وهذا يعني صراحة أن إسماعيل كان عمره ثلاث عشرة سنة حينما اختتن وعمر أبرام تسع وتسعون سنة.

ثم نرى :" وقال في قلبه هل يولد لإبن مئة سنة وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة (٢٢/١٧).

وهذا يعني بالضرورة أن إسماعيل كان عمره أربعة عشر عاماً حينما ولد إسحق . ثم نرى في الإصحاح الحادي والعشرون :

" فكبرالولد وفطم. وصنع أبرام وليمة عظيمة يوم فطام إسحق (٨/٢١).

وإذا كان الفطام في عامين أو حتى في عام، فهذا يعني أن عمر إسماعيل كان يتراوح بين ١٥و١٦ سنة في الوقت الذي فطم فيه إسحق.

ثم نرى:" فقالت لأبرام إطرد هذه الجارية وإبنها لأن إبن هذه الجارية لا يرث مع إبني إسحق (١٠/٢١) .

وفي هذا دليل على أن طرد هاجر وإبنها إسماعيل قد تم بعد ولادة إسحق الذي يكبره إسماعيل بأربعة عشر عاماً. وأن الطرد تم بعد عام أو

عامين، أى أن إسماعيل وأمه هاجر ـ وفقاً لرواية سفر التكوين ـ طرد وعمره ستة عشر عاماً أو خمسة عشر على أقل تقدير. فمن أين كان إسماعيل طفلاً حتى يأتي نفس السفر بعد ذلك ليقول: فبكر أبراهام صباحاً وأخذ خبزاً وقربة ماء، وأعطاهما لهاجر واضعاً إياهما على كتفها والولد وصرفها فمضت وتاهت في برية بئر سبع. ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار. ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس. لأنها قالت لا أنظر موت الولد. فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت فسمع الله صوت الغلام... قومي إحملي الغلام .وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة .. وكان اله مع الغلام فكبر .

ويمكن أن نخرج من هذه القصة بشيئين ـ على الرغم من الخلل البنائي الواضح فيها .

١ـ أن إسماعيل يكبر إسحق بأربعة عشر عاماً .

٢ـ طرد إسماعيل وهاجر جاء بعد فطام إسحق.

وعلى الرغم من أن المصادر الإسلامية لا تدخل في نطاق بحثنا عن التاريخ اليهودي،لأن المصادر الإسلامية والقرآن بصفة خاصة ليس تاريخاً ـ إلا أن المصادر الإسلامية في هذه النقطة بالذات تؤكد أن إسماعيل كان طفلاً حينما طرد هو وأمه الى مكة(بئر سبع في التوراة)، وهو ما يتوافق مع الفقرة التي أغلقناها سابقاً من النص التوراتي. كما أن المصادر الإسلامية تقول بأن الطرد كان بناء على أمر الهي، بينما ترجعه التوراة الى أمر سارة لزوجها لغيرتها(٢١) الأمر الذي يدفعنا الى القول بأن القصة كما جاءت في التوراة ـ بها كثير من الخلل في ترتيب الأحداث، وهنا نجزم بأن قصة الطرد في المصادر الإسلامية هي الأدق وأن الطرد تم حينما كان إسماعيل رضيعاً، أي قبل ولادة إسحق بفترة طويلة. ويمكن أن ينسحب هذا بالضرورة على ما سبق

الإشارة اليه في قصة التضحية.

١ـ ٣ قد يكون اختلاف المكان الذي طردت اليه هاجر (مكة في المصادر الإسلامية وبئر سبع في المصدر التوراتي) هو الذي دفع أحد الباحثين المحدثين الى البحث عن موقع أحداث القصة بل وأحداث العهد القديم كله في مكان آخر غير أرض كنعان. ووجد هذا المكان قريباً من مكة ، وتحديداً في منطقة عسير. لذا فقد رأينا أن نعرض نظرية هذا الباحث (الدكتور كمال الصليبي) حول شخصية إبراهيم ومكان أحداث القصة. لكن عرضنا لها لايعني بالضرورة أننا متفقون معه فيما ذهب اليه، لكنا نعرضه في محاولة تفكيكية أيضاً لاستجلاء الصورة من كافة جوانبها ، علنا نصل الى يقين في النهاية .

لكن قبل أن نعرض هذه النظرية والتي سيتواتر ذكرها كثيراً على مدار هذه الدراسة، نود الإشارة الى أننا حينما نبدي تحفظنا من هذه النظرية فإن هذا لا يعني أننا نصادر مسبقاً على حرية البحث العلمي، وإنما يعني في المقام الأول التنويه الى أن هذه النظرية قد تقودنا الى نتائج خطيرة على صعيد البحث العلمي التاريخي، الأمر الذي يتطلب منا الحذر البالغ في التعامل معها. وأهم هذه النتائج هي :

أولاً: أن النقاش الدائر داخل حلقات علماء التوراة والتاريخ والآثار حول مصداقية النص التوراتي ككتاب تاريخي، والذي لم يحسم بعد على الرغم من احتدام المعركة ، نجد أن الصليبي قد حسمه لصالح التوراة التي اعتبرها كتاباً تاريخياً موثوقاً في جميع تفاصيله ولم يأت هذا الحسم لصالح المسائل التي صمتت عنها وثائق الشرق القديم وأوردتها التوراة، بل تعدى ذلك الى التشكيك في مصداقية كل وثائق الشرق القديم لصالح النصوص التاريخية التوراتية .

ثانياً : هذه النظرية تضع تاريخ الشرق القديم كله على أرض غير صلبة لأنها ترى أن السجلات التاريخية للمنطقة قد قرئت حتى الآن بطريقة خاطئة، وبالتالي فقد قدمت مؤشرات جغرافية أو تاريخية تتوافق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيين. وبذلك يسقط الصليبي من اعتباره كل جهود علماء اللغات القديمة وجهود علماء التاريخ ويتغاضى عن المعلومات التي توصل اليها علم التاريخ استناداً الى وثائق الشرق القديم المكتوبة. وبذلك فإنه يخرج التوراة من دائرة الشكوك التي يدخل اليها وثائق الشرق القديم .

ثالثا: لقد اسقطت هذه النظرية من حسابها كل نتائج علم الآثار في فلسطين وبلاد الشام .

رابعاً: ترسم هذه النظرية خريطة سياسية وبشرية فريدة من نوعها لبلاد الشام والجزيرة العربية. فبعد أن تنقل مسرح الحدث التوراتي الى غرب الجزيرة العربية، تنقل أيضاً كل مواطن الشعوب الأخرى التي تشابكت أخبارها مع الرواية التوراتية.

ملخص نظرية كمال الصليبي (٢٢) :

يذهب كمال الصليبي بعيداً في محاولته إثبات شخصية إبراهيم، حيث يقول:"نبتديء بالتمعن في ما يقوله سفر التكوين عن أصل أبرام. أبرام بن تارح من سلالة عابر. وقد كان عابر هذا من سلالة سام بن نوح(تك١١/١٠ـ٢٧).وهو الجد الأعلى لكل بني عابر(تك١٠/٢١). ويستفاد من ذلك أن أبرام بن تارح كان ينتمي الى قبيلة تعرف باسم" بني عابر" أو ربما الى تحالف من عدة قبائل تحمل هذا الإسم. وهناك وصف لأبرام في مقطع واحد من سفر التكوين ١٣/١٤ بأنه كان "عبريا" أو"عبرانياً". وقد تبدو هذه الصفة، على الأقل للوهلة الأولى، نسبة الى قبيلة أو شعب"عابر"ولكن أبرام وهو أيضاً أبراهام حسب القصة كان له أخ إسمه

ناحور (تك ١١/٢٦ ـ ٢٩). ويشدد سفر التكوين على أن إبن ناحور هذا أو حفيده من بعده كانا من الآراميين (تك ٢٤/٢٤ ، ٢٨/٥ ، ٣١/٢٠ ـ٢٤). ولا يعقل أن يكون ناحور بن تارح آرامياً إلا إذا كان أخوه أبرام أو أبراهام آرامياً أيضاً. وكذلك لا يعقل أن يكون أبرام آرامياً وأن يكون هو ذاته عبرانياً في نفس الوقت. إذن فنحن في البداية أمام شخصيتين إسمهما أبرام،وكلاهما يسمى أيضاً أبراهام. فهناك أبرام عبراني وأبرام آرامي. وربما كان أبرام العبراني يرمز الى"الجد الأعلى" المفترض لإحدى القبائل العبرانية، وأن إسم أبرام الآرامي يرمز الى "الجد الأعلى المفترض" لقبيلة آرامية أخرى لا علاقة لها في الأصل بالأولى. ويحدد الصليبي ملامح كل من هذين الإبرامين وفقاً للنص التوراتي، على النحو التالي :

١ـ أبرام العبراني : يتحدث تكوين ١٤ عن أبرام العبراني وكأنه بالفعل شخصية تاريخية. ومن أوصافه أنه كان زعيماً محلياً له غلمان متمرنون على القتال(تك ١٤/١٤) وكان هو نفسه يقودهم في الحرب بمهارة (تك ١٤/١٥) لنصرة بني قومه (تك ١٤/١٣ـ ١٦). وكان في نفس الوقت حريصاً على إرضاء حلفائه، محافظاً على مصالحهم ولو كان ذلك على حسابه (تك ١٤/٢٤) . وحذراً واسع الحيلة ، بعيد النظر محنكاً في المفاوضة (تك١٤/١٧ـ٢٠). وكان يسكن في بلوطات ممرا(تك١٤/٣).وكان له إبن أخ إسمه لوط يسكن في سدوم(تك١٤/١٢ـ ١٦) وكان أبرام يعترف بألوهية(إيل عليون) وفي الترجمة العربية ومعظم الترجمات الأوروبية الحديثة (الله العلي) (تك ١٤/٢٢). وفيما عدا ذلك لا يبدو أنه كانت له أية صفة دينية خاصة. وتظهره القصة رجل حرب ومفاوضات وليس رجل دين. ويظهر أبرام العبراني هذا في تكوين ٢٣، حيث ماتت زوجته في قرية أربع المعروفة على أنها حبرون. فتفاوض أبرام مع سكان المنطقة وأقنعهم أن يبيعوه حقل المكفيلة،الى الشرق من ممرا ليجعل

المغارة التي في ذلك الحقل مدفناً لزوجته (تك ٢٣/١٨٣) ولا بد أن أبرام/ أبراهام الذي دفن في مغارة المكفيلة ، الى الشرق من ممرا هو أبرام العبراني بالذات وليس أى أبرام آخر .

ويضيف الصليبي في نفس الكتاب[٢٣] أن ممرا هذه هي بلدة النمرة الحالية في تهامة جنوب الحجاز، المحازية لمرتفعات عسير الى الشرق من القنفذه.وفي المنطقة المجاورة(وهي من عسير)قرية خربان وهي (حبرون) التوراتية. وفي جوار النمرة أيضاً قرية إسمها المقفلة مازالت تحمل إسم المكفيلة التوراتية الى اليوم. وفي ذلك الجوار أيضاً مجمع من أربع قرى إسم كل منها يبدأ بلفظة (قرية). وهي اليوم قرية آل سيلان، وقرية الشياب وقرية عاصمين وقرية عامر وإذا كان لنا أن نشك في أن ممرا التوراتية هي اليوم النمرة في منطقة القنفده، وبأن حبرون هي اليوم خربان في جوار النمره هذه، فليس من شك في أن المكفيلة التوراتية هي المقفلة هناك. وبأن قرية أربع هي مجمع القرى الأربع في الجوار ذاته.

ويستطرد الصليبي قائلاً: إذن، كان موطن أبرام العبراني في منطقة القنفده أي في الجزء الجنوبي من تهامة الحجاز، حيث تتداخل تهامة الحجاز مع تهامة عسير. وفي تحديد الموطن ما يضفي قدراً من التاريخية على شخصية أبرام العبراني. فهل كان أبرام هذا بالفعل شخصاً تاريخياً ؟ أو أنه "الجد الأعلى" الأسطوري للشعب العبراني الذي كان يعيش في القدم في تلك المنطقة؟ أو أنه كان بطلاً أسطورياً يحمل إسم قبيلة عبرانية في تلك المنطقة أطلق عليها إسم أبرام، أى"الجد الأعلى". ربما لأنها كانت تعتبر في زمانها الجذع الأساسي من الشعب العبراني في ذلك المكان .

وهناك في منطقة القنفدة، حيث النمرة (ممرا) وخربان (حبرون)

والمقفله (مكفيلة) والقرى الأربع (قرية أربع) قرية إسمها (بُرَم) ولعل في إسم هذه القرية استمرار لأبرام كإسم قبيلة.

ويخلص الى أن كل ذلك إنما يشير الى أن أبرام كان بالفعل إسم قبيلة عبرانية في ذلك الجوار في جملة مجموعة من القبائل العبرانية ومنها قبيلة هاران وقبيلة لوط المتفرعة من هذه الأخيرة.

ويبدو أن التقليد الكهنوتي الذي قام بجمع قصص سفر التكوين قد دمج اسطورة أبرام العبراني الذي يمثل بشخصية قبيلة أبرام العبرانية المذكورة مع أسطورة أبرام الآرامي وأساطير أخرى عن شخص إسمه أبرام، فأدخل إسم لوط بن هاران على هذه الأساطير الأخرى وإن بطريقة هامشية ليحكم ربطها بالأسطورة الأولى، فصار كلما ذكر تحركاً لأبرام غير أبرام العبراني أضاف: وذهب معه لوط (تك ٤/١٢) أو"ولوط معه" (تك١/١٣). ولتفسير هذا الترافق المستمر بين لوط(وعمه) أبرام، جعل التقليد الكهنوتي هاران، يترك أخاه أبرام مسئولاً عن إبنه لوط. واستغل التقليد الكهنوتي قصة تخريب سدوم وعمورة، وهي في الأصل أسطورة مستقلة تتحدث عن مكان آخر، فدمجها هي أيضاً بقصة أبرام المركبة واتخذ منها عذراً لإبعاد لوط آخر الأمر عن ساحة القصة (تك ١٩/ ٢٧-٣٨).

٢- أبرام الآرامي: في سفر التكوين شخص إسمه أبرام له أخ إسمه ناحور (٢٧/١١) ونسل ناحور هذا كانوا من الآراميين يتكلمون اللغة الآرامية. ومن هذا يمكن افتراض أن أبرام الذي يروي سفر التكوين قصته في الإصحاحين الحادي عشر والثاني عشر هو أبرام الآرامي والذي هو غير أبرام العبراني. وهذه هي علاماته الفارقة :

١- كان موطنه الأصلي في أور كسديم (في الترجمة العربية أور الكلدانيين).

٢- كان له أخ إسمه ناحور (تك ١١/٢٧-٢٩).

٣- كان أبرام هذا متعبداً للرب (يهوه) . ويبدو أن علاقاته الخاصة بهذا الإله ابتدأت في حاران بعد وفاة (أبيه) ويتجه الى الأرض التى يرشده اليها واعداً إياه بأنه سيجعل منه أمة عظيمة (١٢/١-٢) فترك حاران وارتحل الى كنعان (١٢/٥). وأقام مذبحاً للرب يهوه في أول مكان توقف فيه (١٢/٧) .

٤- في تكوين ١٣/٢-٤، أبرام هذا "غني جداً بالمواشي والفضة والذهب. ارتحل من النجب (الجنوب في الترجمة العربية) وعاد الى المكان الذي كان فيه في البداية، بين بيت إيل وعاي (ويحدد لهما الصليبي أيضاً أسماء شبيهة في أرض عسير).

٥- في تكوين ١٥/٧ ، يظهر الرب يهوه لشخص إسمه أبرام ويقول " أنا يهوه الذي أخرجك من أور كسديم. وقد يبدو للوهلة الأولى أن أبرام الذي خاطبه الرب (يهوه) ما هو الا أبرام الآرامي الذي كان موطنه أور كسديم. لكن الواقع هو أن يهوه - كما سبق - لم يأمر أبرام الآرامي بالخروج من أور كسديم، بل من حاران(تك١٢/١)، وكان قد خرج في وقت سابق من أور كسديم برفقة (والده) (تك ١١/٣١)، دون أن يكون للرب يهوه علاقة بهذا الأمر .

٦- في تكوين ٢٢ مقطع ملحق بطريقة مصطنعة يتحدث عن خبر وصل أبرام عن ذرية أخيه ناحور (٢٢/٢٠-٢٤) وأبرام هذا هوأبرام الآرامي الذي كان أخاً لناحور.

٧- في تكوين٢٤/١-٦١ أرسل أبرام كبير عبيده الى (أرضه وعشيرته) ليتخذ زوجة لإبنه، فذهب الى منطقة آرام نهاريم. وهو هنا أبرام الآرامي.

وقد سبق ملاحظة أن بني ناحور، من أبناء أبرام الآرامي، كانوا

يتكلمون الآرامية وليس العبرية (لغة كنعان) (تك ٤٧/٣١). ويلاحظ من تك ٣١/ ١٩، ٣٢، ٣٥ ، أن بني ناحور على عكس بني آرام الآرامي كانوا من عبدة الأصنام (التيرافيم) وليسوا من عبدة يهوه. وفي ذلك ما يشير الى أن ارتحال أبرام الآرامي عن أرضه وعشيرته عندما خرج من حاران كان بسبب انتقاله من عبادة الأصنام الى عبادة يهوه، على عكس أخيه ناحور الذي بقي على عبادة الأصنام ولم يجار أخاه أبرام في اعتناق دين يهوه. ويضيف الصليبي أن أسماء الأماكن المقرونة باسم أبرام الآرامي في سفر التكوين تدل على أن موطنه كان بالحجاز .

وهكذا يكون أبرام الآرامي (الجد الأعلى) لآرآميي سراة زهران وأبرام العبراني (الجد الأعلى) للقبائل العبرانية في منطقة القنفدة وجوارها من عسير.

٣ـ أبرام الشباعة : وهو مايصفه سفر التكوين بأنه كان مقيماً في بئر سبع (٢٣/٢٦)، حيث كان له غرس من شجر الإثل (٣٣/٢١، ٢٢/ ١٩) وبئر سبع أو شبعه التوراتية لم تكن بلدة بئر سبع المعروفة في جنوب فلسطين بمنطقة النقب، بل هي قرية الشباعة بداخل عسير في أعالي وادي بيشة ، وهي اليوم جزء من مدينة خميس مشيط. وأبرام الشباعة (أي بئر سبع التوراتية) لم يكن حجازياً كما كان أبرام الآرامي. ولم يكن تهامياً كما كان أبرام العبراني، بل إن موطنه كان في منطقة خميس مشيط، وعلاماته الفارقة هي :

١ـ في تك ١٢/ ١٠ـ ٢٠ أبرام الذي نزل الى مصرايم هو أبرام الشباعة ، حيث طلب من زوجته ساراي أن تتظاهر بأنها أخته (١٢/١٣).

٢ـ يظهر أبرام الشباعة مرة أخرى في قصة تيه زوجته الثانية هاجر في البرية. وهي حامل بإبنه إسماعيل (١٦/١ـ١٥). وفي هذه القصة ما يوحي بأن إسماعيل كان إبن أبرام الشباعة وبأن بئر لحي

كانت موطن إسماعيل بن هاجر وليس موطن إسحق كما جاء في تك ٢٤/٢٦ ، ٢٥/١١) ، علماً بأن هاجر كانت حاملاً في إسماعيل عندما كانت تائهة هناك، مما يعني أن إسماعيل ربما يكون قد ولد هناك .

٣ـ يظهر أبرام الشباعة لثالث مرة في تك ٢٠/١ـ١٨ ، وفي جرار حيث يطلب ثانية من سارة أن تقول أنها أخته. ويلاحظ أن هذه القصة تروى ، وللمرة الثانية في سفر التكوين عن اسحق بن أبراهام.

٤ـ يظهر لرابع مرة في تك ٢١/٩ـ٢٠ ، حيث يطرد هاجر من بيته نزولاً على رغبة زوجته الأولى ساراي(وهي هنا ساره وقد تغير إسمها). فتأخذ إبنها إسماعيل وتتيه في برية بئر سبع أي في برية الشباعة. وتضيف القصة عند نهايتها أن إسماعيل بن هاجر استقر بعد ذلك في برية فاران (والأرجح أن فاران هذه هي اليوم الواحة المعروفة باسم الفران في بلاد زهران)

٥ـ يظهر مرة خامسة في تك ٢١/٢٢ـ٣١) حيث تتحدث القصة عن مفاوضة بين أبراهام وملك جرار حول ملكية البئر التي كان قد حفرها في بئر سبع (الشباعة). ولعل أبرام الشباعة هو نفسه أبرام (تك ٢٢/ ١ـ ٦) الذي تزوج من قطورة بعد طرده لهاجر ووفاة ساره.

ويرى الصليبي أن عملية الدمج بين هذه "الأبرامات" تمت في التوراة على النحو التالي :

أـ تمت عملية الدمج بين أبرام الشباعة وأبرام تكوين ١٥ في تك ١٦/١، حيث أعطى أبرام الشباعة زوجة عاقر وهي ساراي التي (لم تلد له).

ب ـ دمج أبرام الشباعة مع أبرام الآرامي عن طريق الخلط بين "النجب" التي ارتحل اليها أبرام الشباعة من مصرايم و"النجب" التي ارتحل اليها أبرام العبراني من بيت إيل .

ج - تم دمج أبرام الشباعة مع أبرام العبراني بجعل الأول يأتي من بئر سبع (٢٩/٢٢) ليندب ويبكي على زوجة الثاني ويقوم بدفنها في مغارة المكفيلة.

وهناك أبرام رابع يتحدث عنه الصليبي وهو من ورد ذكره في سفر التكوين الإصحاح الخامس عشر، ولقد تجنبنا هنا التعرض له لأن الصليبي يورده على أنه إله أسطوري وليس بشراً، بينما نحن هنا بصدد التاريخ البشري ليس إلا ولا دخل لنا بالأسطورة .

٤- أبرام اليمن: أبرام تكوين ١١، وهو قبيلة قديمة كانت تقطن ناحية برم بجنوب اليمن . لكن هذه القبيلة(أي أبرام١١) لم يكن لها أي علاقة معروفة بأبرام العبراني ولا الآرامي ولا الشباعة. أضف الى ذلك أن موطنها كان بعيداً كل البعد عن مواطن الأبرامات الثلاثة. غير أن التقليد الكهنوتي باهتمامه بقضية الأنساب لم يشأ إلا أن يعرف أبرام الآرامي (وبالتالي أبرام الشباعة والعبراني) بأبرام اليمن. وهذا الأخير وحده هو إبن تارح. فجعل تارح وهو (أبو) أبرام اليمن، يقوم بإخراج أبرام الآرامي من أور كسديم الى حاران. وذلك عن طريق إدخال إسمه في بداية قصة أبرام الآرامي [وأخذ تارح أبرام إبنه.. فخرجا معا من أور كسديم ليذهبا الى أرض كنعان (١٣/١١). وبعد ذلك أضاف التقليد الكهنوتي ذاته بأن تارح مات في حاران (٣٢/١١) وهكذا تخلص من شخصية لم يكن لها وجود في الأصل في قصة أبرام الآرامي بعد أن وفّت هذه الشخصية بالغرض المطلوب منها، وهو تعريف أبرام المذكور بأنه نفسه أبرام اليمن .

ويخلص الصليبي من ذلك في النهاية بإقرار أن "بني إسرائيل"، مثلهم مثل سائر الشعوب التاريخية،لم يكونوا شعباً واحداً في الأصل، بل مجموعة من القبائل مختلفة تم توحيدها على مراحل عن طريق

الالتفاف والتحالف لسبب أو لآخر. ومن بني إسرائيل" قبائل كانت في الأصل عبرانية تعيش في (أرض كنعان) الأصلية، وهي تهامة عسير وتتكلم الكنعانية.ومنهم قبائل كانت في الأصل آرامية، وكانت هذه القبائل تعيش في بلاد الحجاز. وكان لعبادة يهوه دور أساسي في توحيد هذه القبائل المختلفة أصلاً، إذ أن التوحيد كان يتوافق في كل مرحلة من مراحله مع تحول قبائل جديدة عن عباداتها الأصلية المتنوعة الى عبادة يهوه، مع الإبقاء على بعض التقاليد المتعلقة بعباداتها السابقة، من أساطير وخرافات وعادات الخ. وقد كانت عبادة يهوه في الأصل واحدة من عبادات كثيرة منتشرة بين قبائل جزيرة العرب. وقد كان لها وجود قديم في اليمن. ومن هناك انتشرت مع نزوح القبائل الى الحجاز. وما أن تم توحيد بني إسرائيل حتى بدأت عبادة يهوه تتحول على أيدي أنبياءهم من عبادة وثنية تعترف بتعدد الآلهة الى ديانة توحيدية أصبح فيها يهوه هو الإله الأعلى . ثم الله الواحد (بالعبرية إلوهيم) .

٤ـ١ هناك أيضاً دراسة أخرى ، لا تقل طرافة عن دراسة الصليبي، نود أيضاً أن نضعها هنا كجزء من الصورة الكلية التي نسعى اليها، وهي دراسة سيد القمني "النبي إبراهيم والتاريخ المجهول"(٢٤) والتي يقول عنها أنها تحاول :

١ـ كشف التاريخ المزيف في علاقة النبي إبراهيم بفلسطين .
٢ـ إضاءة المعتم في علاقة النبي إبراهيم بالمصريين .
٣ـ الوصول الى الموطن الحقيقي للنبي إبراهيم .
٤ـ خط السير الصادق لارتحالاته في المنطقة.

ودون أن نتوقف بالنقد والتحليل عند كثير من "الأخطاء" و"المغالطات" الواردة في هذه النظرية، سنحاول أن نلخصها فيما يلي :

عن علاقة إبراهيم بفلسطين، يقول القمني أن أول ذكر لإبراهيم (عليه السلام) في التوراة، يأتي في سياق حديثها عن هجرة قادها أبوه (تارح بن ناحور) مع أفراد عائلته من موطنهم الأصلي، وهؤلاء المرتحلين خرجوا من مكان أسمته التوراة (أور الكلدانيين) دون أن توضح سبباً عقدياً أو خلافاً فقهياً أو سياسياً لخروجهم من هذا المكان الحضاري العريق. وكل ما تذكره أن هدف المرتحلين كان أرض كنعان والتي تواتر وصفها في التوراة بأنها أرض اللبن والعسل، مما يشير الى أن هدف الرحلة كان الوصول الى أرض أكثر خيراً وفيئاً.

وينطلق من الخريطة التوراتية لخط السير الإبراهيمي، ليقول أنه إذا كانت كنعان (هدف الرحلة) هي فلسطين الحالية، فهي بذلك تقع الى الغرب من أور، تفصلهما مسافة من بادية الشام الأردنية، لكن الركب - ودون سبب واضح - يتحول شمالاً ويستمر يضرب مسافات وبلداناً ومواطن.. حتى يصل الى ما تسميه التوراة حاران (التي حددها الباحثون داخل الحدود الأرمنية التركية القديمة. وهنا يتساءل لماذا التحول عن الطريق المباشر والقصير الى كنعان، وتجشم الصعاب للوصول الى كنعان) عن طريق حاران؟ ناهيك عن أن هذه الرحلة التي كانت تستغرق على ظهور الحيوانات أكثر من أسبوع قد استغرقت عن طريق حاران خمسة عشر عاماً. ثم لماذا يذهب عبد إبراهيم (فيما بعد) لجلب زوجة لإبنه الى آرام النهرين وليس الى حاران أو أور .

ثم يصل الى الهدف الرئيس من هذه الدراسة وهو الموطن الحقيقي لإبراهيم، ليقول أنه " أرمني" إنطلق من أرمينيا الى كنعان (فلسطين) وفقاً لخط السير التالي :

- الانطلاق من (أور آرتو) جنوب أرمينيا في المنطقة الكاسية .
- الهبوط الى الجنوب متخللاً بلاد الحور .

- الاستمرار جنوباً الى فلسطين .
- الهبوط من فلسطين الى مصر .
- الخروج من مصر الى جزيرة العرب، حيث "مصر الأقصى" أو اليمن.

وبالتالي يمكن أن نخرج من ذلك الى أن التقاء النظريتين (نظرية الصليبي ونظرية القمني) في منطقة واحدة وهي الجزيرة العربية (عسير عند الصليبي) و(اليمن عند القمني) وإن كانا قد اختلفا في تعيين نقطة الإنطلاق، حيث يرى الصليبي أن البداية كانت في قلب الجزيرة العربية، بينما يراها القمني في أرمينيا جنوب روسيا. وعلى الرغم من أننا لسنا بصدد التعليق على الروايتين بالنقد والتحليل، إلا أنه لا بد من أن نتوقف - ولو وقفة سريعة - عند كل منهما لخطورة الطرح الذي يقدمانه. فخطورة طرح الصليبي تكمن في أنه يرى أن "بني إسرائيل" قد طوروا في منطقة عسير منذ مطلع القرن التاسع عشر ق.م. ديانة قادرة على اجتذاب المهتدين اليها من خارج موقعها الأصلي، خاصة وأنها ديانة ذات كتاب، طورها إناس قادرون على القراءة والكتابة. هذا بالاضافة الى أنه وفقاً لهذه النظرية تحسم كل مسائل الخلاف حول التوراة وتدوينها لصالح التوراة باعتبارها كتاباً تاريخياً موثوقاً في جميع تفاصيله. كما أن هذه النظرية تستبعد بذلك التوراة من دائرة الشك وتدخل بدلاً منها كل وثائق الشرق القديم. ويرسم الصليبي في هذه النظرية خريطة سياسية وبشرية فريدة لبلاد الشام والجزيرة العربية، نقل اليها أيضاً كل مواطن الشعوب التي وردت أخبارها في الرواية التوراتية.فالكنعانيون موجودون في فلسطين والساحل السوري وأيضاً في عسير وغرب الجزيرة العربية، ومدنهم تحمل نفس الأسماء هنا وهناك. والآراميون موجودون في بلاد الشام

الداخلية وموجودون أيضاً في غرب الجزيرة ومدنهم تحمل نفس الأسماء. وكذلك الفلستيون بمدنهم الخمس والأموريين والمؤابيين والعمونيين وغيرهم. وبهذا فإن النتيجة النهائية التي يضعنا أمامها الصليبي هي تغييب تاريخ الشام ومنطقة الهلال الخصيب إزاء إبراز تاريخ "بني إسرائيل"، الذي يرى أنه وحده هوالتاريخ الموثوق. كما أنه يبعد بنا عن الافتراض شبه المؤكد الذي أجمع عليه كل العلماء تقريباً، وهو أن تسمية عبري وعبريين لا تعني جنساً بقدر ما تعني صفة لأقوام قد تختلف أجناسهم، لكنها صفة تنطبق عليهم جميعاً.

ويبدو أن ما فعله سيد القمني لا يبعد كثيراً عما فعله الصليبي. فنراه يذهب بالآراميين الى أرمينيا مسقطاً من حساباته كل تاريخهم "السامي" في المنطقة ويرجعهم الى جذر هندو أوروبي . بل يكاد يكون أخطر ما في نظرية القمني هو نسب إبراهيم الى"الأرمن"، متناسياً أن سيدنا إبراهيم هو"أبو الأنبياء" وجد سيدنا محمد "صلعم"، وبالتالي فلا مندوحة لديه من أن يكون سيدنا محمد أرمنياً من جنوب روسيا أو على الأقل من أصل أرمني ولا علاقة له لا بالعرب ولا بالعربية وبالتالي فإن "ديانته" ذات جذور هندو أوروبية أيضاً .هذا على الرغم من إجماع كل العلماء تقريباً على اعتبار أن الشرق هو مهبط الديانات ومهدها الأول. لذا لا نرى سبباً مقنعاً يقودنا الى تجريد الشرق من هذه الخاصية وإرجاعها الى جذور أخرى، دون سند علمي أو حتى منطقي. وعلى الرغم من ادعاء هاتين النظريتين بالابتكارية، إلا أننا نرى أصداء لهما لدى علماء أوربيين،. وكما أوضحنا في المقدمة، فإن التوجه الأوربي الاستشراقي سعى الى تغريب تاريخ المنطقة وإنكار الزمان على شعوب المنطقة الأصليين لصالح التاريخ التوراتي و"الشعب اليهودي".

ويكفي أن نورد هنا نموذجاً واحداً لإثبات ذلك نجده في كتاب

"اليهودية بين الأسطورة والحقيقة"[٢٥]جذوراً لكل هذه المظريات، فهو الأقدم من حيث زمن النشر، وهو ـ إضافة الى الرجوع بإبراهيم الى خارج الجزيرة العربية وفلسطين، يحوله الى أسطورة لا علاقة لها بالواقع. حيث يقول "كانت هناك أسطورة باسم "براما"، كانت واسعة الانتشار قبل ظهور العبريين، وعرفت في بلاد إيران والهند وما حولها. وأنها أصل عقيدة براهما الهندية، وأن العبريين بدورهم قد تبنوا هذه الأسطورة وحولوها الى شخصية إنسانية واحتسبوا(براما)جدهم البعيد تأسياً على منهج التدين القديم القائم على تقديس الأسلاف ".

١ـ٥ هناك أيضاً نظرية أحمد سوسة، وهي جديرة بالتوقف عندها لبناء الصورة الكلية.

يقول أحمد سوسة في هذه النظرية أن التحقيقات الآثارية التي توصل اليها العلماء أثبتت أن إبراهيم (كشخصية تاريخية) ظهر في القرن التاسع عشر ق.م. . ويتفق هذا مع ما ذكره بعض المؤرخين العرب في تعيين تاريخ عهد إبراهيم. فقد حدد المسعودي الفترة الممتدة بين عهد إبراهيم وموسى وخروجه من مصر: ٥٦٧ سنة [٢٦]. وإذا كان العلماء قد عينوا تاريخ خروج اليهود من مصر تحت قيادة موسى بالقرن الثالث عشرق.م.(وسوف نتحدث عن ذلك تفصيلاً فيما بعد) فيكون هذا التحديد مطابقاً تماماً لما توصل اليه العلماء بتعيين زمن إبراهيم في القرن التاسع عشر .

أما بالنسبة لمكان ولادة إبراهيم، فيكاد يكون هناك إجماع بين العلماء على أنه ولد في العراق، إلا أن الروايات اختلفت حول تعيين مكان ولادته بالضبط. فبعضهم ذكر أن مولده في (أور) الكلدانيين(على الرغم من أن الكلدان لم يظهروا على مسرح التاريخ الا في القرن

الثاني عشر ق.م. ولعلها هنا أوراً أحرى أوهي أور العراقية نفسها لكن اليهود ربطوها بالكلدان أثناء تواجدهم في الأسر/التهجير البابلي(٢٧). وعيّنه البعض الآخر في بلدة (أوروك) (الوركاء حالياً)، وحدد البعض مدينة "كوثا" كمسقط لرأسه وبها طرح في النار وأطلال هذه المدينة ما زالت تسمى حتى الآن باسم "تل إبراهيم" والى جانب التل مزار يعرف باسم" مقام إبراهيم" ويقول إبن بطوطه أن مولده كان في " البرس" (برس النمرود) ، وقد ورد ذكر محاولة النمرود طرح إبراهيم في النار هناك . وفي "البرس"كل مرتفع يقوم عليه اليوم مزار حديث يعزى الى كونه مقام إبراهيم أو قبره ، إلا أن أكثر المراجع الإسلامية تؤكد مولده في "كوثا"(٢٨). وإن كان بعض المحدثين أبدوا الشك في ولادة إبراهيم في العراق، فيميلون الي الرأى بأن هناك مدينة أخرى باسم أورجيز أو (الداجنة) بالقرب من حران، حيث أسست جملة مدن قوية كانت بالدرجة الأولى مراكز تجارية وعرفت باسم أور.(٢٩) إن كانت هذه النظرية لا تعتمد على أى دليل علمي، وربما هي نفسها التي اعتمد عليها القمني في بناء نظريته عن أصل إبراهيم.

ووفقاً للرواية التوراتية، فإن إبراهيم ينتمي للقبائل الآرامية(٣٠) وهى قبائل عربية نزحت من موطنها الأصلي في الجزيرة العربية واستقرت على ضفاف الفرات في شمال سوريا. ثم نزل بعض أفراد أسرها الى العراق وفي جملتهم أسرة إبراهيم. وإذا أخذنا بما توصل اليه العلماء حول تعيين تاريخ هجرة الآراميين فتكون أسرة إبراهيم قد جاءت الى منطقة بابل حوالي الألف الثانية ق.م.

وقد روى يوسيفوس في كتابه"تاريخ اليهود" الكتاب الأول الفصل السابع، نقلاً عن نيقولاوس الدمشقي (القرن الأول ق.م.) أن إبراهيم بلغ دمشق أولاً وولي أمرها،حيث يقول:خرج إبراهيم بجحفل كبير من بلاد

الكلدان فملك في دمشق ثم زايلها بعد مدة وأقام في كنعان.

أما فيما يتعلق بهجرة إبراهيم الى كنعان، فيتفق الخبراء على أنه سلك طريق الفرات الأيمن في رحلته من أور الى حران. وهي الطريق التي كانت تسلكها القوافل. وكانت مع إبراهيم جماعته وممتلكاته من قطعان وأغنام والمعزي والحمير والجمال. فيكون قد قطع في هذه الرحلة ٥٦ ميلاً أي ٩٠ كم بين أور وحران. فمر أولاً بمدينة ماري السامية وهي عاصمة العموريين، الذين ظهرت منهم السلالة البابلية الأولى والملك حمورابي. وقد كانت هذه المدينة تتمتع آنذاك بأوج ازدهارها. ثم ذهب منها الى حران وبعد ذلك غادر حران متجهاً الى دمشق بطريق تدمر، ومنها الى فلسطين (حوالي ٦٠ ميلاً، ٩٦ كم أخرى بين حران وكنعان).أما الطريق الذي سلكه الى مصر فهو اختراق صحراء شبه جزيرة سيناء حيث القبائل المديانية والقينيية.

ويضيف أيضاً أن المكتشفات الآثارية قد أثبتت أن إبراهيم حقيقة واقعة، حيث ظهر ما يشير الى وقوع نزاعات دينية أساسية في العراق في حوالي نفس الفترة التي هاجر فيها أبراهيم. ودارت هذه النزاعات حول منزلة إله الساميين(إله القمر سين) الذي جاء به الساميون العرب من موطنهم الأصلي، فانبثقت من هذه النزاعات والحوارات العقيدة الوحدانية التي بشر بها إبراهيم، وأصبح أول مؤسس لها وحامل لوائها. وتشير النصوص القديمة التي عثر عليها الى أن سلالة من السلالات السامية البابلية حكم فيها أمراء كانوا يتقبلون عقيدة التوحيد وأخذوا بها إلا أن الوثنيين انتزعوا منهم الزعامة وأخرجوهم من البلاد. وينقل الفقرة التالية عن فيلبي في كتابه "مقومات الإسلام - عرض لتاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام:"إن الساميين الجنوبيين نقلوا معهم الى بابل الإله القمر الذي كانوا يعبدونه. وقد احتل هذا

الاله مكانة رفيعة بين مجموعة الآلهة ولم ينافسه إلا الإله القمر الذي كان يعبده الآريون الشماليون. وقد انبثقت من هذا النزاع الحساس بذرة فكرة الإله الخالق الأوحد الأعظم الذي يسير جميع هذا الكون. وهي تعد أعظم ما أظهرته الإنسانية في تاريخ العالم. وتنسب الأقوال المتواترة هذه الرحلة من التفكير الإنساني الى الأب أبراهام الذي كان حامل لواء هذه النظرية الجديدة. ويبدو أن هذه الفكرة الجديدة قد حازت إقبالاً كبيراً لدى الوثنيين . ففي بعض الألواح التي عثر عليها المنقبون في منطقة بابل ما يوضح جلياً أن هناك ثلاثة ملوك يؤلفون سلالة بابلية سامية قد حكموا ما يقرب من قرن كامل في المنطقة الجنوبية من بابل. وهؤلاء نادوا وجاهروا بعقيدة التوحيد ، إلا أن الوثنيين أسقطوا الملك الثالث ونفوه من البلاد".

وأسماء هؤلاء الملوك ـ كما أوردها فيلبي ـ هي أسماء عربية سامية مقترنة بصفة الإله الواحد.الإسم الأول "إيلوما لوما"أى(الله هو الإله الواحد). والثاني "إيتي ـ إيلي ـ نيبي"(الله هو حسبي) وهذا الإسم مشابه تماماً لأسماء ملوك جنوب الجزيرة العربية. وأهم ما في هذه الأسماء الثلاثة هو إسم الملك الثالث "يانع إيل" ومعناه (صديق الله الواحد) وهو كما ورد إسم إبراهيم الخليل في الكتابات الإسلامية (٣١).

ويختم فيلبي حديثه عن صلة إبراهيم بعقيدة التوحيد قائلاً: "ومما لا شك فيه أن إبراهيم لعب دوراً رئيسياً في تاريخ العالم السامي لتأسيسه ديانة التوحيد. وقد انتصر أخيراً في كفاحه ضد وثنية الجزيرة العربية القديمة.

ويمكن أن نخلص من نظرية أحمد سوسه التي اعتمد فيها كثيراً على آراء فيلبي ، الى أن سيدنا إبراهيم كان سامياً، عاش في بابل، وكان موحداً أو بمعنى أصح رائد التوحيد، وهو أيضاً ذو جذور سامية

جنوبية.

١ ـ ٦ إذا كنا قد قلنا أن هناك من الباحثين من اعتبروا أن الكتاب المقدس هو سجل للنشاط الأدبي لهذه الأقوام، فلا بد من أن نتوقف هنا قليلاً لنتمعن في قصة إبراهيم ـ كما وردت في المصدر التوراتي ـ ونبحث فيها عن العناصر الأدبية.

ولابد أن نقر بداءة أن القصة ، كما وردت في التوراة كتبها أحد المؤلفين في عصر تجميع الكتاب المقدس، ويتجلى ذلك في الخاصية التي تتسم بها هذه القصة في فن البناء. فالقصاص هنا غير مرئي، فلا هو يحدثنا عن نفسه بضمير الكتكلم ولا حتى بضمير الغائب. لكن يمكن أن نلمح وجوده في بعض التعبيرات التي وردت في القصة لتفيد وجود الكاتب، منها على سبيل المثال لا الحصر، تعبير " وحدث في تلك الأيام" الذي يتكرر أكثر من مرة في متن القصة. وهو تعبير يستخدمه الكاتب لهدفين :

١ـ التعبير عن التعارض بين الوضع السائد في الزمن الذي يعيشه المؤلف والوضع الذي يود وصفه في الحدث.

٢ـ الربط بين قصص مختلفة يذكر أنها حدثت في تلك الفترة.

وأذا عرفنا أن هناك دائماً علاقة بين القاص والعمل المقصوص، يعرض لنا من خلال هذه العلاقة رأيه في الشخصية، سواء بالرفض أو بالقبول، فإننا نرى أن ذلك يمكن أن يؤثر على القاريء ويجعله يتعاطف مع شخصية البطل في القصة أو ينفر منها.

وإذا حاولنا أن نضع خطوطاً عريضة نتعرف من خلالها على رؤية الكاتب في قصة إبراهيم كما جاءت في التوراة ، نجد ما يلي:

١ـ إبراهيم + الأصنام = علاقة سلبية

٢ - إبراهيم + أهله وعشيرته = علاقة سلبية

٣- إبراهيم + زوجته + لوط = علاقة إيجابية.

إذن فإن العلاقة السلبية لا بد وأن يناظرها علاقة إيجابية. وقد تجلت العلاقة الإيجابية في رفض إبراهيم للأصنام وإيجابية من الرب معه.

ورفض إبراهيم للتقاليد العائلية والقبلية يقابله إيجابية من الأسرة الصغيرة، زوجته ولوط ومن الرب أيضاً، كتأكيد على قوة وتفوق العنصر الإيجابي.

إذن فإن وجود الرب في قصة إبراهيم يعد عنصراً إيجابياً أكثر منه سلبياً. وقد أدت هذه العلاقة الإيجابية الى استمرارية في خط الإيجاب وابتعاد عن خط السلب ، فهاجر إبراهيم. وإن كانت الهجرة في حد ذاتها عنصراً سلبياً لرفض الواقع والاغتراب عنه، إلا أه يعززها إيجاب من القوة العليا المحركة لإبراهيم.

وبالتالي فقد حدث هنا شيء من التوازن يركز عليه القصاص حتى لا يجعلنا نشعر أن إبراهيم قد خرج من أور الكلدانيين بعلاقة سلبية.

وبما أن الخروج هنا سلب ، فقد كان لابد أن يقابله إيجاب ، وقد تجلى هذا الإيجاب في صورة العهد بين الرب وأبرام. وهو الإيجاب الذي ركز عليه كاتب القصة بعد ذلك طوال السرد، بل أنه بنى عليه إيضاً قصة يعقوب بعد ذلك.

١ -٧ إذا كنا قد انتهينا الى أن "التاريخ اليهودي" هو في محصلته النهائية - كما جاء في المصدر التوراتي - تاريخاً انتقائياً ، حيث انتقاه اليهود من بين تواريخ كثيرة، وهو أيضاً تاريخ اختلط فيه الموقف

التاريخي بالموقف التراثي، فلا بد لنا من أن نبحث هنا ـ ونحن بصدد دراسة قصة ابراهيم كما جاءت في التراة ـ في" تراث" الشعوب الأخرى حتى يمكن أن نفصل ما استقاه اليهود من هذا التراث ودمجوه في تراثهم/تاريخهم، علّنا يمكن أن نخلص في النهاية الى القصة "الحقيقية" المجردة لشخصية إبراهيم. ويمكن أن ننطلق في ذلك على المحاور التالية:

١ـ محور التراث المتوارث في القصة.

٢ـ محور تواتر مقولة ثابتة عبر القصة ـ وهي العلاقة بالأرض.

٣ـ محور العهد المقطوع بين الرب وإبراهيم.

١ـ التراث المتوارث في القصة .

..." بعد هذه الأمور صار كلام الرب الى أبرام في الرؤيا قائلاً لا تخف ياأبرام أنا ترس لك. أجرك كثير جداً. فقال أبرام، أيها السيد الرب ماذا تعطيني وأنا ماض عقيماً، ومالك بيتي هو اليعازر الدمشقي ... وقال له أنا الرب الذي أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها. فقال أيها السيد الرب وبم أعلم أني أرثها. فقال له خذ لي عجلة ثلاثية وكبشاً ثلاثياً ويمامة وحمامة . فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه وأما الطير فلم يشقه .فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها... ثم غابت الشمس فصارت العتمة. وإذا تنور دخان ومصباح نار يجوز بين تلك القطع. في ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات "[٣٢] .

يلاحظ أن هذه الفقرة التي وعد فيها إبراهيم بوراثة الأرض لا تمت لعالم الواقع بصلة. إذ تكتنفها بعض الطقوس الغريبة التي كانت شرطاً لإتمام العهد. وفي هذا الصدد يقول جيمس فريزر[٣٣] أن الفزع الذي انتاب ابراهيم عند مغيب الشمس كان نذيراً بقدوم الرب الذي مر بين

أجزاء الضحية في هيئة أتون يتصاعد منه الدخان أو شعلة من النار. وبهذا يكون الرب قد استجاب للتقاليد الشرعية التي كان يتطلبها قانون العبريين القدماء للتصديق على العهد. فنحن نعرف عن النبي "إرميا" أنه كان من عادة الطرفين المتعاهدين أن يذبحوا بقرة يشطروها الى شطرين ويمروا بينهما. ومما يؤكد أن هذا كان هو النظام المتبع في هذه المناسبة، العبارة العبرية التي تستخدم في عقد عهد بين طرفين وهي " قطع العهد" .

ويلاحظ فريزر أيضاً أن هذه الشعيرة تتكون من عنصرين متميزين وإن كانا متلازمين.العنصر الأول هو شطر الضحية. والعنصر الثاني هو مرور المتعاهدين بين أجزاء الضحية. العنصر الأول يفسر نظرية الجزاء. أما العنصر الثاني فيفسر بنظرية السر المقدس وكلتا النظريتين تكمل إحداهما الأخرى(٣٤). ويلاحظ أيضاً أن هذه العادة كانت متبعة عند كثير من الشعوب القديمة كتراث أسطوري، وقد وردت عند الإغريق كما وردت عند كثير من القبائل الإفريقية وعند العرب الوابيين والقبائل الأسترالية أيضاً. الأمر الذي أرجعه فريزر الى البنية الذهنية الأسطورية المتوارثة في العقلية البشرية، والتي تستتبع بالضرورة استبعاد هذا الطقس من أي قدسية قد تدفع به الى حقل الطوطم المقدس .

ولعل هذه النظرية لدى فريزر هي التي دفعت طيب تيزيني وهو يربط بين الحثيين والعبرانيين الى قول:" ويبدو أن هذه الأخلاط الأقوامية لم تكن في تصورها عن "العهد المقطوع" مع الرب، أول من استخدمه وأخذ به في المنطقة حتى ذلك الحين. فكما يقول ج.ي. مندنهال في كتابه Low and Convent، نلاحظ أنه في القرن الرابع عشر ق.م. حدث أن "قطع عهد" بين أحد الملوك الحثيين وشعبه "... وفي هذا السياق

لا بد من أن نذكر أنه من الرجح أن "عهد الرب يهوه" مع شعبه اليهودي العبراني يمكن أن يكون قد انطلق مستلهماً تقاليد ذلك "العهد" الحثي . ولا يخفي أن هذا ممكن تماماً، خصوصاً وأننا لاحظنا أن "اليهود العبرانيين" ينحدرون - في بنيتهم الأساسية البعيدة - من الحثيين ، ويبقى القول بأن فكرة " العهد" الذي يقطعه الرب أو سيد أو أمير مع شعبه، تجد أحد مصادرها الرئيسية في التكونات القبلية الجوالة. فلقد كان من شأن من يقطع ذلك "العهد"أن يقدم لأفراد هذه التكونات وعياً وشعوراً بالحماية والتماسك والتضامن والإطمئنان في صراعهم المحتمل دائماً مع الخصوم المنافسين على الكلأ والماء والأرض (٣٥).

١ - ٨ يقودنا هذا الى نقطة في غاية الأهمية في سياق بحثنا ، ألا وهي أن هذا العهد، إذا جردناه من سياقه الأسطوري - كما يقول فريزر - وإذا حجمناه في إطاره " البيئى" - كما يقول تيزيني ، فإننا نجد أنفسنا أمام حالة نفسية على المستوى الفردي وعلى المستوى الجمعي أيضاً. فإذا صحت قصة نزوح إبراهيم من "أى" مكان قاصداً كنعان ، فلا بد أن ننظر اليها وفقاً للاعتبارات التالية :

١- إما أن يكون قد نزح لغرض ديني .

٢- أو أن يكون قد نزح لغرض إقتصادي.

والافتراض الثاني هو الإرجح ، لأن التوراة لم تركز في أي فقرة من فقراتها على الدافع الديني وراء انتقال إبراهيم من أرضه الى الأرض التي "سيدله عليها الرب" الى أرض تفيض لبناً وعسلاً ، أي أن الدافع الإقتصادي كان هو المحرك الرئيسي لهذه الرحلة. وبالتالي فإنه إذا كان إبراهيم أو الركب الإبراهيمي قد تحرك قاصداً كنعان بدافع اقتصادي، فلا بد من أن يتوهم وجود علاقة "عهد" مقطوع بين قوة عليا

محركة وبين هذه الجموع المتحركة نحو "الأرض الثرية". وهنا تدخل العنصر الأسطوري لإقناع الجموع المتحركة بجدوى التحرك وبذروة الوصول الى منتهاه.

١ ـ ٩ لعل هذا يفسر لنا المحور الثاني المتواتر في قصة إبراهيم التوراتية وهو العلاقة المتكررة بالأرض " التي تفيض اللبن والعسل".

" إذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك الى الأرض التي أريك". " إرفع عينيك وانظر في الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الأبد. وأجعل نسلك كتراب الأرض "." أنا الذي أخرجك من أور الكلدانيين الى هذه الأرض لترثها "."وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً ".

وهكذا يمكن القول بأن قصة إبراهيم (التوراتية) لا تعدو أن تكون أكثر من قصة التحول من طور البداوة الى طور الزراعة أوالتوق الى التحول الزراعي والاستقرار في أرض خصبة لأقوام (الآباء) قضت حياتها كلها رعوية جوالة تجوب الأرض فيما بين منطقة الهلال الخصيب من العراق شرقاً وحتى حدود مصر غرباً. وهذه القصة كلها هي قصة التوق الى الراحة والاستقرار بعد عناء الحياة الرعوية.

كما أننا يمكن أن نستشف من روايات التكوين العامل الإقتصادي والإجتماعي من وراء هجرة إبراهيم وأتباعة، وتنقلاتهم في المنطقة، فهناك الخلاف بين رعاة إبراهيم ورعاة لوط على المرعى وموارد المياه التي حددت لهم[٣٦] أو ذلك الخلاف بين رعاة أبيمالك ملك جرار ورعاة إبراهيم أو إسحق على الآبار التي يملكها كل فريق[٣٧]، ومجيء جماعات من أتباع إبراهيم الى مصر إنما كان نتيجة لتغيير مناطق الرعي، كما

أدّت أيضاً الى استقرار قوم إبراهيم بأرض كنعان.

ويمكن أن نضيف أيضاً أن مجيء هؤلاء الأقوام الى كنعان قبل دخولهم الى مصر؛ إنما هيأته الظروف الجغرافية التي كانت تسود شمال الجزيرة العربية، خاصة ما اتصل بها من أحوال المناخ التي دفعتهم الى الهجرة من هذه المنطقة الى الأرض المحيطة بها في الشرق والشمال والجنوب. والنتيجة المنطقية أن فلسطين كانت مطمح تلك الهجرات في نهاية الألف الثانية ق.م، فقد كانت تأتي اليها عناصر شبه بدوية مع حميرها وقطعانها وماشيتها، ولا يستبعد ـ وفقاً لهذا التصور ـ أن يكون إبراهيم وقومه قد قدموا أرض كنعان كنوع من هذه الهجرات، وإن كانت الروايات التوراتية تحاول أن تغلف هجرتهم تلك بغلاف من الأفكار الدينية المنبثقة عن اللاهوت بأنها كانت استجابة لأمر الرب، وأن إسحق ويعقوب ظلا بها في انتظار تحقيق الوعد الذي أعطى للأسلاف بالاستقرار مستقبلاً في فلسطين.

وقد حاولت الرواية اليهودية أن تسبغ على مجيء إبراهيم وقومه الى أرض كنعان صفة العمل العسكري، وأنه كان تحت قيادة موحدة، ولكن يبدو من سياق التوراة أن نزولهم الى فلسطين لم يكن له أى أثر سياسي يذكر، فقد ظلوا كما كانوا بدواً رحلاً يعيشون على هامش المدن في فلسطين (٣٨).

١ـ ١٠ في معالجته لقصص إبراهيم، يتابع غاربيني استنتاجات فان سيتر واستنتاج (طومسون) بأن الرواية التي وصلتنا تعكس السبي البابلي في القرن السادس، وأكثر تحديداً يمكن تحديد زمانها بحكم نابونيدس، كما يؤيدني ضد فان سيتر، في القول بأن تحديد الأصول العبرانية بإبراهيم في أور الكلدانية، توحي بوجود قصص عن

إبراهيم، سواء كانت شفهية أو مكتوبة، قبل السبي،ويذهب غاربيني أبعد من ذلك ويقول بأن أصل قصص إبراهيم جنوبي، وبمقارنة الدور الذي يلعبه إبراهيم كجد أول لكل إسرائيل مع دور إسرائيل الجد الأول للدولة الشمالية والذي استبدلت قصصه بربط إسرائيل بقصص البطل يعقوب وأبنائه الإثنا عشر، يتضح أنها تعكس مرويات سلفية في نطاق جغرافي أوسع بكثير من فلسطين. استقلال عصر يعقوب عن قصص إبراهيم - وكما هو معترف به منذ مدة طويلة - يمكن ملاحظته الآن بالربط الواهي بين إبراهيم وإسحق - ويمكن أن أضيف - وبين إسماعيل وعيسو. ويرى غاربيني أن أصل البطل السلفي إبراهيم، هو جد مجموعة قبلية تدعي "راحام" مشار اليها في نقوش سينوي في بيسان والتي تعود الى القرن الثالث عشر .وسبب دمج الروايات الذي أدى الى امتياز قصص إبراهيم الجنوبية على قصص إسرائيل ويعقوب، هو تصور اليهود بعد السبي لأنفسهم كورثة سياسيين وثقافيين لجيرانهم الشماليين، ويمكن القول أن هذا المسار قد بدأ مبكراً خلال حكم حزقيال إلا أن المؤكد أنه تم في عصر يوشيا.

لكن هناك بعض الصعوبات التي تمنع توكيد صحة البناء الذي أعاد غاربيني تركيبه بثقة. الربط بين راحام القرن الثالث عشر وإبراهيم جنوبي في القرن السابع - السادس،بصرف النظر عن الدلالات التاريخية لتبني غاربيني لهذا التوازي المزعوم، يعكس أكثر من فجوة عابرة في البينات،الفجوة جغرافية وزمنية،الفجوة الجغرافية هي الأهم إذا أراد المرء أن يؤكد، مع غاربيني، استقلال ثقافة وتاريخ يهوذا عن الشمال. وكذلك فإن الفجوة الزمنية التي تزيد على خمسة قرون، لا يمكن تفاديها إذا كانت علاقة يهوذا بالشمال قد بدأت مع حزقيال. وأكثر من ذلك، فإن القناعة المتنامية لدى الدارسين بأن قصص إبراهيم هي

نسبياً أحدث إنتاجاً من قصص يعقوب وموسى، تشكل أحد مظاهر نظرتهم الى مرويات الفترة البطريركية التى تشكل نقطة الانطلاق عند غاربيني الذي سيعاني بدوره من ضغط شديد ليقترح ارتباطاً ثقافياً مناسباً[٣٩].جهود غاربيني الرامية لإثبات أصل جنوبي لقصص إبراهيم هي، بالتحليل الأخير موضع شك ـ ولا تزيد إلا قليلاً عن محاولات تحديد مصادر الفرضية الوثائقية جغرافياً بتجاهل علاقة إبراهيم مع المرتفعات الوسطى في قصص رحلة التيه.وأخيراً، فإن وضوح التناقض الصارخ الذي أظهره غاربيني بين قصص إبراهيم ويعقوب يشوهه التعقيد الجغرافي في قصص يعقوب. ارتباط يعقوب مع شكيم لا يمكن إيضاحه بكامله بالافتراضات المتعلقة بتغيير موقع إسرائيل القديمة، وتصور أن الإله البطريركي كان جنوبياً ، نظريا.

.. عدا عن قصة تجوال إبراهيم وأدبيات التيه، تبدو المواقع الجغرافية، بشكل عام، سمة مشتركة لمجموعة من القصص وتحديداً نهائياً لبدايتها.

الفصل الثاني

إسحق ويعقوب

٢ـ نعود الى التوراة لنواصل معها الرحلة (التاريخية) التوراتية، لنرى كيف حدثتنا عن إسحق بن إبراهيم. تقول التوراة أن سارة حملت وقد بلغت من العمر أرزله(تسعون عاماً) وولدت إسحق. وكان عمر أبرام ١٠٠ سنة حينما ولدت له إسحق. وطلبت من أبرام أن يطرد هاجر وإبنها بعد أن دبت الغيرة في قلبها، وكبر إسحق وأراد والده أن يزوجه، فطلب من اليعازر الدمشقي أن يذهب الى أور الكلدانيين (بلده الأصلي المفترض) لاستقدام زوجة لإبنه من هناك من بين أهله وعشيرته لأنه لا يريد له زوجة أجنبية. " استحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض أن لا تأخذ زوجة لإبني من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم بل الى أرضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لإبني إسحق.[1] وعاد الرسول ومعه إبنة أخي إبراهيم زوجة لإسحق "فقالت له أنا بنت بتوئيل إبن ملكه الذي ولدته لناحور[2] وكان عمر إسحق حينما تزوج من رفقه أربعين عاماً. وكانت رفقه عاقرا فصلى يعقوب من أجلها فحبلت في توأمين.

هذه باختصار قصة إسحق كما وردت في التوراة في سفر التكوين وهي على هذا النحو تكاد تكون أقل القصص تناولاً، فلم تتح لنا التوراة بما عندها عن إسحق أكثر من ذلك وكأنه كان وسيلة فقط للربط بين أباه إبراهيم وولديه يعقوب وعيسو (وسوف تخصص التوراة حديثها بعد ذلك حول يعقوب، الذي يعده اليهود جدهم الأكبر).

لكن يتواتر لنا بعض من قصة إسحق داخل قصة إبنه يعقوب يمكن

أن نفصله منها على النحو التالي:" وكان جوع في الأرض غير الجوع الأول الذي كان أيام إبراهيم. فذهب إسحق الى أبيمالك ملك الفلسطينيين في جرار، وظهر له الرب وقال لا تنزل الى مصر، اسكن في الأرض التي أقول لك. وتغرب في هذه الأرض فأكون معك وأباركك. لأني لك ولنسلك أعطي هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك وأكثر نسلك وأعطي نسلك جميع هذه البلاد وتتبارك في نسلك جميع أمم الأرض .[٣] فأقام إسحق في جرار .

وبعد أن صار غنياً في جرار طلب منه أبيمالك مغادرتها، فارتحل الى وادي جرار وأقام هناك. وبعد عدة مناوشات مع الرعاه في جرار ارتحل الى بئر سبع[٤]" فظهر له الرب في تلك الليلة وقال له أنا إله إبراهيم أبيك. لا تخف لأني معك وأباركك وأكثر نسلك من أجل إبراهيم عبدي. فبنى هناك مذبحاً للرب ودعا باسم الرب ونصب هناك خيمته. وأنجبت رفقه لإسحق توأمين، عيسو ويعقوب.وكان عيسو هو الذي ولد أولاً ثم نزل أخيه قابضاً في أعقابه لذلك سمي (كما تقول التوراة) يعقوب، لأنه نزل قابضاً في أعقاب أخيه لحظة ولادته.ووفقاً للرواية التوراتية،حينما كبر عيسو ويعقوب وكان إسحق في أخريات أيامه، وبدأ يفقد بصره تدريجياً، طلب من إبنه الأكبر "عيسو" أن يعد له وجبة غذائية من صيد يصطاده له بنفسه لكي يمنحه البركة، (وكانت عادة منح البركة للإبن الأكبر شائعة في التقاليد العبرية منذ القدم ، أى أن الإبن الأكبر ـ بعد أن يتلقى البركة من والده تؤيده السماء في كل خطواته ويكون قيّماً على كل ما لإخوته [٥].

٢ ـ ١ هناك قدر من التشابه بين قصة إسحق وقصة إبراهيم يمكن أن نرصده فيما يلي :

أ - يلاحظ في تكوين ١٩/٢٢ "وسكن إبراهيم في بئر سبع "، وكذلك في تكوين ٢١/٢٣:"وغرس إبراهيم إثلاً في بئر سبع". لكن في تكوين ٢٢/٢٦ نجد أن الذي دعا إسمها بئر سبع هو إسحق . وإن دل هذا على شيء فإنما يؤكد تعدد المصادر التي جمع منها العهد القديم ، وليس تعدد الأبرامات كما يقول الصليبي .

ب - يلاحظ تكرار فعل "الخوف" كثيراً في هذه القصة وفيما بعد أيضاً في رحلة يعقوب ، مع تكرار الوعد .

ج - فعل" الجوع "يتكرر في القصتين. حينما حدث جوع في الأرض في قصة إبراهيم نزل الى مصر. أما حينما حدث الجوع في قصة إسحق فقد جاءه الأمر الإلهي بألا ينزل الى مصر "لا تنزل الى مصر. اسكن في الأرض التي أقول لك. تغرب في هذه الأرض فأكون معك". ولا ندري لذلك سبباً اللهم إلا إذا كان هذا لرغبة المدون في أن يكرر الوعد هنا شخصياً في إسحق وليس في إسماعيل الذي هو من نسل إبراهيم أيضاً. كما أن فعل الجوع هذا يقودنا الى البعد الاقتصادي الذي أشرنا اليه من قبل كمحرك رئيسي للقبائل الجوالة في منطقة الهلال الخصيب . ولا علاقة لوعود بهذه التحركات.

د - الأمر الذي يبعث على الدهشة والغرابة معاً هو ما جاء في تكوين ٧/٢٤ وما بعدها. وهو عبارة عن تكرار جديد لنفس قصة إبراهيم وسارة مع فرعون مصر. وقصته أيضاً مع ملك جرار. لكن هذه المرة تبدلت الأسماء فبدلاً من إبراهيم وسارة حل محلهما إسحق ورفقة مع تغيير طفيف في السياق العام للقصة.

٢ - ٢ ولنا هنا أن نتساءل هل يمكن أن تحدث نفس القصة مرتين كواقعة تاريخية ؟ أم أنها هنا من صنع المدون؟أو أنها قصة فولكلورية

متواترة في الذهنية العبرية القديمة ؟.

بالطبع من الاستحالة حدوث قصة مرتين في التاريخ بنفس التفاصيل الدقيقة، إذن لا يتبقى أمامنا إلا واحد من الاحتمالين الآخرين. والأرجح أنهما معاً. فهي من صنع المدون وفي نفس الوقت قصة فولكلورية متواترة في الذهنية العبرية .

وهذا تحديداً هو ما بحث عنه كمال الصليبي وهو يسعى وراء شخصية إسحق ، حيث يقول :

" إن "أبا رهم "تزوج من "آل سرة"، فحبلت منه وولدت له يصحاق (إسحق).وشخصية إسحق هذا هي أقل شخصيات سفر التكوين وضوحاً، بل أكثرها غموضاً، فهو لا يقوم بأى تحرك إلا مرتين. الأولى عندما كان شاباً مقبلاً على الزواج. فخرج لاستقبال قريبته (رفقه) التي جيء بها من بلاد الآراميين لتكون له زوجة. والثانية عندما كان شيخاً. ولم يكن إسحق في أي من هاتين المرتين إله الآبار الذي أنجبه إله المطر من إلهة السراة، بل كان إنساناً عادياً يتصرف كما يتصرف البشر. وهو في سفرالتكوين ٢٤ إسحق بن أبرام العبراني . وفي التكوين ٢٧ إسحق بن ام العبراني (٦) .

ويضع الصليبي العلامات الفارقة لكل من الإسحاقين، فيقول أن إسحق تكوين ٢٤ " كان ساكناً في أرض النجب (النقب)(٧) عندما خرج للقاء عروسه. و"النجب" هذه هي جبل الجنبة بسراة زهران، حيث كان أبرام الآرامي يرعى مواشيه ... ولم يخف على جامعي قصص سفر التكوين أن إسحق الذي خرج من جبل الجنبة بسراة زهران للقاء عروسه لم يكن هو نفسه إسحق إله الآبار، وهو إبن إله المطر أبي رهم المختلط أمره بأمر أبرام الشباعة. فحاولوا التمويه حول هوية إسحق المذكور بإدخال جملة واحدة على النص الأصلي للتكوين ٦٢/٢٤ بحيث

صار النص ، وكان إسحق قد أتى من ورود بئر لحي رئى ، إذ كان ساكناً في أرض النجب (النقب) بدلاً من "وكان إسحق ساكناً في أرض النجب (النقب)."[8] هذا بالنسبة لإسحق تكوين ٢٤. أما إسحق تكوين ٢٧ فسوف نرجيء رؤية الصليبي له الى أن نكمل القصة التوراتية ثم نعود ثانية لنناقش رأي الصليبي .

٢ ـ ٣ بعد أن طلب إسحق من إبنه عيسو أن يعد له وجبة ليمنحه البركة، حدث أن رفقه أم التوأمين كانت تحب إبنها يعقوب أكثر من عيسو ، ولما سمعت إسحق يطلب من عيسو أن يجهز له طعامه لأنه قرر منحه البركة، أسرعت الى إبنها يعقوب وطلبت منه أن يسرع هو الى الغنم ويأخذ من هناك جديين من الماعز؛ فيصنعهما طعاماً لأبيه كما يحب لكي يباركه قبل وفاته. فقال يعقوب لأمه أن عيسو أخي رجل أشعر وأنا أملس. ربما يجسني أبي ويلعنني بدلاً من أن يباركني. فقالت له أمه إسمع لقولي ونفذه . فذهب وصنع كما أمرته أمه . فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب وأخذت ثياب عيسو إبنها الأكبر والبستها ليعقوب والبست يديه ملاسة عنقه جلود جدي الماعز؛ ونجحت الخدعة ونجح معها يعقوب في"سلب" البركة من أخيه. وغضب عيسو من هذا التصرف وقرر قتل أخيه، فأوعزت له أمه بالهرب من وجه أخيه. ومرة أخري يتخذ يعقوب طريقه الي أور الكلدانيين ليختبيء عند خاله لابان. وفي الطريق حل عليه التعب، كما تقول التوراة " فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران وصادف مكاناً وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت. وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع في ذلك المكان. ورأي حلماً وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء. وهو ذا الملائكة صاعدة ونازلة عليها. وهو ذا الرب واقف عليها. فقال أنا

الرب (يهوه) إله إبراهيم أبيك وإله إسحق. الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك ويكون نسلك كتراب الأرض. وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض. وها أنا معك أحفظك حينما تذهب وأردك الى هذه الأرض. لأني لا أتركك وأحفظك حينما تذهب وأردك الى هذه الأرض. لأني لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به (٩).

٢ ـ ٤ يمكن أن نتوقف هنا لنضع عدة ملاحظات حول هذه الفقرة :

١ـ يلاحظ هنا التشابه بين ما جاء في تكوين ١٥ مع إبراهيم "ولما صارت الشمس للمغيب وقع على أبرام سباتونزلت عليه رعبة عظيمة(منح على إثرها العهد الأول).

٢ـ يلاحظ هنا أن الوعد ليعقوب كان وعداً وهو نائم وتصور/ توهم/حلم/تخيل/رأي/ أن الرب في هذا المكان. وقد يرجع ذلك الى غريزة الخوف التي سيطرت عليه فقد كان يعقوب في هذه الحالة هارباً (تماماً كما كان إبراهيم في طريقه من أور الى كنعان)، الأمر الذي يستتبع بالضرورة الخوف من المستقبل الغامض الذي ينتظره بعد أن هجر ماضيه وصار بلا حاضر. (فحلم) بالأمان وزيادة النسل وامتلاك الأرض،أي بالتكثير والاستقرار. وبالتالي فإن الوعد(لإبراهيم ويعقوب) كان مصحوباً في الحالين بفعل واحد وهو التحرك نحو الغربة والاغتراب الذي يستتبع بالضرورة حالة من الخوف وعدم الأمان. وفي كلا الحالين أيضاً كان في حالة من تغييب الوعي، أى أن الوعد في الحالين كان في حالة اللاوعي وليس في حالة الوعي. ويجب أن نتعامل معه من هذا المنظور الغيبي والتغييبي في آن.

٣ـ يلاحظ هنا أن الوعد قدمه (يهوه) لإبراهيم وإسحق ويعقوب كل

على حدة. لكن (إلوهيم) لم يقدم الوعد إلا لإبراهيم ووعده بتكثير إسماعيل وإسحق. وهنا نتساءل أي هذه الوعود مقحم على القصة؟ هل هي جميعاً ؟أم وعود يهوه؟ أو وعد إبراهيم ؟.

٤- يلاحظ في الوعد لإبراهيم والوعد ليعقوب أن كل منهما لم يثق في الوعد وطلب ضمانات. فبينما قال إبراهيم "وبم أعرف أني أرثها"، نجد يعقوب يقول"إن كان الرب(يهوه) معي وحفظني في هذا الطريق.. يكون الله (إلوهيم) إلها لي "[١٠].

وعلنا نلحظ هنا حالة التشوش القصوى في التدوين حيث يظهر يهوه الى جانب الوهيم داخل الجملة الواحدة. إلا أننا يمكن أن نخرج من هذه الملحوظة الأخيرة بيقين أن إبراهيم ويعقوب في التوراة لم يكونا على ثقة كاملة في كل ما يقوله الرب لذا طلبا الضمانات. ومن الملاحظ أيضاً أن يعقوب اختار إلوهيم إله له وليس العكس أي أن الاختيار هنا كان في يد يعقوب.وبالتالي يمكن القول - بناء على هذا - أن اليهود هم الذين اختاروا الرب وليس الرب الذي اختارهم ليكونوا - كما يدعون - شعبه المختار.

على أية حال فإن يعقوب بعد أن استيقظ سار في طريقه الى خاله. وفي الطريق وجد بئر ماء تزاحم حولها الرعاة. وفي هذا المكان شاهد راحيل إبنة خاله لابان (دون أن يعرفها) فسقي لها غنمها وأخبرها بقصته فأسرعت وأخبرت أباها فركض للقائه وعانقه واستضافه في منزله.

ويبدو أن قصة بئر الماء هذه كانت موضوعاً محبباً لدى الكتاب في هذا العصر. فكثيراً ما تتكرر في قصص العهد القديم حينما تكون هناك بداية لتعارف ينتهي بالزواج (اليعازر الدمشقي مع رفقه زوجة إسحق وأم يعقوب فيما بعد، وموسى وبنات يثرو كاهن مديان[١١].

ولعل مدون قصة العهد القديم اختار هنا أو كان يفضل دائماً بئر الماء كمكان طبيعي للتعارف بين الذكر والأنثى لما يحمله الماء في المفاهيم الميثولوجية من دلالات على الخصوبة والخير، وكأن القاص هنا يريد بذكر الماء الإيحاء بأن حياة هذين الزوجين ستصير فيما بعد حياة خصبة مثمرة، ناهيك عن الدور الذي تلعبه المياه في البيئة الصحراوية الجافة ، وأهميتها بالنسبة للرعاة.

ووقع يعقوب في حب إبنة خاله ،راحيل. وخدمه سبع سنوات في مقابل الزواج من راحيل.(يلاحظ هنا الرقم٧وعلاقته بالذهنية السامية) . وفي نهاية السنوات السبع طلب يعقوب الزواج من راحيل فخدعه خاله وزوجه أختها الكبرى ليئه بدلاً منها، والتي كانت أقل منها جمالاً. وفي الصباح اكتشف يعقوب أنه تزوج ليئة بدلاً من راحيل[١٢] واتفق مع خاله مرة أخرى على أن يخدمه سبع سنوات أخرى في مقابل زواجه من راحيل . وبذلك يكون قد جمع بين الأختين زوجتين له (حيث لم يكن قد شرع بعد تحريم زواج المحارم).وكانت راحيل عاقراً لا تلد بينما أنجبت ا، ليئه. فقد أنجب منها عشرة أبناء ومن راحيل بعد طول عقم إبنان ما يوسف وبنيامين .

وعاش يعقوب لدى خاله لابان مع زوجتيه وأبنائه منهما وجاريتيهما، وللمرة الثانية يستعمل دهائه في الخداع حيث اتفق مع خاله على أن يرعى غنمه في مقابل أن يأخذ هو كل مواليد الغنم الرقطاء ... وارتضى الطرفان بهذا الحل .. لكن يعقوب كان يأخذ الأغنام الحوامل عند السقى ويضع لها في الماء بوصاً. فكانت تتوحم عند مجيئها للشرب وولدت الغنم كلها مخططات ورقطا [١٣] .

ولما صار يعقوب غنياً قرر مغادرة حران وهرب منها مع زوجتيه وأبنائه وكل ما يملك، متخذاً طريقه نحو(جبل) جلعاد ولكن راحيل قبل

خروجها سلبت أصنام أبيها المنزلية (التيرافيم) [ولنا أن نفترض هنا مبدئياً أن ما دفع يعقوب لاتخاذ هذا القرار ليس الحنين الى الوطن والأهل ، ولا لأنه ملّ هذه الحياة ، وإنما لأنه أخذ يحسب في هدوء مكسبه المادي من خدمة خاله. فقرر مغادرة خاله دون أن يخبره] .

لكن بعد ثلاثة أيام من خروجه علم لابان بهروب يعقوب وزوجتيه وأبنائه، فخرج وراءه هو وإخوته. وبعد سبعة أيام التقيا، فأدركه في جبل جلعاد. لكن التوراة تخبرنا أن الرب(يهوه) ظهر للابان وأمره بألا يمس يعقوب بشيء. فما كان منه إلا أن بارك خروجه إلا أنه طلب منه التفتيش عن آلهته المسروقة. لكن دون جدوى حيث كانت راحيل قد جلست عليها في خبائها وادعت أن عليها عادة النساء [١٤]. وفي النهاية قررا قطع عهد بينهما بعدم تعرض أحدهما للآخر فأقاما نصباً من الأحجار كشاهد على عهدهما.(وقد يدفعنا هذا الموقف من لابان الى القول بأن خروجه وراء يعقوب لم يكن رغبة في استرجاعه واسترداد أمواله منه، ولا ظهر له الرب (يهوه) وأمره أو حذره من ألا يمسه بسوء، بل كان خروجه وراء استرجاع آلهته المسروقة ولا حاجة به ليعقوب .

.. بعد ذلك سارت قافلة يعقوب الى الجنوب وشق يعقوب طريقه في وادي اليبوق العميق الذي يقع على بعد آلاف الأميال أسفل الجبل. وفي لحظة عبور مخاضة اليبوق أرسل يعقوب أمامه زوجتيه وأولاده وخدمه ليخوضوا الماء على ظهور الجمال. وسبقت القافلة وقطعان الماشية ورعاتها وبقي يعقوب وحده في مخاضة النهر. وكان الوقت ليلاً. وأثناء عبور يعقوب ظهر له رجلاً أخذ يصارعه طوال الليل حتى بذغ الفجر. وتمكن الرجل من أن يضرب يعقوب على حق فخذه. وما أن أبصر هذا الشخص الغريب ضوء النهار حتى قال ليعقوب "أطلقني لأنه قد طلع الفجر[١٥]. لكن يعقوب تعلق به قائلاً: "لا أطلقك إن لم تباركني".

وعندئذ سأله الغريب عن إسمه وما أن ذكره له حتى قال : "لايدعى إسمك في ما بعد يعقوب،بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت(١٦). وحينما سأله يعقوب عن إسمه رفض ذكر إسمه واختفي وأطلق يعقوب على هذا المكان إسم "فنيئيل" أي (وجه الرب) قائلاً "لأني نظرت وجه الرب وجها لوجه ونجيت بنفسي (١٧) .(يلاحظ هنا أن تغيير إسم يعقوب الى إسرائيل في مخاضة اليبوق.لكن في تكوين ٣٥/ ٩ـ ١١ يتكرر الوعد بالتكثير، وصاحب هذا الوعد هو إلوهيم، لكنه يأتي هنا مقروناً بصفة إيل شداي). "وظهر الله ليعقوب أيضاً حين جاء من فدان آرام وباركه وقال له الله إسمك يعقوب. لا يدعى إسمك فيما بعد يعقوب بل يكون إسمك إسرائيل. فدعا إسمه إسرائيل. وقال له الله أنا الله القدير (إيل شداى) أثمر وأكثر. أمة وجماعة أمم تكون منك... والأرض التي أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطي الأرض".

وارتحل يعقوب بعد ذلك الى سكوت وأقام هناك فترة. ثم ارتحل الى شكيم (نابلس) حيث اشترى الحقل الذي نصب خيمته فيه من بني حمور وأقام هناك مذبحاً آخر للرب دعاه (إيل) إله إسرائيل. وفي هذا المكان انتهك شكيم بن حمور الحوي رئيس الأرض شرف دينا إبنة يعقوب . فما كان من إخوتها إلا أن نفذوا مذبحة مريعة مخادعة انتقاماً لشرف أختهم (١٨).

ثم ارتحل يعقوب من هناك بأمر من الرب الى بيت إيل وأقام هناك مذبحاً. ثم ارتحل من بيت إيل الى إفراته (بيت لحم) حيث ماتت راحيل هناك أثناء ولادتها بنيامين. ثم ارتحل الى مجدل عيزر. وفي النهاية مات اسحق عن عمر يناهز ١٨٠ عاماً. ثم استقر يعقوب مع أبنائه وعبيده في أطراف أرض كنعان.وعرف الاستقرار الى حد ما لأول

مرة في حياته.

وهؤلاء هم أبناء يعقوب، الذين سيشكلون بعد ذلك الأسباط اليهودية ، وفقاً للنص التوراتي .

أبناء ليئه: رءوبين ـ شمعون ـ زبولون ـ لاوي ـ دينه ـ يهوذا ـ يساكر .

أبناء بلهة (جارية : دان ـ نفتالي .

أبناء راحيل : يوسف ـ بنيامين .

أبناء زلفي (جارية) : جاد ـ أشير .

وعلنا نلحظ هنا المكيالين اللذين تكيل بهما التوراة في التعامل مع الأبناء.في الوقت الذي استبعدت فيه إسماعيل بن إبراهيم من حق البكورية وحق إرث العهد بدعوى أنه إبن جارية، وإبن الجارية لا يرث. نجدها هنا تدرج أبناء الجواري ضمن الأسباط الرئيسية المكونة لليهود بعد ذلك وتقطعهم أرضاً في فلسطين بحكم وراثتهم لها بالعهد ـ كما سنرى لاحقاً .

تبدأ قصة يعقوب بعد ذلك تأخذ مجرى آخر، حيث بدأت تقل فيها الشخصيات وتوارت شخصية يعقوب عن دور البطولة الرئيسية لتلعب من الآن دوراً ثانوياً في القصة.حيث تخلي مكانها لشخصية إبنه يوسف، وتروي كيفية وصوله الى مصر بعد سلسلة من الأحداث، وكيف استدعى والده واخوته للإقامة معه في مصر، حيث قضى فيها يعقوب بقية عمره. وقبل وفاته استدعى أبناءه لمنحهم البركة. وإذا به يأتي بتصرف مريب، حيث منح البركة لإبن يوسف الأصغر دون الأكبر. وكأنه يريد بذلك إقناع نفسه بأنه لم يخطيء حينما أخذ البكورية من أخيه ، أو عله أراد أن يقنن هذا السلوك من بعده.

ومات يعقوب في مصر وقام إبنه يوسف بتشييع جنازته في

موكب مهيب ، كما تقول التوراة ، من مصر حتى مغارة المكفيلة، حيث سبق أن دفن إبراهيم وسارة وإسحق.

٢ ـ ٥ يمكن هنا أن نطرح هذا التساؤل: إذا كان يوسف قد احتل مكانة مرموقة في مصر وصار من علية القوم بها، وإذا كان يعقوب قد توفي في مصر. فلماذا لم يفكر يوسف، وهو السيد في مصر، في تحنيط جثمان يعقوب تأسياً بما يفعله المصريون ؟ .

وقبل أن نأتي الى الآراء النقدية العلمية الحديثة في التناول التوراتي لشخصية يعقوب، رأينا أن نتوقف قليلاً لنقف على الجانب الأدبي فيها ولننقب في المأثور الشعبي اليهودي عن هذه الشخصية (الهجاداه) ، نظراً لما تتمتع به هذه الشخصية من قداسة بالنسبة لليهود إذ يعتبرون يعقوب هو جدهم الأعلى، خاصة أنه لم يخرج من نسله ـ وفق تصورهم ـ سوى يهوداً خلّص. لذلك أولوه عناية خاصة في المأثور الشعبي قد لا يضاهيه فيها سوى موسى.

من المعروف أنه لا بد من أن تتوفر في القصة بمفهومها التقليدي عدة عناصر حتى يمكن أن يطلق عليها هذا الإسم. فلا بد من وجود شخصيات وحوار يدور بين هذه الشخصيات . ولابد من ترتيب زماني ومكاني للأحداث وبداية وتسلسل منطقي لها، فخاتمة للقصة.

وإذا حاولنا تطبيق هذه الأسس على قصة يعقوب كما جاءتنا في التوراة، سنجد أن أول ذكر ليعقوب في العهد القديم ، جاء في سفر التكوين الإصحاح الخامس والعشرون الفقرة التاسعة عشر وما بعدها، مستمراً تقريباً الى نهاية السفر وإن كانت شخصية يعقوب قد بدأت في التلاشي وأخذت دوراً ثانوياً في القصة بعد ظهور يوسف، وتتشابك قصته مع قصة والده يعقوب، وهذا النوع من القصص يمكن أن نطلق

عليه القصة متسلسلة الأحداث.

ويستهل الكاتب القصة بمحاولة الإيحاء للقاريء بحدث بسيط يمكن أن يربط من خلاله باقي أحداث القصة، وهذا الحدث هو ولادة التوأم يعقوب وعيسو والاختلاف الظاهري فيما بينهما لحظة الولادة وعلى الأخص أن يعقوب خرج قابضاً فى أعقاتب أخيه. وهو لا يقول هذه الجملة عفواً بل إنه يقصد من ورائها الإيحاء بأن في حياة هذين الوليدين شيء ما . ويتجلى ذلك إذا عرفنا أن السمة الأساسية في هذه القصة هي الإيجاز الشديد، فإنه لم يكن بحاجة للدخول في هذه التفاصيل إلا إذا كان يريد من ورائها شيئاً معيناً.

ثم يحاول الكاتب أن يرسم لنا شخصية كل من يعقوب وعيسو حتى يمكن أن نتعرف على الملامح الأساسية لشخصية كل منهما والمكونات النفسية التي تدفعها الى التصرفات التي أوردها في القصة. فيرسم لنا شخصية يعقوب إنساناً يميل الى حياة الاستقرار بعكس أخيه عيسو الذي دأب على الخروج للصيد.وهذا الميل الى حياة الاستقرار يتحول في ثنايا القصة بعد ذلك الى صراع مع القدر من أجل الاستقرار فقد حنكت عليه الظروف في القصة أن يكون دائم التجوال والترحال.

والكاتب هنا وهو يرسم لنا شخصية يعقوب، يرسمها وكأن القدر هو الذي أملى عليه هذه الشخصية. إنه أجبر على الغش والخداع. وحينما سرق البكورية من أخيه لم يكن هذا بدافع منه، بل كان بإيهاز من أمه . كما أنه لم يخدع خاله لابان إلا بعد أن خدعه هو ، ولم ينتقم من أهل شكيم إلا بعد أن طعنوه في شرفه، ومع ذلك فإنه لم يكن راضياً عن حجم العقاب الذي وقع عليهم. وكان متسامحاً مع أخيه عيسو حينما التقيا معاً للمرة الثانية. إذن فشخصية يعقوب شخصية سوية، لكن

اتلظروف هي التي حتمت عليها أن تأتي بتصرفات غير سوية، وبالتالي فإن القاص يختتم القصة بمنح البركة للإبن الأصغر بدلاً من الأكبر تأكيداً على أن هذه شخصية سوية لا تريد للأحفاد أن يعانوا العذاب الذي عانته الشخصية الأصلية.

٣ ـ قصة يعقوب كما جاءت في الهجاداه :

لقد لاحظ رواة الهجاداه ـ والذين دونوها بعد ذلك أن قصة يعقوب، كما جاءت في التوراة، تتسم بالإيجاز الشديد؛فأخذوا ينقبون في هذه القصة واستفاضوا في شرحها، وبما أن التوراة قد أسبغت على هذه الشخصية مسحة من القداسة فلا يحق أن تكون شخصية سلبية، لذا حاولت الهجاداه إثبات أنها شخصية إيجابية جداً وجديرة بالقداسة التي تتمتع بها بعد أن شوهتها القصة التوراتية.

فعن الفقرةالتي تقول:" وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي إسمه يعقوب، لاحظ مدونوا الهجاداه أن هذه الفقرة يمكن أن تترك أكثر من علامة استفهام حول شخصية يعقوب. وكيف أنه وهو الإبن الثاني يسلب البكورية من أخيه. فنجد الحاخام راشي، وهو من كبار مفسري التوراة وأكثرهم موثوقية لدى اليهود يبرز هذا الوضع بقوله أن من يخرج الثاني من بطن أمه هو أول من اكتمل تكوينه في بطن أمه. ولهذا فقد سمح الرب بأن تنقل البركة الى يعقوب لهذا السبب (١٩).

ونحن لا ندري من أين تأتى للحاخام راشي هذا الرأى الذي أثبت العلم الحديث صحته. فهل كان هذا الرأي مجرد صدفة علمية أم أن صاحبه أدلى به عن يقين علمي؟. والأمر المرجح هو الصدفة ومحاولة فقدت المنطق في حينها لتبرير فعل ما كان يجب أن تأتي به التوراة .

وفي موضع آخر تقول الهجاداه "حينما كان يعقوب وعيسو في بطن أمهما قال يعقوب لعيسو:" أخي عيسو. نحن اثنين لأبينا. وأمامنا عالمان. هذا العالم والعالم الآت. هذا العالم فيه المأكل والمشرب وكل متع الحياة، لكن العالم الآتي ليس كذلك. إذا شئت خذ أنت هذا العالم وآخذ أنا العالم الآتي. آنذاك أخذ عيسو نصيبه ، أي هذا العالم بينما أخذ يعقوب العالم الآخر(٢٠).

ويريد هذا الموقف الهجادي إبلاغنا أن عيسو اختار الدنيا برغبته، بينما اختار يعقوب الآخرة، بما لها من صفة الديمومة على الحياة ابدنيا.

ووجد كاتبو الهجاداه فقرة في التوراة تعلقوا بها لأنهم وجدوا فيها الأمل الذي يخلصهم من مشقة البحث عن مخرج لأحقية يعقوب بالبكورية.تقول الفقرة:"وتزاحم الولدان في بطنها"(٢١).وتفسر الهجاداه هذه الفقرة بقولها أنه في الوقت الذي كانت تقف فيه رفقه في المعبد كان يعقوب يحاول النزول. أما حينما كانت تمر أمام دور العبادة الغريبة كان عيسو يقفز محاولاً النزول (٢٢).

ونجد تفسيراً آخر لهذه الفقرة لا يقل سذاجة عن سابقه، يقول أن الولدين كانا يصعدان ويهبطان في أحشائها كأمواج البحر. كان هذا يقول أخرج أنا أولاً وذاك يقول أخرج أنا أولاً. فقال عيسو ليعقوب لو لم تتركني أخرج أولاً، فإنني سأقتل أمي وأخرج بطريقة شاذة. فقال يعقوب: يالك من مجرم سافك للدماء . وتركه يخرج أولاً(٢٣).

وقد لاحظ كاتبو الهجاداه أن القصة ، كما عرضتها التوراة، لم تلق بالاً للتفصيلات قدر اهتمامها بالسياق. فلم يحاول مدونوا العهد القديم، مثلاً، إبراز الخطوط التي توضح صورة يعقوب، فحاول مدونوا الهاجاداه تغطية هذا النقص فاستفاضوا من عندهم وتوسعوا في رسم صورة يعقوب كما تخيلوها. ونالت صفاته هي الأخرى قسطاً وافراً من

الهجاداه. فحملت كل كلمة في التوراة أكثر مما تحتمل، في محاولة منها لتطويع المعاني بما يتلاءم وشخصيبة يعقوب. وهذه سمة عامة من سمات أسلوب الهجاداه ، الذي يميل الى التركيز على الدقائق والإسهاب في الوصف (٢٤).

ولو أننا أمعنا النظر في قصة يعقوب ، كما وردت في التوراة، لوجدنا أن التوراة تكاد تكون قد تجاهلت تماماً موقف يعقوب من الدين ومن الرب. والتقط مدونوا الهجاداه هذا القصور في القصة التوراتية وحاولوا تغطيته (٢٥).

أما رحلة يعقوب بعد أن خرج هارباً من بيت أبيه في طريقه الى خاله لابان ليختبيء عنده من مطاردة أخيه له بعد أن سلبه البركة وعن حلمه حينما نام في الصحراء، وهي كلها أمور تترك أكثر من علامة استفهام حول نبي له قداسته، تقول الهجاداه:"أخذ إثنى عشر حجراً. وحينما اتحدت الحجارة الإثنى عشر معاً في حجر واحد عرف حينئذ أنه سيخرج من صلبه إثنى عشر سبطاً ، وأدرك أن الرب وحد إسمه وأنه لن يخذله(٢٦) .

"حينما خرج يعقوب من بيت أبيه كانت البئر تسير أمامه من بئر سبع حتى جبل الموريا لمسيرة يومين. ووصل الى هناك في منتصف النهار وقابله الرب وقال له:" الخبز معك. والبئر أمامك.كل واشرب في هذا المكان"(٢٧).

أما عن قصة يعقوب بعد أن وصل الى خاله لابان في حران، فقد استنفاضت الهجاداه في وصفها والتعليق عليها باعتبار أن هذه الفترة تعتبر من أهم الفترات في تاريخ حياة يعقوب . تقول الهجاداه

" أعمل عندك سبع سنوات". ماذا هدف بذلك؟ لماذا لم يقل عشرة أشهر أو سنة وإنما قال سبع؟ ذلك لأن يعقوب تصرف آنذاك بحكمة

حتى لا يقال أنه بسبب جمال راحيل تعجل لها؛ "وبراحيل إبنتك الصغرى"[٢٨] وذلك لأني أعرف أن قومك غشاشون. فها أنا أوضح صفقتي معك."براحيل" وليس ب" ليئة" " "إبنتك "حتى لا تأتي بأخرى من السوق واسمها راحيل ."الصغرى" حتى لا تغير إسميهما هذا بذاك ولا أستفيد أنا شيئاً [٢٩].

" قال يعقوب لراحيل ، هل تتزوجينني ؟ قالت له نعم ، ولكن أبي مخادع ولن تستطيع التغلب عليه. فقال لها : " أنا أخوه في الخداع . فقالت له:" وهل يحق للصديق أن يخدع؟ قال نعم . الم يرد "مع الطاهر تكون طاهراً ومع الأعوج تكون ملتوياً"[٣٠]. وقال بماذا يخدعني؟ قالت: "لدى أخت كبرى تكبرني ولن يزوجني قبلها. فقال لها يعقوب عدة علامات مميزة. وحينما جنّ الليل قالت الآن ستخجل أختي فذكرت العلامات لها. وبهذه العلامات التي ذكرتها راحيل لليئة لم يتعرف يعقوب عليها." وفي الصباح إذا هي ليئة، فقال لها يعقوب: "مخادعة بنت مخادع. ألم أنادك في الليل باسم راحيل وأجبتني؟ فقالت له: وهل توجد مدرسة بلا تلاميذ؟ ألم ينادك أبوك باسم عيسو وأجبته [٣١].

وتحاول الهجاداه أيضاً أن تجد تبريراً لعودة يعقوب الى فلسطين فترجعه الى إيعاذ الهي، على الرغم مما يتضحح من القصة التوراتية من أن تحرك يعقوب نحو العودة كان بدافع اقتصادي بحت. فتقول:" قال الرب له أن حماك لا يحبك وأنت جالس هنا. عد الى أرض آبائك ".

وعلّنا نلحظ هنا الحاح الكاتب على فكرة أرض الآباء. وكأن يعقوب لم يهرب من عيسو وذهب الى أرض آبائه أيضاً في آرام النهرين. وكأن إبراهيم لم يشأ أن يزوج إبنه من بنات الكنعانيين مفضلاً أن يأخذ له زوجة من أهله وعشيرته، إن صحت هذه الرواية .

وعن كيفية معرفة لابان بهروب يعقوب،تورد الهجاداه هذه القصة:

"بعد أن هرب يعقوب، ورد الرعاة البئر ولم يجدوا فيها ماء كما كان في أيام يعقوب. وانتظروا ثلاثة أيام ربما يرد الماء لكنه لم يظهر. فذهبوا الى لابان في اليوم الثالث واتضح لهم أن يعقوب قد هرب، ذلك لأن البئر كان يفيض عشرون عاماً بحقه.

أما عن قصة صراع يعقوب مع رجل الرب في مخاضة نهر اليبوق فقد نالت اهتماماً بالغاً من الهجاداه. ذلك لأن إسم يعقوب قد تغير في هذه القصة وأصبح إسرائيل. كما أنه حصل في هذه القصة أيضاً على تجديد للوعد الإلهي ـ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى حظيت هذه القصة باهتمام بالغ لأنها تحتوي على عناصر خيالية كثيرة ربما لا يقبلها العقل في ذلك الوقت، لذا حاولت الهجاداه أن تشرحها وتبرزها موجدة التبرير المقبول لها في ذلك الحين. وإن كنا لا نعتقد أنها نجحت في تخليص القصة من العناصر الأسطورية فيها، بل زادت عليها أشياء أخرى لا يمكن لأي عقل بشري أن يرى فيها شيئاً واقعياً.

١ـ٣ علنا نلحظ الآن أن قصة يعقوب كما سردتها التوراة والروايات التي تتعلق بها تعد أكثر اكتمالاً من تلك التي تتعلق بشخصية أبيه إسحق وجده إبراهيم، وهي فضلاً عن ذلك أكثر غنى في مادتها الفولكلورية حتى ضاعت معها المعالم الحقيقية للشخصية، والتي يمكن أن نحار معها حول مدى تاريخيتها، فلقد حملت الشخصية بقايا كثير من المعتقدات والعادات القديمة. ومع ذلك فليس في القصة التوراتية ما يمتع القارىء الحديث أو تجذبه اليها، اللهم إلا النذر اليسير، كما أنها تتعارض مع الورع التأملي الذي اتسم به أبوه إسحق. فإذا كان إبراهيم مثالاً للشيخ السامي، الذي يتسم بالشجاعة والكرم والجلال، فإن يعقوب ـ وفقاً للرواية التوراتية ـ كان مثالاً للتاجر السامي

اللين الحذق، وافر الحيلة الذي يحرص على الكسب وعلى الثراء وعلى أن يتم صفقاته بالحذق دون أن يتردد كثيراً في اختيار الوسائل التي يبز فيها منافسيه ويتفوق بها عليهم. على سبيل المثال قصة خداع خاله لابان واغتصاب مواشيه منه بالحيلة الماكرة. وهذا الجمع غير المرغوب فيه بين الجشع والمكر، يتجلى في الحوادث المبكرة في حياته مثل اغتصابه البركة من أخيه عيسو [٣٢].

ولعل أشهر من عالج قصة يعقوب التوراتية من الناحية الفولكلورية هو جيمس فريزر في كتابه الموسوم "الفلكلور في العهد القديم" حيث أفرد له عدة فصول عالج فيها موضوع الإرث وسرقة البكورية. وموضوع "جلد الجدي"، و"حلم يعقوب في بيت إيل"، و" يعقوب عند البئر"،و"عند مخاضة نهر اليبوق".و"العهد".ويمكن أن نلخص نظرية فريزر في كل هذه المواضيع على النحو التالي :

١ـ سرقة البكورية : يقول فريزر أن أول ما يسترعي نظرنا أنه إذا كان يعقوب قد سلب أخاه الأكبر حقه في البكورية، فإنه لم يفعل إلا ما فعله أبوه إسحق من قبل. لأن إسحق كان إبناً أصغر. وكان قد عزل أخاه إسماعيل من حقه في وراثة أبيهما إبراهيم. وهذا المبدأ الذي اتبعه يعقوب في معاملته لأخيه وأبيه، يبدو أنه اتبعه بعد ذلك مع أبنائه وأحفاده. فقد قيل لنا "كان يعقوب يحب يوسف أكثر مما يحب أبنائه الكبار.لأن يوسف كان إبن شيخوخته". ولقد أبدى تفضيله ليوسف بطريقة أثارت الحقد في قلوب إخوته الكبار، لدرجة أنهم دبروا مؤامرة للقضاء عليه. وصحيح أن يوسف ـ وفقاً للرواية التوراتية ـ لم يكن أصغر أبناء يعقوب، حيث ولد بعده بنيامين. لكن فريزر يفترض أن يوسف هو الإبن الأصغر في الرواية الأصلية وقبل أن تلحق بها الإضافات من المصادر المختلفة. ويؤكد ذلك لديه العاطفة القوية التى

أبداها أبوه نحوه، والرداء الذي كان يميزه به عن إخوته والمكانة التي تبوأها بعد ذلك. كل هذا يؤكد أن يعقوب كان يتمسك بمبدأ تفضيل الأبناء الصغار على الكبار. وهناك في التوراة من الشواهد ما يؤكد هذا المبدأ، أي عادة حق الإبن الأصغر في الوراثة ، فنحن نقرأ في سفر التكوين أن "تامار" إبنة يهوذا أنجبت ولدين توأمين أحدهما كان يدعى "فارص" والآخر"زارح".وعلى الرغم من أن فارص هو الأسبق في الولادة، إلا أنه وكما يتضح من رواية التكوين لم يكن هو الأكبر" وفي وقت ولادتها إذا في بطنها توأمان. وكان في ولادتها أن أحدهما أخرج يداً فأخذت القابلة وربطت على يده قرمزاً قائلة هذا خرج أولاً. لكن حين رد يده إذا أخوه قد خرج. فقالت لماذا اقتحمت فدعي إسمه "فارص" وبعد ذلك خرج أخوه الذي على يده القرمز فدعي إيمه زارح[٣٣]. وهكذا لا يبدو من ظاهر الرواية أن فارص هو الأصغر. لكن هذا يتضح إذا تذكرنا أن فارص كان الجد المباشر للملك داود وأن داود نفسه (كما سنرى فيما بعد) كان أصغر أبناء أبيه. وبالتالي فإن هدف حكاية التكوين من ذكر التفاصيل هو فيما يبدو إثبات أن الملك داود لم يكن أصغر أبناء أبيه فحسب، بل ينتسب كذلك الى أحفاد يهوذا، أصغر التوأمين. وقد أورث داود بدوره الملك من بعده الى أحد أصغر أبنائه وهو سليمان . وأبعد عن عمد أحد أبنائه الكبار. كل هذا يثير افتراض أن عادة وراثة الإبن الأكبر أو تفضيل الإبن الأكبر على إخوته قد تلت عند الإسرائيليين عادة حق إرث الإبن الأصغر أو تفضيله على إخوته بوصفه وريثاً لأبيه. ومما يؤكد ذلك لدى فريزر وجود هذه العادة لدى العديد من شعوب العالم القديم،في أوربا وانجلترا تخصيصاً.كما ظهرت أيضاً في فرنسا وفي بلاد النهرين. وفي جنوب روسيا وغيرها[٣٤]. وظهرت أيضاً في العديد من الدول الآسيوية، بخاصة ذات الأصل المغولي. وهناك ملحوظة هامة

على صعيد بحثنا يشير اليها فريزر عرضاً في حديثه عن وراثة الإبن الأصغر، ألا وهي أن كل الشعوب التي انتشرت بينها هذه العادة كانت شعوباً زراعية. ومع ذلك فإنها تنتشر بصورة محددة في القبائل التي لا تزال في مرحلة الصيد والرعي. ويخلص فريزر بهذا الى أن ظهور بعض آثار وراثة الإبن الأصغر لدى العبرين القدماء كان من المحتم أن تعيش بعد أن هجروها بزمن طويل واستبدلوا بها عادة حق الإبن الأكبر في الإرث.(متناسيا هنا أن التدوين لم يتم في مرحلة العبريين وإنما تم في مرحلة ما بعد الإسرائيليين، أي اليهود، وربما كان ذلك أيضاً بعد العودة من التهجير البابلي، وبالتالي فإن هذه العادة جاءت بتأثير الحضارة البابلية الزراعية المستقرة) وذلك بعد أن عاشوا حياة الزراعة المستقرة في فلسطين بعد أن كانوا شعباً من الرعاة متجولاً في الصحراء . ويخلص من ذلك الى أن يعقوب لم يرتكب أى إساءة في حق أخيه الأكبر عيسو وإنما شاء أن يثبت لنفسه حقه في الإرث الذي كان القانون القديم يمنحه بصفة عامة لأصغر الأبناء، لولا بدعة غزت مجتمعه في عصره ونقلت هذا الحق من أصغر الأبناء الى أكبرهم .وربما كان هذا أيضا هو السبب الذي دفع يعقوب بعد ذلك الى منح البركة لأصغر أبناء يوسف دون الأكبر. وعلى أية حال فلقد فطن طيب تيزيني الى هذه الحقيقة وتناولها بذكاء ثاقب وهذا ما سنتناوله تفصيلاً لاحقاً .

٢ـ يعقوب وجلد الجدي أو الميلاد الجديد.

إن التحايل الذي قام به يعقوب بقصد حرمان أخيه عيسو من حقه في الإرث ، لم يكن سوى محاولات من جانب "المدون" بهدف تفسير عادة تفضيل الإبن الأصغر على الإبن الأكبر في الإرث، والتي كانت قد هجرت قبل التدوين بزمن طويل،وأصبح مغزاها غير واضح على وجه التقريب. وفي ضوء هذه النتيجة يفترض فريزر أن الخدعة التي قام بها يعقوب

بالتواطؤ مع أمه، لم تكن إلا بقايا طقوس قديمة كانت تتبع حينما حلت عادة حق الإبن الأكبر في الإرث محل عادة الإبن الأصغر، بوصفها قانوناً للإرث، كان التجاوز عن هذه العادة يعد نقضاً لعادة متوارثة لا يكون فاعلها في حل منها إلا باتباع بعض الشكليات الغريبة التي كان الغرض منها تغيير نظام الإرث بين الأخوين، أو حماية الأخ الأصغر من بعض الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها بسبب إقصائه أخاه الأكبر من حقه في الإرث. وبالتالي فقد قام يعقوب بهذه الشعائر الشكلية بقصد تدعيم موقفه من إرثه لأبيه وذلك لأنه إذا كانت عادة حق الإبن الأصغر لا تزال رائجة كل الرواج في عصره، فإنه كان يعد الوريث الشرعي لأبيه، ولم يكن بحاجة لأن يقوم بتأدية شعائر معينة لاكتساب تلك الحقوق التي منحها لكونه الأصغر. ولكن عندما حلت عادة حق الإبن الأكبر في الإرث محل عادة حق الإبن الأصغر في عصر لاحق، ربما رأى مدون حياة يعقوب أن من واجبه تبرير حصول بطله على تلك المنزلة التقليدية ، بأن نسب اليه تأدية الشعائر التي كانت تتبع في زمن المدون نفسه، وربما غاب عن الكاتب الذي دون حياة يعقوب في زمن متأخر المغزى الشرعي لهذه الشعائر لأنها لم تكن مألوفة لديه، فقدمها بوصفها خدعة ماكرة احتال بها يعقوب متواطئاً مع أمه بقصد خداع أخيه حتى لا يحصل على البركة المقدرة له. ومن ثم فقد وصلتنا حكاية سفر التكوين في هذه المرحلة الأخيرة من سوء الفهم والتشويه وفقاً لهذا الغرض الذي افترضه فريزر. ويورد فريزر قائمة بالعديد من الشعوب والقبائل التي تتبع طقس يكاد يكون مشابهاً تماماً للطقس الذي قام به يعقوب بارتدائه ملابس أخيه وتغطية يديه ورقبته بجلد جدي. ويهمنا منها في هذا المقام بعض القبائل التي تقطن افريقيا وبخاصة المنطقة الأثيوبية،التي يشير فريزر الى أنها لا تبعد عن شبه الجزيرة العربية، مهد الجنس السامي،

سوى بحر ضيق، ومعنى هذا أن العلاقة بين هذين الموطنين وهذين الشعبين لا بد أنها كانت قوية منذ العصور القديمة. ومن ثم فليس غريباً أن نجد تشابهاً بين العادات السامية والعادات الأثيوبية.

ويخلص فريزر من هذه المقارنة الى القول بأن حكاية يعقوب الغريبة التي تحكي عن الاحتيال والخديعة بالتواطؤ مع الأم ضد الأب والزوج والأخ، إنما تحمل مظهراً أكثر وقاراً من ذلك الذي خلعه عليها كاتب القصة، ذلك إذا افترضنا أن هذا الدور المعيب الذي لعبته القصة، قد ضمنه إياها القاص الذي فشل في الوصول الى الفهم السليم لطبيعة العمل الذي وصفه. فالعمل الذي قام به يعقوب ليس سوى عمل شرعي، يحمل مغزى الميلاد الجديد في شكل عنزة (كما يتضح ذلك بصورة أكثر وضوحاً عند القبائل الأثيوبية) وبخاصة قبيلة "أكيكويو" والتي ترجع فيما يبدو الى أصل عربي، إن لم تكن ترجع الى أصل سامي[٣٥]. وإذا صح هذا الافتراض فإن كاتب قصة يعقوب في سفر التكوين يكون بذلك قد دون هذه الشعيرة القديمة وإن كان قد أساء فهمها في الوقت نفسه.

٣ـ يعقوب في بيت إيل:

أما عن حلم يعقوب وهو في طريقه الى خاله فقد لاحظ فريزر أن هذه القصة ربما تكون قد رويت لتفسير قدسية "بيت إيل" ذلك المكان القديم الذي ربما كان يقدسه سكان أرض كنعان الأصليين،قبل أن يغزوها العبرانيون ويستقروا فيها بزمن طويل. والإعتقاد بأن الآلهة تتمثل للإنسان في الرؤيا وتكشف له عن إرادتها هو اعتقاد قديم كان منتشراً في العصور القديمة. ووفقاً لهذا الاعتقاد، كان الناس يلوذون بالمعابد والأماكن المقدسة وينامون هناك حتى تظهر لهم القوى العلوية في رؤياهم وتتحدث معهم. إذ كان من الطبيعي أن يعتقدوا أن الآلهة أو أرواح الأشخاص المؤلهين أكثر ما تظهر لهم في تلك الأماكن المخصصة

لعبادتها. ومن المحتمل أن الحجر المقدس الذي ينسب الى يعقوب في "بيت إيل" كان من هذه الأحجار الصلبة المنتصبة في هذا المكان، أو أحد الأعمدة التي كان العبريون يسمونها "ماسبوت" وهي الأحجار التي كانت ملحقة بمعابد الكنعانيين والعبريين المبكرة. وقد عثر العلماء في العصر الحديث على نماذج من هذه الأحجار في حالة سليمة. وربما كان يوجد في بيت إيل حجر مقدس اعتاد المتعبدون منذ زمن بالغ في القدم أن يصبوا فوقه الزيت، لاعتقادهم بأن هذا المكان هو بيت الرب. ولكن فريزر ينسحب عن هذا الرأي بقوله أننا لا نستطيع أن نحدد ما إذا كانت قصة يعقوب تعد رواية متوارثة لحادثة حقيقية أم أنها وضعت لتفسير قدسية هذا المكان الذي كان يرتبط بهذه العادة من قبل.

٤ـ العهد مع يعقوب على النصب :

بعد أن غادر يعقوب ديار خاله وهرب هو وزوجتيه وقطعانه وخدمه، وبعد أن أدرك لابان اختفاء آلهته المنزلية وهبّ لاستردادها من قافلة يعقوب بعد أن لحق بهم بعد ثلاثة أيام، ولما لم يجدها تعاهدا فيما بينهما على احترام كل منهما للآخر وعدم الاعتداء عليه، وكان هذا العهد عبارة عن طقس يتمثل في نصب حجر كبير على هيئة عمود وجمعا فوقه ركاماً من الأحجار الأقل حجماً. وأكلا الخبز وهما جالسان أو واقفان فوق هذا الركام. وفي نهاية الاتفاق قام الطرفان بذبح الضحية وتناول وجبة عادية. ثم عاد كل الى خيمته وقد انتهيا الى الصلح.

ويخلص فريزر من هذه الواقعة الى أن السياق العام للحكاية ينحو الى أن يبين أن النصب الذي أقاماه في المكان الذي افترقا عنده لم يكن نصباً يشهد بصداقتهما ومحبتهما، وانما كان شهادة على شكهما وعدم ثقتهما في بعضهما البعض. ومن ثم فقد استخدما ركام الأحجار ليكون ضماناً مادياً على رعايتهما لمعاهدة السلام التي عقداها فيما

بينهما. أي أن هذا النصب كان بمثابة إجراء أو وثيقة في هيئة حجر وضع عليه الطرفان المتعاهدان أيديهما، حتى إذا نقض أحدهما العهد، عوقب الخائن. فالنصب الحجري لم يكن ينظر اليه بوصفه مجرد ركام من الأحجار، بل بوصفه شخصاً أو روحاً قوياً أو إلها ينظر بعين اليقظة الى الطرفين المتعاهدين ويذكرهما بعهدهما .

٥- يعقوب عند مخاضة اليبوق :

إن قصة مخاضة نهر اليبوق كما وردت في التوراة تبدو غامضة. ومن المحتمل أن مؤلفي سفر التكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية عندما اشتموا فيها رائحة الوثنية. ومن ثم فإن أي تفسير لها إنما يعتمد على هذه الفرضية. لكنا إذا ربطنا هذه القصة بالملامح الطبيعية للمكان الذي جرت فيه حوادثها - من ناحية، وإذا ربطناها بالأساطير الأخرى المشابهة - من ناحية أخرى ، فإننا نفترض أن هذا الخصم الذي تصارع مع يعقوب لم يكن سوى روح النهر أو شيطانه، وأن صراع يعقوب معه كان من أجل انتزاع البركة منه. وقد يفسر لنا هذا الافتراض السر في بقاء يعقوب وحده متخلفاً عن القافلة وقطعان الماشية، في مخاضة النهر. وهناك الكثير من الأساطير المشابهة لهذه الواقعة موجودة في الأساطير اليونانية والمكسيكية. وربما يدعم هذه النظرة ما نراه عند كثير من الشعوب القديمة من عادة إسترضاء أرواح الأنهار التي نخشى خطورتها وتقلبها.(٣٦)

٣ -٢ إذا كانت هذه هي وجهة نظر جيمس فريزر في شخصية يعقوب وفقاً لنظرية التحليل الأسطوري، فإن كمال الصليبي له رأي آخر في هذه الشخصية، وهو لا يخلو من غرابة. لكنا هنا سنحاول تلخيصه دون أي تدخل من جانبنا في ترجيح رأيه أو رفضه، مرجئين

التدخل الى ما بعد الانتهاء من عرض كل وجهات النظر حتى يمكن مناقشتها جميعاً بعد استجلاء كافة أبعاد الصورة.وقبل عرض نظرية الصليبي لا بد من التنويه الى أن منطلقه يعتمد على التحليل المتداخل بين الميثولوجيا والحقيقة التاريخية المقرونة بالاجتهاد الشخصي الذي يعتمد في المقام الأول على التحليل اللغوي لألفاظ العهد القديم.

يقول الصليبي أن يعقوب هو "آل عقبه" إله الذكورة الداجنة والنسل الصالح. وعيسو هو جد الأدوميين (بجبل سعير) أي جبل عسير في المملكة العربية السعودية. أما إسرائيل فهو الجد الذي ينتسب اليه بنو إسرائيل العبرانيون، الذين كانوا يقطنون أصلاً في تهامة عسير، ثم انتقلوا من هناك الى وادي بيشة.ويبدو أن الأدوميين كانو يعتبرون في زمانهم من العبرانيين، مثلهم مثل بني إسرائيل. لذلك جعلت الأسطورة من جدهم " أدوم" أخاً توأماً لإسرائيل. ومما لا شك فيه أن أدوم لم يكن إسمه في السابق عيسو وأن إسرائيل لم يكن إسمه في السابق يعقوب، بل إن نص سفر دمج - عن قصد - بين خرافة الإله عيسو والإله يعقوب من جهة وبين أسطورة أدوم وإسرائيل من جهة أخرى . ويكمن السر هنا في إسم يعقوب، لأن هذا الإسم لم يكن للإله يعقوب (آل عقبة) وحده، بل أيضاً لقبيلة آرامية من سراة زهران كانت تنتسب الى جد إسمه يعقوب. ويعتبر إبن إسحق من أبرام الآرامي. ويستخرج خبر يعقوب الآرامي هذا بسهولة من نص سفر التكوين.

وجاء وقت انصهر فيه بنو يعقوب الآراميون مع بني إسرائيل العبرانيين.وصاروا يعتبرون شعباً واحداً تسمى باسم "بني إسرائيل"، وأخذت عبادة "يهوه"عن بني يعقوب.وجاءت الأسطورة لتعزز العصبية القبلية الجديدة المشتركة بين العنصرين من الشعب الواحد - فوحدت بين الأجداد الذين كانوا ينتسبون اليهم. وهكذا دمجت بين شخصية

أبرام الآرامي وهو الجد الأعلى لبني إسرائيل العبرانيين بل وذهبت الى أبعد من ذلك فدمجت بين شخصية يعقوب الآرامي وشخصية إسرائيل العبراني. وكان بنو يعقوب الآراميون يعتبرون أن جدهم يعقوب هو إبن إسحق بن أبرام الآرامي.

واتبعت التوراة في ذلك الخطوات التالية :

١ـ أخذت إسم الإله أبراهام وأطلقته على كل من أبرام الآرامي وأبرام العبراني .

٢ـ أخذت إسم الإله إسحق إبن الإله أبرام وجعلت منه إسماً لوالد إسرائيل العبراني وأخيه أدوم.

٣ـ أخذت إسم الإله يعقوب (آل عقبه) وافترضت أنه كان الإسم الأصلي لإسرائيل.

٤ـ عرّفت يعقوب الآرامي بأنه هو ذاته يعقوب أبو يوسف العبراني.

٥ـ عرّفت يعقوب أبو يوسف بأنه هو ذاته إسرائيل جد الإسرائيليين العبرانيين الذين انتقلوا في وقت من الأوقات الى أرض كنعان (بتهامة عسير) وجوارها واستقروا بأرض "مصرايم" في وادي بيشة.

٦ـ عرّفت يعقوب الآرامي بأنه هو ذاته يعقوب أبو يوسف العبراني المسمى إسرائيل، الذي لحق بإبنه يوسف الى أرض مصرايم واستقر هناك مع ذويه.

وقضت عملية الدمج بين شخصية يعقوب الآرامي - من جهة - وشخصيات إسرائيل العبراني ويعقوب أبي يوسف ويعقوب الإله، من جهة أخرى، ألا يكون ليعقوب الآرامي موطن واحد، بل عدة مواطن، منها ما هو شكيم وبيت إيل ومنها ما هو أرض كنعان وأرض مصرايم. وهكذا

جاءت الأسطورة فجعلت من يعقوب المذكور في نص سفر التكوين آرامياً تائهاً .

ويرى االصليبي أن هذا الخلط "السافر" في نص سفر التكوين بين يعقوب الآرامي واسرائيل العبراني ، يبدأ من المنعطف في القصة حيث يصل يعقوب الى "محانيم"(وكان موطنه ببلاد زهران)أما موطن إسرائيل العبراني فكان أرض كنعان. وبعد وصول يعقوب الى محانيم التقى هناك أخاه عيسو من بلاد أدوم (تك٣/٣٢ـ ٨) وعيسو هذا في سفر التكوين هو أدوم (تك ١/٣٦) أخو إسرائيل العبراني، أو إبن أخيه (تك ٩/٣٦).وعند هذه النقطة يبدأ الدمج بين شخصية يعقوب وشخصية إسرائيل.

(تك ١/٣٦) " وهذه مواليد عيسو الذي هو أدوم". بينما نجد في تك ٦/٣٦ ' وهذه مواليد عيسو أبي أدوم في جبل سعير" .

ويرى الصليبي أيضاً أن قصة تغيير إسم يعقوب الى إسرائيل عند مخاضة نهر اليبوق، إنما ربما كانت في الأصل خرافة تروى في السابق عن يعقوب الإله. ويلاحظ أيضاً أن سفر التكوين - في مناسبة أخرى يحول يعقوب الآرامي الى إسرائيل بعد عودته من "فدان آرام" (تك ٩/٣٥ـ١١). والرب الذي ظهر ليعقوب في هذه المناسبة لتغيير إسمه لم يكن يهوه بل " إيل شداي" (تك ١١/٣٥).

" وظهر (إلوهيم) ليعقوب أيضاً حين جاء من فدان آرام وباركه. وقال له(إلوهيم) إسمك يعقوب.لا يدعى إسمك فيما بعد يعقوب بل يكون إسمك إسرائيل. فدعا إسمه إسرائيل وقال له(إلوهيم) أنا الله القدير (إيل شداي) ...."

المهم أن يعقوب هذا(الآرامي) لم يكن له أي علاقة بإسرائيل العبراني، ولم يكن إسمه إسرائيل. وثانياً، أنه كان بلا شك آرامياً.

وثالثاً، أن موطنه كان ببلاد زهران جنوب الحجاز، وليس أي مكان آخر. ورابعاً، أن الإله الذي كان يعبده كان واحداً وهو"يهوه". وربما كان يعقوب هذا شخصية تاريخية وربما كان شخصية أسطورية. لكن الواضح أن هناك قبيلة آرامية من بلاد زهران كانت تنتسب اليه في القدم وتسمى بإسمه. وفي التوراة أن شعب إسرائيل يتألف من ١٢ سبطاً. فأي هذه الأسباط أو القبائل كانت في الأصل من بني يعقوب الآراميين وليس بني إسرائيل العبرانيين أو من غيرهم ؟

ويستخرج الصليبي الإجابة على هذا السؤال من التوراة نفسها فيرى أن يعقوب الآرامي كان هو نفسه إسرائيل العبراني، جد جميع بنيّ إسرائيل. وأن يعقوب/إسرائيل هذا كان له إثنى عشر إبناً. لكن سفر التكوين يعير واحداً منهم أهمية خاصة وهو "يهوذا" الذي اشتق من إسمه إسم اليهود واليهودية والديانة التي تسمي الإله الواحد "يهوه". وقصة يهوذا هذا وفصله عن باقي أخوته ترد في سفر التكوين ٣٨/١-٣) "ونزل يهوذا عند باقي إخوته ومال الى رجل عدلامي إسمه حيره. ونظر يهوذا هناك إبنة رجل كنعاني إسمه شوّع. فأخذها ودخل عليها. فحبلت وولدت إبناً دعا إسمه عيراً.

وهناك تناقض واضح في نص سفر التكوين بين هذه القصة التي يرويها عن يهوذا على حدة وباستقلال تام عن قصة أبيه وإخوته وبين الدور البارز الذي سيعطيه له السفر بعد ذلك في قصة يوسف ونزوح إسرائيل وبنيه من أرض كنعان الى مصر[٣٧] " فكلمه يهوذا قائلاً أن الرجل قد أشهد علينا قائلاً لا ترون وجهي بدون أن يكون أخيكم معكم". فدخل يهوذا ورخوته الى بيت يوسف وهو بعد هناك، ووقعوا أمامه على الأرض ... ثم تقدم اليه يهوذا وقال إستمع ياسيدي ..."فأرسل يهوذا أمامه ليري الطريق أمامه الى جاسان. ثم جاءوا الى أرض جاسان .

ويشار في مقطع من هذه القصة الى بني إسرائيل بأنهم"يهوذا وإخوته" ولا يعقل أن يكون يهوذا قد افترق عن أبيه وإخوته وتزوج وأنجب وتزوج إثنان من أبنائه وماتوا، ثم ترمل وأنجب من كنته ثم عاد فالتحق بإخوته في أرض كنعان ومنها الى مصر .

ويتضح أيضاً من رواية سفر العدد(٣٨) أن بني يهوذا كانوا في جملة بني إسرائيل الذين بقوا في أرض مصر بعد وفاة إسرائيل ويوسف، ثم خرجوا منها بقيادة موسى.

"وهذه أسماء الرجال الذين يقفون معكما..ليهوذا نحشون بن عميناداب " ...

والسر في ذلك أن بني يهوذا لم يكونوا من بني إسرائيل العبرانيين الذين كانوا أصلاً من "تهامة عسير"، بل أن بني يهوذا كانوا من بني يعقوب الآراميين (الحجازيين)، ولابد أن الافتراق الذي تحدث عنه سفر التكوين بين يهوذا (وإخوته) من بني إسرائيل لم يكن حدثاً تاريخياً، بل كان افتراقاً أساسياً في العنصر بين بني يهوذا الآراميين (وهم من الحجاز) وبني إسرائيل (العبرانيين) من جهة أخرى وهم من عسير. والمهم في الأمر أن بني يهوذا من بني يعقوب الآراميين كانوا في الأصل قبيلة حجازية مستقلة تمام الاستقلال عن بني إسرائيل العبرانيين، الى أن توحدت هذه القبيلة مع بني إسرائيل، فصارت جزءاً من شعب إسرائيل في وقت لاحق.

٣ـ٢ هكذا، وبعد أن عرضنا كل الآراء التوراتية والتراثية المتناقلة على مدار التاريخ "اليهودي" القديم، ووجهة نظر العلماء المحدثين في هذه الحقبة التاريخية الهامة في التاريخ "اليهودي"، باعتبارها الجذر والأساس المفترض الذي انطلقت منه ـ فيما بعد ـ المسيرة اليهودية

"المنظمة" الى حد ما داخل تاريخ المنطقة، بعد كل هذا يمكن أن نلخص هذه الآراء في الآتي :

أ- من المنظور اليهودي .

١- لقد حاولت التوراة، ومن بعدها الهجاداه، أن تضرب بجذورها في أعماق التاريخ لتصل الى إبراهيم، بل وأكثر من ذلك من نصبت نفسها مؤرخاً لتاريخ الإنسانية، فبدأت السرد التوراتي منذ بداية الخليقة ونزول آدم الى الأرض وتسلسل الأنساب الى أن تصل بنا الى الجذر الذي ادعت أنه جذرها الذي انطلقت منه تاريخياً.

٢- سعت التوراة من خلال هذا المنهج الى عملية "إنتقائية للتاريخ". بحيث غدا التاريخ التوراتي هو التاريخ المعتمد للمسيرة الإنسانية القديمة والمحور الذي دارت عليه حضارات وثقافات شعوب العالم القديم وليس العكس

٣- وبما أن التاريخ اليهودي "منتقى" فلا بد أيضاً أن يكون أصحاب هذا التاريخ "مصطفين" ، مختارين من الرب ومفضلين على كل الشعوب الأخرى.

ب - من المنظور العلمي الحديث.

١- لقد حاول العلماء تحليل هذا التاريخ من عدة محاور، فركز البعض على البعد الأسطوري، بينما لجأ آخرون الى التحليل الإقتصادي لهذا التاريخ كما دونته التوراة. ولجأ نفر ثالث الى التحليل الأدبي للنصوص .

٢- لا يمكن إنكار أن الجهد الخارق الذي قام به العلماء في تفسير غموض هذا التاريخ وفك طلاسمه، قد أحرز كثيراً من النجاحات في أغلب الأحيان، لكنه أيضاً مني بإخفاقات عديدة لكنها لا تنتقص بحال

من الجهد المبذول خاصة بعد أن وقفنا على صعوبة الخوض في هذا الحقل الشائك.

٣ـ بعد عرض وجهات النظر التوراتية والعلمية الحديثة، بقي أمامنا أن نحاول رسم (تركيب) شخصيات العهد القديم الرئيسية، بعد أن "نقيت" مما علق بها خلال مرحلة التناقل والتدوين.

أ ـ بالنسبة لسيدنا إبراهيم، وهو الجد الأعلى للنبوة والديانة لدى شعوب المنطقة، بات من الواضح أنه حقيقة واقعة لا مجال للشك فيها بأي حال من الأحوال كما أنه كان أيضاً بلا شك شخصية قلما يجود الزمان بمثلها. كان ذو أخلاق رفيعة تتفق بلا شك مع المهمة المنوط بها، لكن اليهود ـ وكعادة شعوب المنطقة القديمة ـ حاولوا أن يلحقوا بهذه الشخصية بعض هالات البطولة الخارقة فحملوها من الأساطير الذي شوه صورتها كثيراً. أما ما حاول بعض العلماء تحميل هذه الشخصية صفة الألوهية (كما فعل الصليبي) فهي محاولات عقيمة ينقصها الكثير من أصول البحث والدقة العلمية، وتعتمد على افتراضات لا وجود لها إلا في ذهن صاحبها. وإن كان قد أفادنا هو وغيره في التركيز على صورة الحياة الرعوية في تلك الفترة، وهي بلا شك ما كانت عليه الأحوال في عصر سيدنا إبراهيم. حيث يمكن أن نلخص حياته على النحو التالي

" كان سيدنا إبراهيم إنساناً تقياً، توصل الى معرفة الخالق خلال تأملاته وهو في الصحراء يرعى غنمه. وكلفه الله بأداء رسالة للبشرية تدعو الى عبادة الله الواحد الأحد. فجهر بهذه الدعوة بين قومه ولاقى في سبيل ذلك صنوف العذاب، (تماماً كما حدث في دعوة عيسى عليه السلام ودعوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام) فاضطر الى مغادرة قومه ومحلته للتبشير بالدعوة الجديدة (ونلحظ هنا أيضاً نفس ما فعله

عيسى وما فعله سيدنا محمد وخروجه من مكة الى المدينة). هبط إبراهيم الى كنعان، فوجد فيها حضارة (زراعية) زاهرة، بما يستتبعها من رقي ثقافي ومعتقدي مما يصعب عليه مهمة الدعوة بين شعوب زراعية وهو البدوي الجوال، فارتحل عنها الى مصر لعدة أسباب ظاهرها إقتصادي وباطنها ديني/إقتصادي حتى يتمكن من تحقيق شيء من الثراء يمكنه من ضرب جذوره في الأرض - لدى عودته - حتى يمكنه أن يجهر بدعوته وينفق عليها، وربما أيضاً ليدعو لديانته بين المصريين، الذين كانوا أكثر تفتحاً على التوجهات الدينية، باعتبار أن الدين كان يلعب في ذلك الوقت دور رئيسي في الحضارة المصرية.لكنه لم يستطع أن يحقق في مصر إلا الجانب الإقتصادي ولم يوفق في دعوته الدينية، ربما لنفس الأسباب التي ذكرناها من تقدم الحضارة المصرية (الزراعية) وانفتاحها على المعتقدات الدينية. فارتحل عائداً الى كنعان ثانية. وصار ذو شأن "أنت رئيس بيننا" وانتشرت دعوته الى حد ما في المنطقة، وبخاصة بين عشيرته التي اتسعت حداً في ذلك الوقت، أما اعتزال لوط عنه، فربما كان لاختلاف ديني - بعد أن وقع لوط في براثن زوجته، وربما أيضاً لاختلاف اقتصادي، كما حاولت التوراة الايحاء به. وحينما أراد أن يزوج إبنه إسحق لم يشأ أن يزوجه من بنات الكنعانيين (لا لأنه لم يتأقلم بعد، ولكن لأنهم ليسو على دينه) فأرسل خادمه ليأتي بزوجة لإبنه من بين قومه وعشيرته الذين ربما تكون دعوته قد لاقت لديهم بعض النجاح (على الرغم من محاولة التوراة السير بنا في طريق عكسي تماماً لتوهمنا أن لابان أخو رفقه التي تزوجها إسحق كان لا يزال على وثنيته ويعبد آلهته المنزلية، التي سرقتها راحيل فيما بعد في رحلة هروبها مع زوجها يعقوب).

ب - إسحق ويعقوب

إسحق هو إبن سيدنا إبراهيم الذي أنجبته له ساره بعد أن تقدم به العمر. وهو إبن شيخوخته. لذا فقد كان مقرباً جداً منه بعد أن تزوج إسماعيل واعتزل هو وزوجته وعشيرته. فكان إسحق هو الإبن "المقيم" مع إبراهيم. وقد سار على نهج والده. ونظراً للانتقائية" التي اتسم بها تدوين التاريخ اليهودي، فقد ظهرت صورة إسحق في التدوين التوراتي "باهتة" الى حد ما،لأن المدون التوراتي كان يستحث الخطى ليلحق بالحديث عن يعقوب الذي اعتبروه جدهم الأعلى لأنه أنجب"يهوداً " خلّص، من وجهة النظر التوراتية.

وتاريخياً، وبعد أن ننقي الصورة، نجد أن يعقوب هو الإبن الثاني "الذي انتقاه اليهود" و"اصطفوه"ليواصلوا به تدوين التاريخ. وقد كان يعقوب هذا محباً للترحال، ونظرا لشظف العيش في أرض كنعان رأى الإرتحال الى خاله علّه يحقق هناك في بلاد النهرين شيء من الثراء يعود بعده الى كنعان ليستقر فيها بعد أن تتحسن أحواله المادية. وجاءت التوراة لتضفي على هذا الانتقال بعداً أسطورياً، تمثل في صراعه مع أخاه عيسو. ولعل"غواية" الأم لإبنها في هذه القصة هي محاولة من المدون لتحويل الغواية الأولى(غواية حواء لآدم) من الصورة السلبية الى الصورة الإيجابية. فغواية حواء هبطت بآدم الى الأرض وجلبت عليه لعنة الرب. أما غواية رفقه ليعقوب فقد جلبت عليه كل الخير ورفعته الى مصاف"الجد الأعلى" لليهود. وبالتالي - ووفقاً لهذا التصور - نعتقد أن قصة غواية رفقه لإبنها هنا لا تعدو أكثر من كونها رؤية أسطورية تدوينية.

ونأتي الآن الى الملحوظة الأخطر في هذا السياق وهي المتعلقة بتلك اللحظة التي تحول فيها يعقوب في مخاضة اليبوق الى إسرائيل.

فمن خلال كل ما تقدم يمكن القول أن تزييف التاريخ بدأ هنا عند هذه النقطة، حيث تم الربط بين شخصيتين وجعلهما شخصية واحدة. إسرائيل،الذي ربما كان هو إسم قائد المسيرة اليهودية في غزو فلسطين بعد يشوع ويعقوب آخر سلالة البطاركة، الذين تمسحت بهم التوراة في محاولتها ضرب الجذور والبحث عن هوية تربطها بالسكان الأصليين في المنطقة.

وهكذا نجد أن قصص الآباء الواردة في سفر التكوين، رغم ترجيح وجود أساس واقعي لها، ليست إلا نوعاً من الملحمة البطولية مما تعودت الشعوب القديمة على تدبيجه عن البدايات الأولى. فالأساس الملحمي يسود في سفر التكوين، سواء في الأسلوب أو في المضمون.فبعد المقدمة الميثولوجية المتعلقة بخلق العالم، تدخل في سلسلة من الأحداث المليئة بالتهويلات والمبالغات، فنرى مجموعة إبراهيم القليلة تهزم تجمع ملوك بلاد الرافدين السبعة بقيادة "إمرافل"،والذي قرنه بعض الباحثين بحمورابي[٣٩] ومدن بكاملها تختفي من الوجود بنار وكبريت من السماء تنسكب عليها[٤٠]. وتوهب الذرية لرجال ونساء في المائة من عمرهم [٤١].ويأتي الآلهة الى بيوت البشر ويأكلون على موائدهم[٤٢]. وتلتحم شخصيات الآباء في صراع جسدي مع الآلهة [٤٣] .

هوامش ومراجع الفصل الأول

(١) موسكاتي، سبتينو. الحضارات السامية القديمة. ترجمة د. سيد يعقوب بكر. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٧٢ص٥٥ وأيضاً مصطفى عبد العليم م.س.ذ. ص٣٠

(٢)السواح، فراس . الحدث التوراتي م.س.ذ. ص ٧٨

(٣) نفس المرجع ص٧٩ وراجع أيضاً سيد القمني. النبي إبراهيم. م.س.ذ. ص١٧

(٤) في سفر التكوين ٣١:١١ تذكر هجرة تارح من أور الكلدانية، في حين أن نص الترجمة السبعينية لا يتضمن أي إشارة الى مدينة على الإطلاق، ولذلك فإن بعض الباحثين يرى أن ذكر أور هنا في تكوين ٢٨/١١ـ٣١ إنما هو من قبيل الخطأ أو أنه إضافة متأخرة، بينما يشير آخرون الى الكلمة في النص العبري "أور" والكلمة في نص الترجمة السبعينية "أرض"، وقد وجدت كلمة أور في النص العبري بحذف حرف الضاد من الترجمة السبعينية، وعلى ذلك تكون هجرة تارح وقومه من أرض الكلدانيين في بابل بالقرب من حران. ويرى البعض أن أور كانت مدينة تقع من موقع تل الموقير في منتصف الطريق بين بغداد ورأس الخليج العربي، في حين أن البعض الآخر يفضل القول بأنها كانت تقع في منطقة حران شمال العراق القديم وعلى بعد مائتي ميل شمالها، وقد يؤدي ذلك الى أن المنطقة حران - أورفه شمال العراق - سميت بالمنطقة الآرامية الكلدانية حتى نهاية العصر الفارسي الإخميني، فضلاً عن أن حران وأور كانتا مركزين لعبادة إله القمر سين.ولم يظهر الكلدانيون في جنوب العراق إلا في عصر متأخر جداً، ولما كان هناك تأثير واضح من بابل في الأسفار الخمسة عن الخليقة وأصل الكون والطوفان، فإن هذا يوحي بأن قوم إبراهيم تأثروا في معتقداتهم

بالمعتقدات البابلية ولم يتكلموا عن معتقدات الكنعانيين. ويتساءل البعض، إذا كانت "أور كسديم" هي أور تل الموقير جنوب بابل هي أور إبراهيم، فلم لم تشر الألواح التي عثر عليها في ذلك الموقع اليه ولا الى قومه. وقد تابع أصحاب هذا الرأي العالم الأثري "ليوناردو وولي" بين عامي ١٩٢٢ ـ ١٩٣٤ الذي كشف في موقع تل الموقير عن مدينة باسم أور تدل آثارها على أنها كانت على مستوى حضاري رفيع، حتى أنه قدر عدد سكانها ما بين خمسة وعشرين الف نسمة. وعلى أي حال فإن أور تل الموقير هذه قد تدهورت عندما اكتسح العيلاميون أرض سومر حوالي عام ١٩٦٠ق.م.(عن اليهود في العالم القديم ص٢٨)

(٥) تكوين ١٠/٢٧ ـ٣١

(٦) تكوين ١٢/٢٠

(٧) تكوين ٢٢/١١

(٨) تكوين ١٢/ ٦ ـ ٨

(٩) تكوين ١٢/١٢

(١٠) تكوين ١٢/ ١٤ ـ ١٦

(١١) تكوين ٢/١٣

(١٢) تكوين ١٣/ ١٠ ـ ١٣

(١٣) لا تستطيع الابحاث الأثرية أن تحدد مدى قدم حبرون، ففي سفر العدد ٢٢/١٣، ورد أن حبرون أنشئت قبل إنشاء زوان في مصر بسبع سنين، وزوان مدينة في شرق الدلتا، وكان لها عدد من الأسماء من بينها رعمسيس مدينة المستودعات ـ التي قيل أن اليهود الأسرى شيدوها أو أعادوا بناءها عندما كانوا في الأسر .خروج ١١/١. وقد ظهر أن الهكسوس أعادوا بناءها في عام ١٧٠٠ق.م فيرجع تاريخ حبرون إذن الى نفس الوقت ربما تحت اسم قرية اربع تك ٢٣/٣٥ـ٣٧. عن سيد فرج

ومصطفى عبد العليم م.س.ذ عن رايت ص٣٥.

(١٤) تكوين ١٤/ ٨ ـ ١٢.

(١٥) وهي الصيغة الهلينية لأورشليم ، وقد درج يوسيفوس على استخدامها بجانب التفسير الغريب للإسم على أنه هولي سوليما؛ ويقول يوسيفوس إنها سميت فيما بعد هيروسوليما. (عن اليهود في التاريخ القديم م.س.ذ ص٣٦)

(١٦) تكوين ١٧/ ٢١

(١٧) تكوين ٢١/٢١

(١٨) تكوين ٢٢/٢

(١٩) (تكوين ٢٣/١٥ ـ ١٦) عن ليو تاكسل :التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير.ت. د. حسان ميخائيل إسحق ط ١٩٩٤١ ص١١٤]

(٢٠) تكوين ١٩/٢٩

(٢١) تكوين ١١/٦

(٢٢) فراس السواح. الحدث التوراتي. م.س.ذ. ص ٨٥

(٢٣) نفس المصدر ص ٨٨

(٢٤) سيد القمني. النبي إبراهيم م. س. ذ. ص١٨

(٢٥) ليو تاكسل. التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير. ترجمة د.حسان ميخائيل إسحق. القاهرة ط١ ١٩٩٤ص١٢٧

(٢٦) أحمد سوسه. العوب واليهود في التاريخ . حقائق تاريخية تظهرها الاكتشافات الآثارية . العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٧ دمشق. ١٩٩٠. ص١٨٢

(٢٧) نفس المرجع ص ١٨٥

(٢٨) نفس المرجع ص ١٨٦

(٢٩) نفس المرجع والصفحة

(٣٠) (تك ٢٤/٤ ، ٣٨، ٤٠ وتث ٢٦/٥)

(٣١)أحمد سوسة. م.س.ذ ص ١٨٨

(٣٢) تك ١٥/ ٣ ـ١٧

(٣٣) جيمس فريزر الفولكلور في العهد القديم. ترجمة د. نبيله إبراهيم. مراجعة د. حسن ظاظا. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة الجزء الأول ١٩٧٢ص ٩٠

(٣٤) نفس المصدر ص ٩٣

(٣٥) طيب تيزيني. مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بداياته حتى المرحلة المعاصرة في ١٢ جزءاً. دار دمشق. الجزء الثالث. المجلد الأول. ١٩٨٥ص٩٤

(٣٦) تكوين ١٣/٥ ـ٩

(٣٧) تكوين ٢٢:٢١ ـ٢٣، ١٢:٢٦ـ٣٣

(٣٨) عن اليهود في العالم القديم م.س.ذ. ص٢٧ ـ٣٨).

(٣٩) طومسون. ل. م. س.ذ ص٨٤ ـ٨٥

هوامش ومراجع الفصل الثاني

(١) تكوين ٢٤/٢

(٢) تكوين ٢٤/٢٤

(٣) تكوين ٢٦/١ ـ٤

(٤) تكوين ٢٦/٢٤

(٥) تكوين ٢٧/٢٨ ـ٢٩

(٦) كمال الصليبي. م.س.ذ ص١٠٥

(٧) تكوين ٢٤/٦٢

(٨) كمال الصليبي. م.س.ذ. ص ١٠٧

(٩) تكوين ٢٨/ ١٠ـ١٥

(١٠) تكوين ٢٠/٢٢

(١١) خروج ٢/ ١٦ ـ ٢٢

(١٢) تكوين ٢٩/ ٢٥

(١٣) تكوين ٢٠/ ٢٧ـ ٤٢

(١٤) تكوين ٢١/ ٢٥

(١٥) تكوين ٣٢/٢٦

(١٦) تكوين ٣٢/ ٢٨

(١٧) تكوين ٣٢/ ٣٠

(١٨) تكوين ٤٣/ ٢ ـ ٢٠

(١٩) مدراش هجادوت بريشيت.٥/ ٢٢ عن رجال العهد القديم (بالعبرية).

(٢٠) مختارات تناخية.الكتاب الأول. ماسادا. تل أبيب. ١٩٦٢ (بالعبرية) ص١٢٤

(٢١) تكوين ٢٥/ ٢٢

(٢٢) بريشيت رابا ٦٣/١ عن رجال العهد القديم.

(٢٣) مدراش هجادوت بريشيت. ٥/ ٢٢ عن رجال العهد القديم.

(٢٤) شتاينبرج. قاموس الكتاب المقدس. طبعة دافار . يزرعئيل ط٢ يناير ١٩٦١ ص١٥٩(بالعبرية).

(٢٥) أحمد حماد. تناول الشخصيات الدينية في الشعر العبري الحديث . رسالة دكتوراه غير منشورة. جامعة عين شمس ١٩٧٩ص.٩٠

(٢٦) بريشيت رابا ٦٨/١

(٢٧) توسفتا دي ربي الحنان. عن رجال العهد القديم. م.س.ذ.

(٢٨) تكوين ١٩/١٧

(٢٩) بريشيت رابا ٧/١٧
(٣٠) مزامير ١٨/٢٦
(٣١) بريشيت رابا ٧/١٣
(٣٢) تكوين ٢٧/١٨ ـ ٢٣
(٣٣) تكوين ٢٨/٢٧ ـ ٣
(٣٤) جيمس فريزر . الفولكلور في العهد القديم م.س.ذ ص١٠٥
(٣٥) نفس المرجع والصفحة
(٣٦) نفس المرجع ص ١٠٦
(٣٧) تكوين ٤٣/٢٤ ، ٤٤/ ١٤ ، ٢٨، ٣٤، ٤٦/ ١٢ ـ٢٨
(٣٨) عدد ١/ ٥ ـ١٦، ٢/ ٤٦
(٣٩) تكوين ١٤/ ١ـ ١٦
(٤٠) تكوين ١٩/ ٢٢ ـ ٢٦
(٤١) تكوين ١٧/ ١٨ ـ ٢٠
(٤٢) تكوين ١٨/ ١ ـ ٢٣
(٤٣) تكوين ٣٢/ ٢ ـ٢٥

الباب الثاني
"الإسرائيليون في التاريخ"

الفصل الاول

اليهود في مصر

وما أوتيتم من العلم الا قليلا

١ - على الرغم من الصمت شبه المطبق الذي تصمته - حتى الآن - جميع المصادر الآثارية عن هذه الحقبة، وعلى الرغم من أننا لا نجد أمامنا من مصدر نستعين به في استشراف تاريخ هذه الفترة، إلا التوراة، فإننا نبدي مبدئياً تحفظنا من التعامل مع هذا المصدر، كمصدر تاريخي، اعتماداً على كل ما سبق من دحض لصداقيتها التاريخية .

تقول التوراة في سفر التكوين[1] أن يعقوب كان يحب إبنه يوسف أكثر من كل أبناءه. مما دفع إخوته الى الغيرة منه واشتعلت نار الحقد عليه في قلوبهم وزاد اشتعالها عندما أخبرهم بأنه حلم في منامه أنه رأى الشمس وأحد عشر كوكباً تسجد له، وفسروا هذا الحلم على أنه سيستعبدهم، لذا قرروا قتله أو التخلص منه بأى وسيلة. وبينما كانوا يرعون غنم أبيهم، ألقوا بيوسف حياً في بئر، وأخبروا يعقوب بأن ذئباً قد افترسه. لكن قافلة من التجار الإسماعيليين (العرب) مرت بالمكان فانتشلته وذهبت به الى مصر، حيث باعته هناك عبداً لفوطيفار، وزير الشرط، عند فرعون في ذلك الوقت. وبعد سلسلة من الأحداث تعرض خلالها يوسف لكثير من العذاب ارتقى أعلى منصب يمكن أن يحتله إنسان في مصر بعد فرعون، حيث كان يشرف - تقريباً - على كل شئون المملكة.

وهنا تبدأ الصلات التاريخية الأولى الافتراضية "للعبرانيين" بمصر الفرعونية (حوالى عام ١٦٥٠ ق.م) بعد أن تعرضت المنطقة كلها لحالة من الجدب والقحط، دفع سكان هذه المنطقة الى البحث عن مأكل لهم ولمواشيهم وقطعانهم. فلجأ أبناء يعقوب الى مصر، التي عرفت آنذاك قدراً كبيراً من الاستقرار الاقتصادي، والذي ترجعه التوراة الى قدرة يوسف التنظيمية والتخطيطية، فذهبوا يشترون القمح من مصر، شأنهم في ذلك شأن الآخرين في المنطقة وعرفهم يوسف ولم

يعرفوه. وبعد عدة مناورات قام بها معهم طلب منهم إحضار والده والإقامة معه في مصر واستأذن فرعون في ذلك وسمح له فرعون قائلاً "في أفضل الأرض يسكنون"، وأقطعهم أرض جاسان "الخصبة" مقراً لإقامتهم امتناناً لفضل يوسف على مصر والمصريين.

وكانت هجرة أبناء يعقوب الى مصر هى بداية الحقبة الثانية في التاريخ " التوراتي" وهي الوجود "اليهودي" في مصر.

ورغم ندرة المراجع والمصادر التي تكشف عن الطريقة التي دخل بها "أبناء يعقوب" الى مصر، فإن التوراة تكاد تكون هي المصدر الوحيد الذي يمدنا بالمعلومات عن هذه الفترة التاريخية، أما الباقي فهي مجرد افتراضات تحليلية تقديرية، وهي ما سنأتي عليه لاحقاً. تقول التوراة في هذا الشأن

" اتخذ يعقوب طريقه هو وعشيرته الى بئر سبع وذبح هناك الذبائح لإله أبيه إسحق وقال الرب آنذاك"أنا الله إله أبيك. لا تخف من النزول الى أرض مصر لأني سأجعلك أمة عظيمة هناك. أنا أنزل معك الى أرض مصر. وكان عدد من أتى معه سبعون فرداً دخلوا مصر جميعاً واستقروا في أرض جاسان. وعال يوسف أبيه وإخوته. وعاش يعقوب في مصر سبع عشرة سنة. ولما شعر بدبيب الموت يسعى اليه طلب من يوسف أن يحضر اليه ويحضر معه إبنيه من إبنة فوطيفار (أوسنات) لكي يمنحهما البركة. وهنا أتى يعقوب بتصرف مريب آخر، حيث منح البركة للإبن الأصغر - دون الأكبر - وطلب بعد ذلك من يوسف أن يقوم بدفنه مع آبائه وأجداده. ودعا بعد ذلك أبنائه الآخرين ووبخهم جميعاً على الأفعال الآثمة التي أتوا بها في حياته وأغضبوه ورفع فوقهم أخيهم "يهوذا"لكي يملك عليهم ومنحه بركته. ومات يعقوب وخرجت جنازته من مصر في موكب مهيب ليدفن في مغارة المكفيلة بجوار

إبراهيم وإسحق، وبقى اليهود في مصر وتكاثروا وتناسلوا. وعاش يوسف مئة وعشر سنة. ورأي يوسف لأفرايم إبنه أولاد الجيل الثالث وحينما حضرت يوسف الوفاة استحلف إخوته أن يأخذوا جثمانه معهم لحظة خروجهم من مصر وتنبأ لهم بهذا الخروج.

١-١ أول ما يمكن أن نلحظه هنا على الرواية التوراتية أنها تترك فجوة زمنية تمتد قرابة ٤٠٠ سنة في تسلسل أحداثها. فالنص ينتقل مباشرة من موت يوسف في مصر واستعباد (بني إسرائيل) هناك من بعده، الى ولادة موسى، وتصمت تماماً عن حياة الأسباط الإثنى عشر في مصر بين هذين الحدثين، الأمر الذي دعا كثير من الباحثين الى القول بأن الخارجين من مصر بعد ذلك (فيما عرف بالخروج من مصر) لا علاقة لهم بالآباء الأولين. وأن الربط بين المصدرين قد تم على يد محرري التوراة المتأخرين. ويلاحظ أيضاً في هذه النقطة تحديداً أن القرآن الكريم لم يربط بين شخصية يعقوب(حفيد إبراهيم) وإسرائيل، الجد الأعلى لبني إسرائيل. ولم ترد فيه كلمة إسرائيل كإسم علم إلا مرة واحدة "كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه - سورة البقرة ٣).

يتضح من ملاحظاتنا الأولية على القصة التوراتية وجود أوجه شبه متعددة بينها وبين أحداث قصص أخرى من العهد القديم، فعلى سبيل المثال :

١- يلاحظ الشبه بين "انتشال يوسف من بئر الماء و"انتشال" موسى من النهر بعد ذلك. وربما حمل هذا الانتشال دلالات متعددة في حاجة الى التوقف عندها في محاولة سبر أغوارها.

٢- يلاحظ أيضاً تكرار "الأمة العظيمة في أرض مصر" بعد "الأمة

العظيمة في أرض كنعان" (إبراهيم - يعقوب) . وكأن الرب يريد أن يركز عبر الحركية التاريخية اليهودية على وعده بألا يتخلى عن هذه الأمة التي وعد بأن تكون أمة عظيمة أينما حلت.

٣ - يلاحظ أيضاً أن يعقوب لم يتحرك من بئر سبع نحو مصر إلا بعد أن حصل على الوعد بأن يكون الرب معه وأنه سيصيره أمة عظيمة، بالضبط كما فعل حينما لم يتحرك نحو خاله لابان بعد هروبه من أخيه عيسو ، إلا بعد أن حصل على وعد بالتكثير وزيادة النسل والأمان .وأنه سيصير أمة .

٤- يلاحظ أن بني إسرائيل - وفقاً للرواية التوراتية - قد قضوا في مصر ٤٣٠ سنة، لكنها لا تحدثنا إطلاقاً عما جرى لهم طوال تلك الفترة، رغم ميلها المعهود الى السرد التفصيلي لأحداث لا ترقى الى مرتبة الأحداث الكبيرة.الأمر الذي يترك أكثر من علامة استفهام حول هذا "التعتيم"المتعمد، من جانب التوراة، حول هذه الفترة. وهو ما دفع أحد الباحثين المحدثين الى القول بأن الأحداث التي تتعلق بحدثي الدخول اليهودي الى مصر والخروج منها، يمكن تقسيمها الى مرحلتين أو طورين، هما الطور الإيلي الإبراهيمي، وخلاله تم حدث الدخول. ثم الطور اليهوي أو"الموسوي" وخلاله تم حدث الخروج.وبالتالي فإن أحداث الدخول هي تلك التي تبدأ بزمن النبي إبراهيم وتنتهي بظهور النبي موسى على صفحة الأحداث، حيث يبدأ بعد ذلك حدث الخروج[٢]. بمعنى أن هذا الباحث يريد الإيحاء بأن علاقة " اليهود" مع مصر كانت مستمرة ولم تنقطع منذ زمن إبراهيم وتواصلت حتى الخروج، وربما يخالف ما هو متعارف عليه من أن رحلة من تسموا بالآباء (إبراهيم - إسحق - يعقوب) كانت مرحلة رعوية ولم يحدث أبداً - وكما يتضح من السياق التوراتي - أن كانت تحركاتها في إطار ما تمليه ظروف البداوة من

تنقلات الأفراد وربما الجماعات الصغيرة للعيش على هامش حضارات المنطقة وليس في صلبها. وهذا أيضاً ما عاد الباحث نفسه الى تأكيده في نفس الدراسة حيث يقول"ويتضح من رواية التوراة أن تلك الجماعة قد عاشت هذا الطور(الإيلى ـالإبراهيمي) في حالة من التبدي والارتحال الدائمين. وكان إبراهيم عليه السلام راعياً للمواشي، كذلك كان أبناؤه هبوطاً من إسحق الى يعقوب، وهو ما يتضح في قول يوسف عندما استقبل إخوته بمصر".. ثم قال يوسف لإخوته ولبيت أبيه: إصعد وأخبر الفرعون وأقول له: إخوتي وبيت أبي الذين في أرض كنعان جاءوا اليّ والرجال رعاة أغنام،فإنهم كانوا أهل مواشي.وقد جاءوا بغنمهم وبقرهم وكل ما لهم، فيكون إذا دعاكم فرعون وقال ما صناعتكم أن تقولوا: عبيدك أهل مواشي منذ صبانا الى الآن، نحن وآباؤنا جميعاً ،لكي تسكنوا أرض جاسان، لأن كل راعي غنم رجس للمصريين(٣)

١ـ ٢ على الرغم من أننا هنا لسنا بصدد الرد على أى رأي علمي إلا أن هذه الملحوظة من الباحث تدعونا للتوقف عندها، لأن الباحث، وفي نفس الصفحة وفي الفقرة التي تلتها ذكر ـ نقلاً عن التوراة ـ أن فرعون مصر قال ليوسف: أبوك وإخوتك جاءوا اليك، أرض مصر قدامك، في أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك". ولم ينتبه الى كيف تكون أرض جاسان هي أفضل الأراضي المصرية في ذات الوقت الذي يعد فيه أي راعي غنم رجس للمصريين، وبالتالي لا يمكن مخالطته. وقد يفهم من هذا السياق أن المصريين خصصوا أفضل أراضيهم لإقامة رعاة الأغنام وفضلوا هم العيش في الأراضي الأقل جودة. أو أن فترة الدخول واكبت وجود حكام غير مصريين في مصر، وربما كانوا حكاماً آسيويين (وهم من يعرفون تاريخياً باسم الهكسوس)فأكرموا وفادتهم واقتطعوهم

أفضل الأرض ليسكنوا فيها عملاً بالمبدأ التاريخي "منح الامتيازات للأقليات"ليكونوا طابوراً خامساً وخدماً مخلصين للحكام الأجانب، في مقابل أبناء البلد الأصليين (وهذا ما حدث فيما بعد مع اليهود أنفسهم - حينما أعادهم قورش من بابل - وهو ما سوف نأتي عليه في حينه).

وعلى الرغم من ذلك ، فإن هذا الباحث أشار الى ملحوظة هامة ، جديرة بالتوقف عندها، لما لها من دلالات على صعيد البحث الذي نحن بصدده. حيث يقول؛ ... بعد ذلك تنقلنا التوراة نقلة أخرى، الى أحداث أخرى، تبدأ بقصة تفضيل يعقوب لولده يوسف، مما أثار حقدهم، ولجأوا الى مؤامرة للتخلص منه، وهنا محاولة أخرى تقوم بها التوراة لصالح قبيلة (راحيل)، أي قبيلة يوسف، ضد قبائل الأسباط الأخرى، لكنها هنا يبدو وقد اصطدمت بواقع تحالف مجموعة القبائل التي شكلت ما يسمى بالجماعة الإسرائيلية، ولم يكن هناك مناص من قبولهم واستبقائهم، خاصة أن النبي الآتي (موسى) لن يكون من سبط يوسف، إنما من سبط لاوي [٤] .

ولعل أهمية هذه الملحوظة تكمن في تحول الباحث هنا الى التعامل مع شخصية يوسف لا على أنه شخص مستقل بذاته وإنما على أنه إسم قبيلة أو ممثل لقبيلة. وأهمية هذه الملحوظة أنها تقودنا الى ما ذهب اليه آخرون من أن هذه القصص كلها تدور حول تحركات قبائل وليس أشخاص، وعلى رأسهم كمال الصليبي، الذي أفرد دراسة مستفيضة لهذه النظرية ، نلخصها فيما يلي :

١ -٢ نظرية كمال الصليبي :

يقول الصليبي أنه من ناحية تسلسل الأحداث والمنطق، فليس في أساس القصة (قصة يوسف) ما هو غير معقول، ولعلها أكثر القصص

تماسكاً في سفر التكوين، عدا بعض الشوائب. وإذا تمكنا من وضع القصة في إطارها الجغرافي الصحيح، لا يبقى هناك ما يستبعد صحتها من الناحية التاريخية. أما الوضع الجغرافي الذي يسعى اليه الصليبي فهو بلا شك "أرض عسير"، ويستند في ذلك الى نفس المنطق السابق وهو مقاربة أسماء الأماكن الحالية في عسير مع أسماء الأماكن التوراتية مع قلب الحروف ولي ذراع الكلمات كلما دعت الحاجة الى ذلك ليصل في النهاية الى القول، بأنه ليس في الرواية التوراتية لقصة يوسف أي لبس من ناحية صحة جغرافيتها، إذا اعتبرنا أنها تتعلق بأرض عسير وليس بأرض فلسطين ومصر وادي النيل. أما من الناحية التاريخية ففي سفر التكوين ما يشير الى أن يوسف كان في الواقع شخصية تاريخية، حيث يلاحظ من قراءة النص التوراتي الكامل للقصة أنه يعطي تفاصيل مهمة عن هوية يوسف. فهو يعّرف فيها أولاً على أنه غلام أو عبد أو رجل "عبراني"وإخوته أيضاً "عبرانيون" ومسكنهم جميعاً في حبرون (منطقة المجارده في عسير)، حيث كان يقيم أبرام (العبراني). والواضح من سفر التكوين أيضاً أن يوسف وإخوته "العبرانيين" كانوا عاة أغنام، مثلهم مثل بدو تهامة حتى الوقت الحاضر. وفي القصة أن يوسف، وهو الشاب العبراني من أرض تهامة، وقع في العبودية، وبيع في سوق الرقيق في مدينة مصرايم (أي المصرمه، التي كانت قاعدة المستعمرة المصرية في وادي بيشه) لكنه تمكن بمقدرته الفذة أن يترقى في خدمة "ملك" مصرايم، أي حاكمها، حتى أصبح الرجل الثاني وصاحب النفوذ الأكبر فيها. ومن تفاصيل القصة أيضاً أن يوسف أمر الأطباء المصريين بتحنيط جسد أبيه بعد موته(١/٥٠). وعندما توفي يوسف نفسه لم يدفن في الأرض، بل حنطوه ووضع في تابوت، على عادة المصريين (تكوين ٢٦/٥٠). وهذه المعلومات الدقيقة جميعها، ولا شك في

مصريتها، كانت مستقاة من مصدر موثوق عن شخصية تاريخية ليوسف الذي بدأ حياته عبرانياً (في تهامة عسير) ثم استقر بين المصريين من سكان مستعمرة مصرايم (في وادي بيشه) حيث أصبح يتمتع بمكانة عالية بينهم الى أن تمصر هناك .

وعلى الرغم من ذلك فلا تخلو القصة - كما يقول الصليبي - من بعض التداخلات الأسطورية، لعل أهمها أن سفر التكوين لا يطلق إسماً واحداً على يوسف، بل إسمين، فهو أحياناً يوسف بن يعقوب وأحياناً أخرى يوسف بن إسرائيل. فالوالد الذي أرسل إبنه يوسف الى شكيم لكي يتفقد إخوته وأغنامهم هناك كان إسرائيل وليس يعقوب"وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه إبن شيخوخته(تك٣٧ / ٣) "فقال إسرائيل ليوسف أليس إخوتك يرعون عند شكيم. تعال فأرسلك اليهم "(١٣/٣٧). أما الوالد الذي تسلم قميص يوسف الملوث وافترض أن وحشاً قد أكله، فلم يكن إسرائيل، بل يعقوب:" فمزق (يعقوب) ثيابه ووضع مس على حقويه وناح على إبنه أياماً كثيرة (٣٤/٣٧). وفي الجزء الأخير من القصة يخبرنا سفر التكوين بأن والد يوسف الشيخ الذي "ضم رجليه الى السرير وأسلم الروح وانضم الى قومه" كان يعقوب (٣٣/٤٩) " أما الوالد الذي بكاه يوسف عند موته وأمر الأطباء بتحنيطه ثم نقله محنطاً واهتم بمراسم دفنه في مغارة المكفيلة، فلم يكن يعقوب بل إسرائيل :" وأمر يوسف عبيده الأطباء أن يحنطوا أباه . فحنط الأطباء إسرائيل " (٢/٥٠).

ويخلص من ذلك الى أن الاستبدال المستمر في النص التوراتي للقصة بين اسم يعقوب وإسم إسرائيل، في الحديث عن والد يوسف، لم يكن عفوياً، بل كان مقصوداً، بهدف التشديد على أن بطل القصة وهو يوسف بن يعقوب العبراني المدعو" صفنات فعنيح"، هو ذاته الجد

المفترض لقبيلة يوسف العبرانية، وهي فرع من فروع قبيلة إسرائيل. وعند نهاية القصة جعل سفر التكوين يوسف المدعو صفنات فعنيح يرافق جثمان إسرائيل من مصرايم الى المكفيلة ليدفنه هناك، زيادة في التشديد على أن إسرائيل كان في الواقع والده. وهكذا تم الدمج عند مقبرة المكفيلة بين شخصية يوسف بن يعقوب (التاريخية) وشخصية يوسف بن إسرائيل (الأسطورية).

وبالإضافة الى ذلك فلا يستبعد الصليبي أيضاً أن هناك جذوراً في الذهنية الأسطورية تناقلت عبر الأجيال حول إله وليس شخص يدعى يوسف إي إله اليسر والخير (٥).

وهكذا يخلص الصليبي في تناوله لقصة يوسف التوراتية الى التداخل البيّن في القصة بين المصادر المتعددة التي جمعت منها التوراة، إضافة الى ما تواتر من الذهنية الأسطورية وأدمج في الرواية التاريخية عن شخص تاريخي يدعى يوسف.

وقد حاول الصليبي وحالفه التوفيق أحياناً وجانبه الصواب في أحيان كثيرة، أن يفصل القصة التاريخية عن هذه التداخلات الكثيرة فيها ليخلص في النهاية الى وجود يوسف كحقيقة تاريخية، ولكن ليس في مصر الفرعونية، وإنما كعادته في مصر "عسير" في جنوب الجزيرة العربية.

١ - ٤ إذا نحن سلّمنا بما جاء في قصة يوسف، بعد نزع التداخلات عنها، فإن يوسف"التاريخي" في هذه الحالة أقام في مصر(الفرعونية) حوالي مئة وعشر سنة، ورأي يوسف لأفرايم (إبنه من زوجته المصرية إبنة فوطيفار) أولاد الجيل الثالث، وحينما حضرته الوفاة استحلف إخوته أن يأخذوا جثمانه معهم لحظة خروجهم من مصر ، وتنبأ لهم بهذا

الخروج.

وهنا نتوقف لنطرح هذا التساؤل: إذا كانت هذه حقيقة تاريخية، فما الذي دفع يوسف - وهو في قمة مجده - ولم يستعبد "اليهود" بعد، الى التنبؤ بالخروج، بل ويطلب اليهم أن يأخذوا جثمانه معهم ؟ هل ذلك لأن هذاالتاريخ دوّن بعد أحداث الخروج؟ وبالتالي كان المدون على علم بأحداثه. أم لأن بني إسرائيل بقيادة يوسف لم يكونوا يتمتعون بهذه المكانة التي حدثتنا عنها التوراة، وأن مكانة يوسف وسيادته في مصر والتي ذكرت في التوراة، لم تكن إلا في خيال كاتب القصة فقط ؟

وعلى أية حال، فإنه إذا كان يوسف قد أقام في مصر فعلاً واستجلب أبيه وإخوته للإقامة معه، فإن العلماء قد حاروا كثيراً في تحديد تاريخ دخول "العبرانيين"الى مصر.وانتهوا الى حقيقة أنه غير معلوم على وجه الدقة متى دخلوها؟ وهل دخلوها أحراراً أم عبيداً؟ أو لعلهم جاءوا في إثر الهكسوس "الساميين"، ولعل سيطرة الهكسوس على مصر أتاحت لهم بعض الحماية. ويرجع فلاندرز بتري تاريخ دخولهم الى مصر حوالي عام ١٦٠٠ق.م وخروجهم منها عام ١٢٢٠ق.م. معتمداً في ذلك على ما ورد في التوراه من أن العبرانيين أقاموا في مصر أربعمائة وثلاثين عاماً .

وهناك رأي آخر يقول أن دخول "العبرانيون" الى مصر لم يكن قبل عام ١٤٢٠ق.م.أي في عهد أمينوفيس الثاني، بعد أن قام بطرد الهكسوس منها، وقيام الأسرة الثامنة عشر. وهذا الرأى جانبه الصواب كثيراً ولم يأخذ به أي من الباحثين القدامى أو المحدثين، ذلك لأنه سيؤدي الى القول بأن أبناء يعقوب المباشرين مثل يعقوب نفسه لم يجيئوا الى مصر؛ وأن ما ورد في العهد القديم ليس سوى تدوين مصنوع قام به الإسرائيليون أنفسهم، بعد أن قدمت مجموعات من

العبرانيين مع الأقوام المتعددة التي قدمت الى مصر. وقد ترجع أهمية وخطورة هذا الرأى الى أنه ينفي الحدث التوراتي تماماً كمصدر تاريخي ويقوم على فرضية في حاجة الى مزيد من الجهد لإثبات صدقها على الرغم من أنه رأي جدير بالتمعن فيه.

وهناك رأي آخر يقول بأنه خلال الفترة التي صحبت قدوم الهكسوس الي مصر عام ١٧١٠ق.م. بدأت أيضاً هجرات متعددة الأجناس من قلب آسيا في حالة طرد بشري نتيجة لجدب الصحراء ، وبالتالي فليس من المستبعد بعد أن ساءت الأحوال الإقتصادية نتيجة للجدب الذي كان قد حل بالأرض كلها في هذه المرحلة، وكان الهكسوس قد استطاعوا أن يدبروا أمر أنفسهم، أن يحيوا الاقتصاد المصري ولا يتعرضوا لأخطار المجاعة، أن قدمت أقوام متعددة ، قبائل وجماعات، ومن بينها قبيلة يعقوب الذي كان من أبنائه من كان قد وصل الى مصر بالفعل. وعليه فلا يستبعد ما جاء في دائرة المعارف اليهودية وفي كثير من المصادر الإسرائيلية من أن الآباء الأول قد جاءوا الى مصر حوالي عام ١٦٠٠ ق.م أى بعد مائتين سنة من نشأة إبراهيم. وبالتالي فإن فترة الوجود "اليهودي" في مصر كانت هي فترة حكم الهكسوس فيها. ويستتبع هذا بالضرورة أيضاً أن بذوغ نجم يوسف في مصر لم يكن في فترة حكم مصري وإنما في فترة حكم (آسيوي)، مما قد يفسر السبب في تبوئه مكانة مرموقة في مصر، التي لم يثبت تاريخياً اعتدادها بالمواهب الآسيوية في مقابل الموهبة المصرية الفذة.

وإذا كانت هناك بعض الآراء ترجع الجذور الأولى للعبرانيين الى تحركات قبلية جوالة في منطقة الهلال الخصيب أو على أطرافها سعياً نحو المأكل أو حتى نحو الاستقرار ، فإن ذلك قد يدفعنا الى القول بأن تلك الفلول والبقايا الحثية، قد أعيد بناؤها أفقاً وسطحاً، جذوراً لليهود

تمسحاً بالعبرانيين، وإن لم تكن جذورهم الوحيدة. لقد زاد عددهم ،حيث انضمت اليهم جموع من القبائل الجوالة أو انضمت هذه الى تلك، مكونة معها ـ شيئاً فشيئاً ـ تجمعاً بشرياً يمثل، بمعنى ما وقدر ما، نسقاً أقوامياً جديداً. ولا بد أنهم، وقد انتشروا في ما بين النهرين وسيناء بامتداد البادية، قد تسللوا الى مصر عن طريق سلمي حيناً وحربي قتالي آخر، كما هو مشهود لدى القبائل الرحل التي تبحث عن منتجعات لها. في مثل هذه الحالة، يغدو من الصعب أن نقطع بصورة جازمة نهائية بالتاريخ الذي دخلوا فيه مصر.(٦) ومن ناحية أخرى، يبدو غير متسق مع التواريخ التي أتينا عليها القول بأن دخولهم الى مصر كان عام ١٦٥٠ق.م، كما يرى فلاندرز بتري(٧) أما رأي ديورانت وغيره فيقوم على عدم القطع النهائي بذلك. كذلك يصبح من العسير حسم الموقف في مسألة الخروج والتيه.إن ما يمكن القول به، دون تجاوز الاتساق العام للأحداث التاريخية، يقوم على أن تلك القبائل الجوالة، ذات الأنساق الاثنولوجية المتعددة والمختلطة، كانت قد وجدت نفسها ـ تحت ضرورات معيشية قاسية وقاهرة ـ أمام خيار واحد، وهو الخيار الصعب؛ ذلك التسلل السلمي البطيء أو الحربي الجزئي الى مصر، الى وادي النيل الخصب وذي السمعة الكبرى في الشرق، في حينه. بيد أن إقامتهم هناك لعلها لم تستمر طويلاً؛ إذ أنهم أخرجوا أو خرجوا من هناك، بعد أن تحولوا أو تحول معظمهم الى أعمال السخرة، مثلهم في ذلك مثل جموع غفيرة من المصريين أنفسهم. ولعلنا نتبين، هنا ثانية، اتجاهات جديدة ولحظات جديدة على صعيد مزيد من الاندماج بين الأقوام الدخيلة والمصريين، أو لنقل ـ وهذا بدوره هام على نحو خاص ـ على صعيد تعدد المصادر الذهنية الدينية (الثقافية) وربما كذلك وبدرجة ما الإثنية لتلك الأقوام (٨).

وعلى الرغم من أن صمت المصدر التوراتي عن ذكر تفصيلات الوجود "اليهودي" في مصر يترك أكثر من علامة استفهام حول السبب في ذلك، إلا أنه ـ للأسف ـ ليس أمامنا إلا المصدر التوراتي لنستقي منه أحداث هذا التاريخ، خاصة وأن تواريخ شعوب المنطقة، والتاريخ المصري بصفة خاصة ـ لم يشر لا من قريب ولا من بعيد الى هذا الوجود

٢ ـ موسى والخروج :

٢ ـ ١ قصة موسى وفقاً للرواية الدينية التوراتية :

تخبرنا التوراة في سفر الخروج أن رجلاً من بيت لاوي تزوج من عمته وأنجبت منه طفلاً جميلاً، كان هذا في الوقت الذي أصدر فيه فرعون مصر قراره بقتل كل طفل ذكر يولد للعبريين، فخبأته أمه عندها ثلاثة أشهر، وبعد ذلك وضعته في سفط من البردي والقت به على حافة النهر. ووقفت أخته من بعيد تتابع ما يمكن أن يحدث له. في تلك الأثناء نزلت إبنة فرعون لتستحم في النهر ورأت السفط والتقطته من الماء وإذا به طفل جميل الطلعة، وعرفت أنه من أبناء العبريين. وهنا تقدمت أخته منها قائلة" هل أذهب وأدعو لك إمرأة مرضعة من العبرانيات ترضع لك الولد. وذهبت وأحضرت أمه التي تسلمته ثانية لترضعه. ولما كبر أحضرته الى إبنة فرعون فصار لها إبناً ودعت إسمه موسى وقالت لأني انتشلته من الماء.

وبعد أن نشأ في بيت فرعون خرج موسى ليتفقد أحوال بني جنسه فرأي رجلاً مصرياً يضرب عبرانياً من إخوته فقتل موسى المصري ودفنه في الرمل. وفي اليوم الثاني خرج موسى كعادته، وإذا رجلان عبرانيان يختصمان، فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك، فقال من جعلك رئيساً علين، أتظن أنك يمكن أن تقتلني كما قتلت المصري بالأمس،

فخاف موسى على نفسه من افتضاح أمره لدى فرعون، وكان فرعون قد علم فعلاً بأمر موسى فطلب القبض عليه. وهنا قرر موسى الهرب من وجه فرعون، واتخذ طريقه الى سيناء الى أن استقر بأرض مديان وجلس هناك عند البئر. وكان لكاهن مديان سبع بنات جئن ليسقين غنم أبيهن ولكن الرعاة طردوهن، فتقدم موسى واستقى لهن بعد أن طرد الرعاة وعدن في هذا اليوم مبكرات وأخبرا والدهن بما حدث لهن، وما أن عرف كاهن مديان بذلك حتى أرسل في طلبه ليقيم معه. وبعد ذلك ارتضى موسى أن يعمل عنده مقابل زواجه من إبنته "صفوره"، وأنجبت له إبناً دعاه "جرشوم". وفي تلك الأثناء مات فرعون الذي كان يطالب برأس موسى. وذات يوم، وبينما كان موسى يسيرفي الصحراء ومعه غنمه وأهله، وصل الى جبل "حوريب" وهناك رأى عليقة في وسط الجبل تشتعل فيها النيران، فلما ذهب للتأكد منها، ناداه الرب(يهوه) من وسط العليقة قائلاً"لا تقرب الى هنا"،اخلع حذائك من رجليك،لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة". ثم قال "أنا الله إله أبيك إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب، فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر الى الرب (إلوهيم). وأمره الرب بعد هذا أن ينزل الى مصر ليخلص اليهود من العبودية هناك ويأتي بهم ليعبدوه. ونزل موسى الى مصر.وبعد عدة محاولات مع فرعون مصر، حلت خلالها النكبات على المصريين من "رب اليهود" تمكن موسى من الخروج باليهود من مصر، هارباً في جنح الظلام " فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس الى سكوت نحو ست مئة الف ماش من الرجال عدا الأولاد. وصعد معهم لفيف كثير من غنم وبقر ومواشي وافرة جداً. أما إقامة بني إسرائيل التي أقاموها في مصر فكانت أربعماية وثلاثين سنة (٩).

وأول ارتداد عن الديانة الموسوية تحدثنا عنه التوراة في سفر

الخروج الإصحاح الرابع عشر حين تقول " فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم ففزعوا جداً وصرخ بنو إسرائيل الى الرب وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت هنا في البرية، ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر". وهنا مد موسى يده الى البحر بأمر الرب، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء. وعبر بنو إسرائيل. وما أن بدأ المصريون في العبور وراءهم "مد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح الى حالته الدائمة. ودفع الرب المصريين في وسط البحر.. ونجا بنو إسرائيل من بطش المصريين بهم وعبروا الى صحراء سيناء." وتحدد التوراة خط السير الذي اتبعه اليهود في طريقهم هذا فتقول " ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف وخرجوا الى برية "شوب" فساروا ثلاثة أيام في البرية ولم يجدوا ماء فجاءوا الى ماره ولم يشربوا منها لأن ماءها مر، لذلك دعي إسمها ماره، فتذمر الشعب على موسى قائلين ماذا نشرب ؟ فصرخ موسى الى الرب، فأراه الرب شجرة فطرحها في الماء فصار الماء عذباً (١٠).

ولا يعطينا سفر الخروج صورة واضحة عن خط سير بني إسرائيل بعد الخروج من مصر يمكننا الاعتماد عليه، لكن العهد القديم عاد في سفر العدد(١١) ليعطينا صورة تفصيلية عن هذه المسيرة، بدءاً من رعمسيس وانتهاء بنزولهم في عربات مؤاب على أردن أريحا، والتي عبروا منها الى كنعان ، بعد وفاة موسى" .

وتخبرنا التوراة أنه في أثناء تلك المسيرة اشتكى الشعب من الجوع وكادوا يرتدون عن الديانة، فدعا موسى الرب فأنزل لهم المن والسلوى من السماء لكي يردهم الى طاعته بعد ذلك..." ثم ارتحل بنو إسرائيل من برية سين بحسب مراحلهم على موجب أمر الرب ونزلوا

في رفيديم ولم يكن ماء ليشرب الشعب. وللمرة الثالثة (خروج ١٧/٤٣) " وتذمر الشعب على موسى وقالوا لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش. فصرخ موسى الى الرب قائلاً ماذا أفعل بهذا الشعب بعد قليل يرجمونني..." والتقى بنو إسرائيل مع شعب عماليق في منطقة رفيديم وحدث أن دخلوا معاً في حروب طويلة (١٢) بعد ذلك التقى موسى بحميه كاهن مديان. وبدأ في تنظيم صفوف بني إسرائيل بناء على نصيحة حميه (١٣) .

وبعد أن صعد موسى الى الجبل لتلقي الشريعة من الرب، ثار الشعب ضد موسى وربه للمرة الرابعة وعبدوا العجل (١٤) .

"٣ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا الرجل موسى الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون انزلوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتوني بها.. وصوره بالأزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر ".

وتقول التوراة أن الرب حينما شاهد الشعب يحيد عن طريقه وعبادته ويعبد آلهة أخرى أنه قال لموسى "رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة.فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيهم(١٥). فصرخ موسى للرب بقوة عظيمة ويد شديدة.. ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك ... فندم الرب على الشر الذي قال أنه سيفعله بشعبه .

وبعد أن حطم موسى لوحي الشريعة ، صعد الى الجبل مرة أخرى ليأتي بألواح جديدة بدلاً من تلك التي كسرها في حمو غضبه. وبعد أن جلب الواح جديدة، نظم صفوف بني إسرائيل وقصر أمور العبادة

وشئون الدين في بني قبيلته لاوي، وهي القبيلة الوحيدة التي لم تشارك في عبادة العجل الذي صنعه أهارون.

وبعد عدة محاولات لدخول كنعان وفشل بني إسرائيل في قهر الشعوب المقيمة بها، مات موسى على مشارف فلسطين دون أن تطأ قدماه تلك الأرض ، ليكمل المسيرة من بعده خادمه وحامل سلاحه ، يشوع بن نون.

٢ ـ٢ قبل أن نواصل قصة موسى، كما شرحتها الهجاداه، وحتى تكتمل الصورة، لا بد وأن نقر أننا أمام قصة حيكت أحداثها بيد فنان يمتلك أدواته. وبالتالي فلا بد لنا من التعامل معها من منظور القصة وأحداث البنية الداخلية فيها، حتى يمكن أن نقف على ما هو حبكة فنية وما هو أحداث تاريخية.

تقول قصة التوراة أنه موسى بن عمران بن قاهت بن لاوي من زوجته يوخابد بنت لاوي. ولد بعد أخته مريم وأخيه هارون (١٧)

هذه البداية التي تبدأ بها القصة تبدو بداية تقليدية بحتة في الفن القصصي. فالكاتب عرفنا في سطر واحد بمكانة البطل داخل أسرته. وإن كان قد ذكر أخاه وأخته فهو أيضاً لم يذكرهما بطريقة عفوية، وإنما ذكرهما ليوحي للقارئ بأن هذه شخصيات تلعب دوراً بارزاً في القصة التي سيورد سياقها بعد ذلك.

وكانت ولادته في الوقت الذي أصدر فيه الفرعون قراراً بقتل كل طفل ذكر يولد للعبريين.

وهذه هي عقدة القصة. فالكاتب ألقى علينا حدثاً عاماً وهو الأمر الفرعوني وتركنا ننتظر ما قد يحدث بعد ذلك لهذا الطفل الذكر الوليد. وكما نرى على مدار القصة يركز الكاتب دائماً على عنصر

التشويق. فيخبرنا بما فعلته والدته بعد هذا الأمر الفرعوني "خبأته ثلاثة أشهر ولما لم تستطع أن تخبئه أكثر من ذلك وضعته في سفط من البردي والقت به على حافة النهر. ووقفت أخته من بعيد لتعرف ما سيحل به... وفي تلك الأثناء نزلت إبنة فرعون لتستحم في النهر ورأت السفط والتقطته من الماء وإذا به طفل جميل الطلعة.. وهكذا يتم إنقاذ الطفل من الموت المحقق، ويبدأ خط الصعود في القصة لينتقل بنا الكاتب الى فصل آخر من مراحل حياة هذا الوليد في قصر الملك.

هذا ولم يذكر لنا العهد القديم شيئاً عن طريقة تعليم موسى، وإنما نراه يضع موسى أمامنا بعد أن كبر ليجعله يعرف ويحب شعبه ويتألم لآلام بني جنسه من أثقالهم التي حمّلها إياهم المصريون وذلك حينما رأى رجلاً مصرياً يضرب عبرانياً من إخوانه. فقتله بلا تردد وواراه التراب. وفي اليوم الثاني خرج موسى كعادته وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك. فقال "..أتظن أنه يمكن أن تقتلني كما قتلت المصري بالأمس. فخاف موسى على نفسه من افتضاح أمره. فشرع بالهرب الى مدين، ليبدأ بذلك الفصل الثالث من القصة وهو " موسى في أرض مدين".

وحينما هبط موسى أرض مدين، رأي مشهد ظلم آخر يقع أمامه ذلك أن بنات كاهن مدين كن قد أتين للسقيا إلا أن الرعاة طردوهن . وهنا تتحرك العقدة النفسية التي يعاني منها البطل، وهي عقدة الاضطهاد. فالاضطهاد حرمه من أهله في صغره، وبالاضطهاد اضطر للهرب من مصر. وكان هروبه من مصر بداية لروح التمرد عنده، تمرده على نفسه، على موسى السلبي، لكنه بهروبه هذا لم يحل عقدته. فالهروب في حد ذاته سلبية وحاول أمام البشر للمرة الثانية ، أن يظهر موسى المتمرد، فتقدم وسقي لهن بعد أن طرد الرعاة، وعدن في هذا

اليوم مبكرات.

ويبدو أن الكتاب في ذاك الوقت كانوا يعدمون الوسائل التي يتخلص بها أبطالهم من المواقف التي يتعرضون لها. فنفس الوسيلة التي استخدمها كاتب قصة يعقوب، استخدمها أيضاً كاتب قصة موسى. وتماماً مثلما حدث مع يعقوب (في المنام) حدث مع موسى (في الجبل). فكلاهما شخصية خائفة، هاربة، تريد الركون الى الاطمئنان . فيعقوب يطمئن نفسه في الحلم وموسى طمأن نفسه في السراب. يعقوب كان يريد أن يثبت لنفسه أنه لم يخطيء وأثبت ذلك في عقله الباطن، وموسى يريد نفس الشيء ويسعى الى الأمان والى قوة عليا تمنحه الراحة النفسية وأثبت ذلك أيضاً في عقله الباطن.

" لا تقرب الى هنا. اخلع حذائك من رجليك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة..." أنا الله إله أبيك إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب، فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر الى الرب (خروج ٢/٢١).

وأمره الرب بعد ذلك أن ينزل الى مصر ليخلص "العبرانيين" من العبودية هناك ويأتي بهم ليعبدوه.

وهذا الأمر بالنزول الى مصر،يعتبر في القصة، أمراً من مستوى الوعي الى مستوى اللاوعي بالتخلص من السلبية.

وبالتالي فإن شخصية موسى ـ كما رسمها مدون التوراة ـ تعيش داخلياً في صراع بين شخصيتين، شخصية موسى السلبي وموسى الذي ينشد الإيجابية.

وينتهي الفصل الثالث، ليبدأ الفصل الرابع بشخصية مترددة بين السلب والإيجاب. ففي البداية يرفض النزول إلا بعد التأكد من أن فرعون الذي يطلب رأسه قد مات وأن أخاه سيؤازره في مهمته.

وفي الفصل الرابع يبدأ الصراع. لقد بدأ موسى يتجرد من

الشخصية السلبية ليدخل بالتدريج في الشخصية الإيجابية. وفي نهاية هذا الفصل تنتصر الشخصية الثانية على الشخصية الأولى ويخرج موسى "ببني إسرائيل" من مصر، ليبدأ الفصل الخامس "موسى وقومه في الصحراء".وهناك يكون موسى قد تحرر كلية من الشخصية السلبية وحينما شق موسى البحر بعصاه ليعبر بنو إسرائيل ويغرق المصريين في البحر، إنما هو عبور نحو الإيجابية.

وفي الصحراء، قاد موسى بني إسرائيل وأوجد لهم في أرض يشيمون غذاء وماء يكفي احتياجاتهم. لكنهم حينما وصلوا الى رفيديم في مواجهة صحراء سيناء وخرج عليهم عدو جبار يدعى عماليق، ولأن السن قد تقدمت بموسى، فقد طلب الى خادمه يشوع بن نون أن يختار له من إسرائيل رجالاً أشداء قادرين على القتال. بينما وقف موسى على قمة الجبل وحينما كان يرفع يده وينزلها كان الرب يساعد رجاله في الحرب حتى هزموا عماليق (١٨).

ووفاة موسى فوق الجبل دون أن تطأ قدماه أرض فلسطين تعني لدى الكاتب أن موسى قد وصل الى الهدف ورآه، لقد تحرر موسى ورأى ثمار تحرره أمام عينيه. ولكن الكاتب حينما أماته فوق الجبل، فإنه عني بذلك أنه مات وهو في القمة. قمة انتصاره على نفسه. والجبل في هذه القصة هو حياة موسى ، بدأها من السفح وأنهاها فوق القمة. لقد وصل الى ماكانت تصبو نفسه اليه وهو التحرر من العبودية. إنها ليست العبودية في مصر، وإنما هي عبودية النفس. عبوديته للشخصية السلبية التي تجرد منها وانطلق نحو إيجابيته، الى القمة، لتنتهي حياته هناك وهو فوق القمة.

٣- إذا كان هذا هو مفهوم القصة كما جاءت في التوراة وفقاً

لمفاهيم التحليل الأدبي، فإن المتوارث الشعبي اليهودي لم يترك هذه القصة تمر دون أن يضيف اليها أيضاً من عندياته بعد أن لمس فيها كثير من الخلل وكثير من الخيال الذي يمكن أن يرفضه العقل والمنطق في الأجيال التي تلت موسى. لذا فقد بذلت الهجاداه جهداً بالغاً في محاولة رسم صورة متكاملة لشخصية موسى، في محاولة لتغطية جوانب النقص التي لم يستطع كاتب سفر الخروج أن يتلافاها أو ربما - وهذا هو الأرجح - أن أكثر من كاتب اشترك في تدوين أحداث سفر الخروج، فبدت الصورة أمامنا مهزوزة وغير متكاملة .

٣- ١ تعتبر قصة موسى، كما جاءت في الهجاداه، من أكثر قصص الشخصيات تكاملاً من حيث البناء. فلا تكاد توجد جزئية صغيرة في هذه الشخصية لم تحاول الهجاداه شرحها وتفسيرها والإضافة اليها.

"حملت المرأة وولدت إبناً ورأت أنه حسن وخبأته ثلاثة أشهر". تقول الهجاداه في هذه النقطة أن مريم أخت موسى تنبأت قبل الولادة قائلة: إن أمي سوف تلد ولداً سيساعد إسرائيل.[١٩] . وحينما ولد موسى ورأت أمه أنه مختلف عن باقي الأولاد في جمال طلعته وبهائه، ازداد إيمانها بنبوءة إبنتها، وبأن خلاص إسرائيل سيكون على يديه، لذا خبأته خوفاً عليه من بطش الفرعون به، وحتى يمكن أن يشب ليحقق النبوءة[٢٠].

.. ومن هذا المنطلق، يمكننا القول أن الجو العام في" الجيتو الإسرائيلي" في ذلك الوقت - إن جاز لنا هذا التعبير - كان مليئاً بالأمل في أن يولد لإسرائيل في أحد الأيام طفلاً يخلصهم من عبوديتهم. وكان الاستمرار المنطقي لإنقاذ الطفل هو خديعة سفط البردي، ذلك لأن الأم تمنت أن تحدث معجزة لمن يعتقدون أنه سيكون "مخلص بني إسرائيل".

ومن المنطقي أيضاً مراقبة مريم للسفط مكن بعيد حتى تعرف ما سيحدث له. وتوضح لنا الهجاداه الأساس الذي استندت اليه مريم وتجرأت واقترحت على إبنة فرعون أن تستدعي لها مرضعة من العبرانيات، فتقول " قدموا اليه كل المرضعات المصريات ولكنه رفضهن جميعاً"، وعلى حد قول الهجاداه، كانت تكمن في هذا الرفض العناية الإلهية حتى لا يرضع شيئاً نجساً(٢١).

ونلاحظ هنا أن الهجاداه تحاول أن تلقي الضوء على مدى الاستعداد النفسي لدى موسى للقيام بهذه المهمة الكبيرة ، فتقول:

" خرج موسى من بيت والده وعمره إثنى عشر عاماً. وتشرح الهجاداه السبب في ذلك بقولها أن موسى لم يرضع فقط آلام شعبه مع لبن أمه، بل رضع أيضاً أغاني المهد المليئة بالحزن والآمال معاً. وفي تحديد الثانية عشر سناً لخروج موسى من بيئته العبرية ودخوله الى قصر فرعون، يعطينا إيحاء بأنه استوعب كل الآمال والآلام اليهودية طوال تلك الفترة، حيث كان قد نضج فكرياً وبدأ يعي الأحداث.وهذا ـ في رأي الهجاداه ـ هو ما أعده لمهامه المختلفة التي كلف بها"المخلص ـ الزعيم ـ القاضي ـ المعلم ـ المربي ـ النبي ". وكانت الشتلات التي زرعتها أمه في نفسه عن وضعها وعن أحوال العبرانيين قد استوعبت تماماً لديه. وحينما نضجت " خرج الى إخوانه ورأى معاناتهم(٢٢).

وتضعنا الهجاداه أمام ماهية هذه النظرة بما فيها من معاناة، وهي ليست مجرد نظرة من خلال العرض وإنما هي نظرة متأملة مصحوبة باشتراكه في الوضع التراجيدي لإخوته. وليس هذا الاشتراك إشتراكاً سلبياً فقط، وإنما نحن نراه كان يعطي كتفه ويساعد كل واحد منهم، "رأي موسى حمل كبير على صغير وحمل شاب على عجوز وحمل رجل على إمرأة.. فكان يخلع عباءته ويذهب ليحمل عنهم أحمالهم ويتظاهر

وكأنه يساعد فرعون.

وتشير الهجاداه الى شيء هام جداً، وهو أن موسى لم يكتف بمساعداته الأرضية للإسرائيليين، وإنما سأل الله كيف يمكنه أن يساعد المعذبين في الأرض، فأوجد لهم يوم السبت راحة من كل أسبوع. وتشير الهجاداه الى أن هذا التحسن في وضعية "الإسرائيليين"قد جاء بموافقة فرعون بأن أوضح له موسى أنه من صالحه وصالح مصر أن يحصل "الإسرائيليين"على يوم راحة، ذلك لأنه بدون يوم راحة لن يستطيع العبيد الاستمرار والصمود لفترة طويلة في تحمل أعمالهم الشاقة. ووافقه فرعون على ذلك ومنحهم يوم راحة.(٢٣)

وترى الهجاداه أن هذا هو أول عمل اجتماعي كبير قام به موسى القاضي. مع ملاحظة أن وضع السبت في الوصايا العشر كان له مبرر ديني بحت وليس اجتماعي، كما تشير الهجاداه الى ذلك.وربما كان استناد الهجاداه في ذلك الى الصيغة التي ورد بها ذكر السبت في سفر التثنية "لكي يستريح عبدك وأمتك مثلك. واذكر أنك كنت عبداً في أرض مصر"(٢٤). بينما جاء السبب في ذلك في سفر الخروج"أنه في ستة أيام خلق الله السماء والأرض . واستراح في اليوم السابع".

وتلتقط الهجاداه قصة ضرب موسى للرجل المصري وقتله وتلحظ ما يمكن أن تحتوي عليه هذه الفقرة من معان لا تتفق والنبوة، فتحاول تقديم تفسير لها. فتقول أن موسى احتكم الى ملكي الخدمة وسألهما: أيجب قتل هذا المصري، فأجاباه: نعم واجب. ورأى أنه ليس هناك شخص تعني أنه ليس هناك من سيدافع عن المصري، فقرر قتله. وتضيف أن موسى لم يقتل المصري في ثورة غضب، وبدون تحكيم دقيق للعقل، بل انه احتكم أولاً الى الملائكة ودرس الأمر جيداً؛ وبعد أن تأكد من أن هذا المجرم ليس له حق، ذلك لأنه يجعل حياة الأبرياء بائسة ،

فنفذ موسى الحكم الإلهي فيه[٢٥].

وقد أجبر هذا العمل الجريء موسى على الهروب من مصر، لأن فرعون بدأ يرى فيه عدواً وطالب برأسه. وجاء هروب موسى الى مدين إنقاذاً لحياته، وربما أيضاً إنقاذاً لرسالته كمخلص. ويمكن القول أنه لو كان قد بقي في مصر لكان قد تخلى عن رسالته الكبرى وتفرغ للأعمال الصغيرة التي قد لا تؤدي الى خلاص كل الإسرائيليين. وتكاد تكون السنوات التي قضاها موسى خارج مصر غامضة في قصة التوراة، لذا ركزت الهجاداه عليها في شرح أحداثها، فتقول أن موسى كان يرعى غنم حميه يثرو على مدى أربعين عاماً، وربما كانت تعني بذلك نفس عدد السنوات التي رعى فيها شعبه في الصحراء بعد الخروج. وتعتبر السنوات التي قضاها في مدين سنوات اختبار له، حيث أبدى فيها صبراً كبيراً في رعيه للغنم في تلك الفترة، مما يعد إعداداً له لرعي غنم الله، أي جماعة بني إسرائيل. وتقول أيضاً أنه ذات مرة هرب منه جدي، فأخذ موسى في مطاردته الى أن أمسك به، وهو لم يفعل ذلك إلا إحساساً منه بالمسئولية والإخلاص تجاه صاحب القطيع الذي اعتمد عليه وأيضاً من رحمته على الجدي حتى لا يفترسه وحش كاسر من وحوش الصحراء. وحينما رأى موسى أن الجدي وقف ليشرب من بركة ماء، امتلأ موسى رحمة وقال : لم أكن أعرف أنك عطشان وأنك كنت تجري بسبب العطش. فحمل الجدي على كتفه وعاد به الى مكان الرعي. وبذلك قدم اعتذاره للجدي الظمآن حيث كان موسى كبيراً في أخلاقياته[٢٦].

ومع شق البحر انتهت مهمة موسى المخلص وبدأت مهمة موسى الزعيم. وهنا تقول الهجاداه أن بني إسرائيل فور عبورهم البحر الأحمر رفضوا التحرك من على شاطيء البحر، وتعلل ذلك بقولها أن البحر كان يلفظ أحجاراً كريمة وياقوت كان المصريون يستخدمونها في

تزيين خيولهم، وكان على موسى أن يحركهم من هذه الوقفة. وهنا تؤكد الهجاداه أن قوة شخصية موسى وقدرته على السيطرة هي العامل الرئيسي لدفعهم الى الحركة؛ وطوال مسيرتهم بعد ذلك كان لهذه الشخصية تاثير السحر على هذه الجموع المهاجرة(٢٧) .

وتحاول الهجاداه أيضاً أن تنفي عن "يهوه" وعن موسى تهمة أنه حث بني إسرائيل على سلب المصريين ليلة الخروج، فتقول أن هذا لم يكن سلباً بقدر ما كان جباية للدين الكبير على المصريين للإسرائيليين، نظير العبودية طوال فترة وجودهم في مصر. وتضيف أنه أثناء قيام جموع "الإسرائيلون"بجباية هذا الدين من المصريين لم يكن موسى معهم في هذا، بل كان مشغولاً في عمل آخر أهم وأكبر من ذلك وهو البحث عن رفات يوسف بين المقابر المصرية لينقلها معهم في مسيرتهم تنفيذاً لوصية يوسف(٢٨).

ثم يلتقط كاتب الهجاداه فقرة ذات مدلول خطير في سفر الخروج، محاولاً إيجاد تبرير لها، وهي تلك التي تتحدث عن بنات كاهن مديان حينما قلن لأبيهن "رجل مصري سقي لنا".

فتقول:" هل كان موسى مصرياً فعلاً؟ لكي تعلن "رجل مصري". إن قولهن"رجل مصري"يعني في رأي الهجاداه أن موسى لم يكن معروفاً لديهن حتى هذه اللحظة؛ وإنما من مظهره العام ومن ملابسه المصرية ، أخذن إنطباعاً بأنه مصري. وهناك تفسير أكثر طرافة من هذا يقول أن البنات قلن رجل مصري ولم يعنين بذلك موسى وأنما ذلك الرجل الذي قتله موسى وأجبره على الهروب، لولاه لما تواجد موسى في هذا المكان ولما سقي لهن(٢٩).

وهكذا حاولت الهجاداه - من جانبها - سد ثغرات في القصة التوراتية، لكنها في الحقيقة لم تفعل أكثر من أنها أضافت أبعاداً جديدة

الى التصوير التوراتي للشخصية، زاد من تعقيد الصورة. فإضافات الهجاداه لا تخرج عن كونها إضافات تراثية ذات بعد مثيولوجي، الأمر الذي لا يخدم القضية التاريخية بأي حال، ويضاف الى ذلك أن النظرة الهجادية جاءت أيضاً أحادية الرؤية، فأضفت مزيداً من الغموض على القصة.

٣ ـ ٢ الآراء العلمية في موسى والخروج :

بات من الواضح الآن أن شخصية موسى تعتبر من أكبر وأعظم الشخصيات في التاريخ الإسرائيلي، إن لم تكن أهمها على الإطلاق. فموسى هو أول من جعل للإسرائيليين كيان سياسي،كما أنه هو الذي منحهم الشريعة التي منحتهم بدورها الإسم والبقاء. وكان لهذه الشخصية الفذة أثرها البالغ في شغل الباحثين المحدثين في البحث عن كنه هذه الشخصية ومحاولة الوصول الى إثبات وجودها تاريخياً، وتنقيتها من الشوائب "غير التاريخية" التي الحقت بها.

وأول ما اصطدم به البحث العلمي في دراسته للرواية التوراتية هو احتوائها على أحداث خارقة للعادة ، يستحيل حدوثها تاريخياً.

فعلى سبيل المثال نجد أن قصة ميلاد موسى وما تعرض له من أخطار لحظة ولادته، أثارت اهتمام كثير من العلماء. منهم مثلاً جيمس فريزر(٢٩)الذي يقول"أنه على الرغم من خلو قصة ميلاد موسى وترعرعه في كنف أمه، ثم في كنف إبنة فرعون، من العناصر الخارقة للعادة، إلا أنها احتوت على ملامح يمكننا أن ننسبها ـ بعد شيء من التدبر ـ الى مجال الفولكلور أكثر من نسبتها للتاريخ.

ويبدو أن القاص لكي يزخرف معجزات حياة الطفل رغب في أن يحكي كيف تعرض الرجل العظيم للخطر ساعة ميلاده. وكيف أن الطفل

لم ينقذ من الموت المحقق إلا من خلال حادثة تبدو للعين المجردة أنها حدثت صدفة. ويورد فريزر أمثلة من الفولكلور العالمي شديدة الشبه بهذه الحادثة في قصة مؤسس روما وإرسال العناية الإلهية لذئبة وطائر نقار الخشب لإنقاذه من الهلاك..وكذلك قصة سرجون الأكادي(٢٦٠٠ ق.م.) وقصة ملك جيلجيت (وهي بلدة تقع على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر في قلب جبال الهيمالايا).

ويقول فريزر في تعليقه على حادثة القاء موسى في البحر، أنه إذا تذكرنا أن عمران والد موسى كان متزوجاً من عمته، وأن موسى كان ثمرة هذا الزواج، وإذا تذكرنا أيضاً أن القانون المتأخر قد أبطل مثل هذا الزواج واعتبره زنا، فربما ساورنا الشك في أن أم موسى في الشكل الأصلي للحكاية كان يدفعها سبب خاص في طرح إبنها في النهر، بعيداً عن رواية قتل فرعون لكل طفل ذكر يولد للعبريين. ويضيف فريزر أنه كانت هناك عادة شائعة لدى الشعوب القديمة الأخرى، بأن تطرح الطفل الوليد في الماء لتقرر ما إذا كان طفلاً شرعياً أم لا. ومن ثم تقرر الإبقاء عليه أو إعدامه. وربما سمعت أم موسى عن هذه التقاليد ، وبإحساسها الداخلي بأنها قد تزوجت زواج باطل أرادت أن تتأكد من صحة نسب الطفل جرياً على هذه العادة القديمة.

أما فيما يتعلق باسم موسى نفسه، فقد حظي باهتمام بالغ من العلماء فنرى ول ديورانت في كتابه"قصة الحضارة"[٣٠] يقول أن إسم موسى إسم مصري وليس يهودي. ويسير معه على نفس النهج عالم النفس بني إسرائيلي الشهير سيجمند فرويد، في كتابه "موسى والتوحيد"[٣١]، بل إنه يذهب الى أبعد من الإشارة الى الإسم ، فيقول أن موسى نفسه كان مصرياً وأن إسمه باللغة العبرية على صيغة إسم فاعل من الفعل "ماشاه" بمعنى انتشل.والصيغة كما وردت في سفر الخروج

تعني "المنتشل من الماء " بينما تشير القصة الى أنه أُنتشل، أي إسم مفعول وليس إسم فاعل. ويخلص بهذا الى أن الإسم ليس عبريا بل هو إسم مصري مشتق من كلمة (مس) في المصرية القديمة بمعنى طفل ويدلل على ذلك بقوله وورود أسماء كثيرة في المصرية تحمل هذا المقطع مثل "أح - مس (أي الإله أح رزق طفلاً أو تحت مس أي الإله تحت رزق طفلاً) ورع مس أي الإله رع رزق طفلاً.أي أن هذا الطفل هو إبن الإله. ويضيف أنه بمرور الزمن ضاع المقطع الأول من الإسم وبقيت الصفة وهي (مس) فقط التي حورت فيما بعد الى موسى في صيغتها العبرية.

وإن كان سيد القمني(٣٢)يختلف مع هذا التحليل بقوله"إن المسألة لا تحتاج الى كل هذه التخريجات، لأن(الماء) باللسان المصري القديم (مو) وبذات اللسان (سا) تعني (إبن). وبالتالي فالإسم هنا ملصق من مقطعين ويفيد معنى (إبن الماء) وهو إسم يتناسب مع الموقف، حيث وجدته ابنة فرعون في سفطه على سطح الماء، ولم تجد إسماً يناسبه - وهي لا تعلم له نسباً - سوى تلك التسمية البليغة، وهي بدورها تسمية مصرية قحة وليس لدينا ما نعلق به على "تخريج" القمني سوى أن إسم موسى التوراتي "موشيه" وليس موسى كما يكتب وينطق في العربية. ولا نعتقد أن المصريين القدماء كانوا يعرفون العربية، أو أن هناك علاقات لغوية بين العربية والمصرية القديمة بفروعها المختلفة.وعلى أية حال ، لنا عودة أخرى الى هذا الموضوع لاحقاً.

نعود الى فرويد، ونقول أن ما دفعه الى هذا التحليل هو المقارنة التي عقدها بين الديانة الإخناتونية (الأتونية) والديانة الموسوية. ويمكن أن نلخص هذه المقارنة في النقاط التالية :

١- استخدام لفظ أدوناي كاصطلاح عن الإله وهو تحريف للكلمة المصرية (آتون) ، وهو إسم الإله الذي نادى به إخناتون.

٢- لوحظ أن المعتقد بني إسرائيلي لا يتحدث عن حياة ما بعد الموت ولا يعرف شيئاً عن البعث. وهذا هو نفس ما ذهبت اليه العقيدة الأتونية التي خالفت عقيدة أوزوريس التي تؤمن بالبعث في عالم آخر.

٣- التشابه بين الديانتين في تحريم تصوير الإله أو رسم أو نحت أي تمثال له.

٤- تدرب موسى على أساليب إخناتون، فألزم قومه بطاعته مثلما تطيع الرعية الملك وفرض عليهم مبادئه عنوة.

٥- استعارت الديانة الموسوية فكرة الختان من المصريين، حيث أنها عادة مصرية قديمة.ولتأصيل هذه العادة في الديانة الموسوية حرّف مدونوا التوراه هذه العادة وجعلوها ترجع في الزمن الى إبراهيم، بينما هي في الحقيقة، كما يقول فرويد، تعلمها بنو إسرائيل من المصريين.

٦- حرّمت الديانة الموسوية أكل لحم الخنزير، ويرى فرويد أن هذا التحريم مقتبس من المصريين، استناداً الى إسطورة مصرية قديمة تقول أن رب الشر"ست"قد تنكر في شكل خنزير وهاجم الرب"حور". ولما كانت الشعوب الأخرى تأكل لحم الخنزير، فقد امتنع المصريون، نساءاً ورجالاً، عن مصافحة الأجانب أو تقبيلهم أو استخدام أدوات مطبخهم خشية أن تكون قد تلوثت بلحم الخنزير.

ولقد لاحظ فرويد عدة ملاحظات حول قصة موسى جديرة بالتوقف عندها والإشارة اليها، لعل أهمها قوله أن موسى لقي نفس مصير إخناتون. إذ عصي بنو إسرائيل موسى وارتدوا عن عقيدته، مثلما ارتد المصريون عن مباديء إخناتون وتعتبر سنوات التيه رمزاً لثورات أتباع موسى عليه. وقد بلغت ذروتها في عبادة العجل الذهبي وفي كسر موسى للألواح إعلاناً عن سخطه على بني إسرائيل. وكذلك إشارته الى

احتمال أن تكون الطبقة المثقفة الموسوية قد تكونت أصلاً من بقايا أتباع مذهب إخناتون ممن تبعوا موسى . ومن بني إسرائيل الذين تشربوا الثقافة المصرية المتأثرة بالأتونية. وقد أصبحوا جميعاً - في رأى فرويد - يعرفون باسم اللاويين، وكانوا أقرب أتباع موسى الى قلبه.وهم الذين حملوا مشعل الثقافة "الإسرائيلية/ بني إسرائيلية" وعلموا قومهم القراءة والكتابة.

بل ويذهب فرويد الى أبعد من ذلك حينما يقول أن موسى كان أميراً مصرياً وأنه تولى حكم منطقة جاسان من قبل الفرعون إخناتون. وبعد موته أراد موسى أن يخرج بكل المصريين الذين آمنوا به ومعهم كل الغرباء والأجانب والعبيد الذين يعذبون في مصر. وكان هدفه هو أن ينظم في كنعان - المستعمرة الفرعونية القديمة - جيشاً يعود به لفتح مصر ونشر الوحدانية فيها بعد أن كانت قد انهارت على إثر موت إخناتون. ويرى فرويد أيضاً أن السبعين رجلاً الذين تقول عنهم التوراة في سفر الخروج أن موسى اختارهم لقيادة هذه الجموع وحكمها وتنظيمها سياسياً وعسكرياً واجتماعياً أثناء هذه الهجرة كانوا أيضاً من أعيان المصريين.

ويوافق فرويد في هذه النظرة أيضاً "جارستانج" عضو بعثة مارستن التابعة لجامعة ليفربول، الذي يقول أنه اكتشف في مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجبته الأميرة حتشبسوت عام ١٥٢٧ ق.م. وأنه تربى في بلاطها بين حاشيتها وأنه فر من مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث [٣٣].

وربما كان ما شجع فرويد على هذا الاجتهاد الشخصي في تفسير ظاهرة تاريخية مثل موسى، هو امتزاج عناصر البطولة الأسطورية الفولكلورية في الصورة النهائية التي وصلتنا عنه، وانعدام أية وثيقة

تاريخية معاصرة له تحدثنا عن وقائعه في مصر. وهذه العناصر البطولية الممتزجة التي يشير اليها فرويد تأتي من منبعين مختلفين. أولهما المنبع المصري الذي يشترط في البطل الأسطوري أن يكون ربيب قصور، ناشئاً في أسرة ثرية، بينما يشترط الذوق السامي بني إسرائيلي أن يكون البطل سليل أسرة متواضعة وأن يكون قد ولد في ظروف عصيبة محفوفة بالمخاطر. وهنا يمتزج الاتجاهان فيولد موسى من قوم ضعفاء مضطهدين، ومن أب لا يكاد يكون معروفاً. ولكن تتبناه إبنة فرعون ويحظى بتربية ملكية في القصور. وأيضاً فإن البطل الأسطوري بالنسبة للساميين مولعاً بالطبيعة، بينما يكون البطل لدى المصريين قوي البنية جامعاً لمظاهر الفتوة، ويعيش في وسط المجتمع ويبعث في قلوب الناس الاحترام إن كانوا من ذويه، والرعب إن كانوا من أعدائه (٣٤).

وإذا كان هناك إجماع بين العلماء على الاعتقاد بمصرية موسى أو على الأقل مصرية الإسم، إلا أن كمال الصليبي له رأي آخر يتلخص في القول بأن التفسير الذي تعطيه التوراة لإسم موسى هو الأقرب الى الصحة، حيث يعتقد أن موشيه هو إسم الفاعل من صيغة المبني للمعلوم من الفعل (ماشاه) أى المنتشل أو "المخلص". والأرجح أن هذا لم يكن إسم الرجل الذي "أنقذ" أو "خلص" بني إسرائيل العبرانيين، بل كان لقبه. أى أن موسى (التاريخي) كان له إسم آخر غير (موسى) هذا. لكن اللقب غلب على إسمه، فصار يعرف باللقب دون الإسم.

٣ ـ ٢ ـ ١ الخروج من مصر والرأي العلمي :

لقد أثارت قصة خروج بني إسرائيل من مصر جدلاً عنيفاً بين العلماء المحدثين، وطرحت تساؤلات محيرة حول هذه القصة. ويكاد يجمع

العلماء على أن الخيال لعب دوراً بارزاً فيها، خاصة وأن الكشوف الأثرية في مصر لم تثبت حتى الآن أن هناك أي فرعون قد غرق في مياه البحر في تعقبه لأي قوم من الغزاة. ويضيف العلماء أيضاً أنه حتى لو سلمنا جدلاً أن بني إسرائيل خرجوا من مصر بهذه الصورة الجماعية، فإنه يجب البحث عن التاريخ الحقيقي الذي حدث فيه هذا الخروج، وفي عصر أى من الأسرات المصرية حدث ذلك.

٣ ـ ٢ ـ ٢ رأى فرويد :

يرى فرويد أن الخروج من مصر حدث في الفترة بين ١٣٥٨ ـ ١٣٥٠ ق.م. أي خلال فترة السنوات الثماني التي تلت وفاة إخناتون وسبقت استيلاء حور محب على السلطة (وهذا الرأي يجعل الخروج يقع مبكراً بمقدار قرن عما ذهب اليه معظم المؤرخين الذين يجعلونه أثناء حكم الأسرة التاسعة عشر، أي في عهد مرنفتاح). ويرى فرويد أن الهدف من الخروج كان أرض كنعان.

أما عن تحديد المكان الذي خرج منه بني إسرائيل من مصر، فيقول فرويد أن بني إسرائيل خرجوا من منطقة رأس خليج السويس ـ وهي المنطقة التي تعرف الآن باسم منطقة الشط. ووفقاً لهذه النظرية، فإنه لم تكن هناك حاجة لاستخدام عصا موسى لشق البحر حتى يتمكن الإسرائيليون من العبور، إذ يقول أن هذه المنطقة باعتبارها منطقة رأس الخليج يمكن أن تتعرض لظاهرة المد والجزر. وبما أن بني إسرائيل ـ وفقاً لما جاء في سفر الخروج ـ قد خرجوا من مصر ليلاً، بينما غرق فرعون وجنوده مع انبلاج الصبح. فإن الخروج قد تم في أثناء الجزر، حيث كانت المياه منحسرة عن الأرض ومع إشراقة الصبح عاد المد مرة أخرى فغطى المنطقة بالمياه. وبهذا فإذا كان الخروج قد تم فعلاً، فلا بد أنه

تم في الفترة الواقعة ما بين ١٠ ـ١٧ في الشهر العربي، حيث يبلغ تأثير القمر على المد والاجزر أقصى مداه في هذه الفترة.

٣ ـ ٢ـ ٣ رأي بروبير :

يرى بروبير أن عبور البحر الأحمر وخروج "بني إسرائيل" من مصر قد تم في عصر مرنفتاح ابن رمسيس الثاني، وذلك على أساس أن رمسيس الثاني كان هو الفرعون القهار. ويرى أن عبور البحر لم يتم في منطقة البحر الأحمر، حيث أن نسبة ملوحة البحر لا تسمح بإنبات البوص، وأن المقصود بتعبير "نهر سوف" الوارد في سفر الخروج أى "بحر الخيرزان" أو البوص، لا يمكن أن يكون هو البحر الأحمر. وبالتالي فلا بد من تحديد مكان أخر لوقوع تلك المعجزة تكون به مستنقعات ويكون قريباً من منطقة السويس قدر الإمكان .

ويرى بروبير بعد أن اطلع علي الخريطة الموجودة في "الجران باليه" أنها تحدد منطقة الخروج، وهي "الشلوفة"، التي تقع على بعد١٢كم ونصف تقريباً شمال السويس وعلي بعد ١٢كم جنوب البحيرات المرة.

وبعد دراسة مستفيضة لطبيعة المنطقة والتاريخ الفرعوني يرى برنار بروبير أن هذه المعجزة وقعت في العام الخامس من حكم مرنفتاح وإبن رمسيس الثاني الذي لم يدم حكمه إلا فيما بين عامي ١٢٣٥و ١٢٢٥ ق.م. (أي عشر سنوات) ويدعم نظريته هذه بعدة أسباب منها أن فرعون القهار الذي أجبر بني إسرائيل على عمل قوالب الطوب بلا تبن من أجل إقامة المعابد والقصور والقلاع في قنطير وتنيس والتل الكبير هو رمسيس الثاني. ومن "أجبرهم" على الخروج من مصر كان مرنفتاح . ويضيف بروبير أنه عندما نادى موسى بجمع "الشعب"، بني إسرائيل في أرض جوشن (جاسان)،وهي المنطقة الواقعة بين تنيس وبلبيس

والتل الكبير ...تنفيذاً للموافقة المنتزعة بصعوبة والتي تسمح "لبني إسرائيل" بإقامة شعائرهم "العبرانية" بعيداً عن تجمعات المصريين. وعاد أولاد (إبراهيم) الى الأبيار السبعة، وبعد سبعة أيام من الاحتفالات غادروا سكوت وبدأوا المسيرة. ويحدد سكوت بأنها منطقة تقع قرب هيراكيلوس على ساحل بحيرة المنزلة وفي منتصف الطريق الى تنيس وبلوز أي على بعد ٣٢كم من تنيس.

وكانت أول مرحلة بعد ٢٥كم. قد أدت ببني إسرائيل الى إيتام، والتي يحدد أنها تقع على الطرف الشمالي للبحيرة الكبرى[٣٥].

وكان يفصل بين سكوت وخليج السويس مسافة ١٠٠كم. وقد اجتازها "بنو إسرائيل" في عشرة أيام وعلى أربعة مراحل، تتراوح كل مرحلة منها بين ٢٢ :٢٨ كم، بما في ذلك أيام الراحات. وهذه الوقفات هي : سكوت - إيتام - ٢٥كم. إيتام - فايد ٢٨كم. فايد - المجدل ٢٣ كم. مجدل - بعل صفون وشلوفة ٢٢كم.(يلاحظ أن المسافة التي تفصل بين مجدل والسويس٢٢كم،في المنطقة المنزرعة والتي أطلقت عليها القديسة سلفيا إسم أبيوليوم هي منطقة بحايروت المذكورة في التوراة[٣٦]. ويذهب بروبير أيضاً الى تحديد مكان العبور في المنطقة المتاخمة للشلوفة حيث يقول"وهنا في الواقع تمتد منطقة واسعة من المستنقعات والأراضي التي يغمرها الخيرزان والبوص .. وأن "بني إسرائيل" قد اصطدموا بمانع لا يمكن تخطيه إذ كانوا سيغرقون في الوحل ما لم تتدخل الظروف الفريدة وتقع المعجزة. وبالتالي فقد وصل "شعب إسرائيل" في اليوم الخامس من شهر يابني(مايو) الى جنوب البحيرات المرة الصغيرة. وهناك لاحقه الجيش المصري، في الوقت الذي هبت فيه إحدى العواصف، وهو أمر مألوف في ذلك الفصل من السنة، محدثة بعض التغييرات في طبيعة المنطقة.. وفي اليوم التاسع عشر من طرد

"بني إسرائيل"، حدث هذا التغيير المذهل في طبيعة المنطقة، والذي استفاد منه الهاربون ليعبروا من الضفة الإفريقية الى الضفة الآسيوية. ولا بد أن حرارة الجو كانت شديدة الارتفاع، وعندما هبطت الحرارة بعد غروب الشمس أحدثت جذباً للهواء القادم من الشرق، مما ولد الهبوب الرملية. كما أن ظاهرة امتصاص مياه الخليج قد جففت جزءاً من أرض الخليج وصل حتى الشلوفة. وبالتالي تمكن الهاربون من العبور، وعندما سكتت الطبيعة مرة أخرى، وعادت المياه الى وضعها الطبيعي في الأراضي المجففة، غرق جنود فرعون الذين كانوا في مطاردتهم.

٣ ـ٢ ـ٤ ويعترض أندريه باشان على هذه النظرية يطرح نظرية جديدة للعبور من مصرتتعارض مع ما ذهب اليه بروبير، حيث يرى باشان أن تحديد خروج بني إسرائيل زمنياً مسألة تتعلق أساساً بالتقويم. وبالتالي فلا بد من أن نحدد أولاً أي التقاويم تنتمي اليها التورايخ الواردة في التوراة، أو في غيرها من النصوص، حيث أن معظم الأثاريين لا يعرفون إلا التقويم الشمسي الطيبي، في حين كانت توجد ستة تقاويم مستخدمة في مصر القديمة آنذاك.

بينما يعترض آخرون على القول بأن فرعون الخروج هو مرنفتاح، اعتماداً على أن مرنفتاح لم يمت غرقاً وكذلك أيضاً أمينوفيس الثاني، لأن مومياءهما قد دفنت في وادي الملوك، كما أن مرنفتاح عاش عدة سنوات بعد التاريخ الذي يفترضه بروبير للخروج.

٣ ـ ٢ ـ ٥ رأي طيب تيزيني :

لقد خرج بنو إسرائيل العبرانيون أو أخرجوا من مصر ـ وهذا هو

المحتمل الراجح - متجهين نحو المنطقة المجاورة الخصبة عموماً، فلسطين، البلد الذي "يسيل فيه اللبن والعسل". ويبدو أنهم وجدوا أنفسهم، في طريقهم الطويل المنهك، أمام ضرورات اقتصادية جغرافية خطرة حياتياً، تمثلت بفقدانهم أهم أمرين في رحلتهم القسرية هذه، وهما مصادر العيش والأمن؛ ولم يكن ذلك وضعاً غير مألوف في منطقة صحراوية تحيط بها المخاطر البشرية والمناخية. وإذا كان لنا أن نشك شكاً قوياً في قصة" الإربعين عاماً"، أي في هذه العقود الأربعة الطويلة بالنسبة الى تلك الرحلة، فإن أمراً آخر يبدو،في هذا الإطار، مقبولاً، وهو أن مسيرة الإجهاد والاضطراب والخوف واحتمالات الجوع الدائمة كانت قد فرضت نفسها على المهجرين أو المهاجرين من مصر. لقد حدث هذا رغم وجود الرب "يهوه"،رب الرعاة والجنود والمهجرين المرهقين، الباحثين عن الطعام والاستقرار.

ولعل قصة التيه، الذي ألم بتلك الجموع من الجياع، تبدو، ضمن واقع الحال المشار اليه، أمراً ذا بعد دلالي واقعي. فهي"تصف مسير قوم من البدو الذين كانوا طوال عهدهم قوماً رحلاً، كما أن هزيمتهم للكنعانيين ليست إلا مثلاً آخر لانقضاض جموع جياع على جماعة مستقرين آمنين. وقتل المهاجمون من الكنعانيين أكثر من استطاعوا قتلهم منهم وسبوا من بقي من نسائهم، وجرت دماء القتلى أنهاراً"[٣٧] وجدير بالذكر أن سادة (كهنة) تلك الجموع من البدو الجياع الذين عاشوا في مصر، كعبيد غالباً، حياة فيها حد عام من الكفاية الإقتصادية على الرغم من قسوة أعمال السخرة التي خضعوا لها، استطاعوا أن يخلقوا لهم (أي لتلك الجموع) حوافز ومسوغات دينية أخلاقية لأعمالهم التدميرية إزاء الكنعانيين، كما تمكنوا من أن يزرعوا فيهم ويخصبوا أمرين خطيرين مثلا، في حقيقة الأمر، شرطين ضروريين للتغلب على

الكنعانيين. الأول منهما تجسد بالوحدة الدينية الأيديولوجية القطعية، التي تمحورت حول"يهوه"، وانطلقت منه، وتعززت تحت جبروته ذي الحضور الكثيف وغير المرئي. أما الشرط الثاني فقد تمثل بالانضباط القتالي الحربي قيادة وخضوعاً وتنفيذاً، وذلك على نحو جعل الوسيلة هدفاً،مع افتقاد هذه الوسيلة ـ الهدف كل الآفاق والأبعاد عدا واحداً منها: القتل للقتل،والتدمير للتدمير، الخ.. وفي هذا وذاك، كانت تلك الجموع (الأخلاط) من البدو (العبرانيين) المرحَلين، والمترعين بالحقد على من يحوزون على الأرض والاستقرار، تجد نفسها متوافقة ومنسجمة مع اعتقاداتها ومثلها العليا المنحدرة من "الشريعة التي أمر بها الرب" والتي ترى في تنفيذ ذينك الأمرين "ذكاة للرب".

٣ ـ ٢ـ ٦ رأى أندريه باشان :

قبل أن يعرض باشان نظريته عن مكان الخروج وخط السير الذي سلكه الهاربون من مصر، يطرح عدة ملاحظات حول النظريات الأخرى، رافضاً إياها، حيث يقول :

١ـ ليس رمسيس الثاني هو فرعون القهار، بل هو تحتمس الثالث.

٢ـ مرنفتاح بن رمسيس الثاني وخليفته لم يمت غرقاً في البحر الأحمر، بل الذي مات فيه هو تحتمس الرابع.

٣ـ لا يمكن أن تكون "الشلوفة" هي منطقة العبور المقصودة ب" بحر البوص"، لأنه لم يكن يوجد لا بحر ولا مستنقع حقيقي في تلك المنطقة آنذاك. وعلى العكس فإن الشلوفة كانت منطقة رملية ترتفع فيها تلال الرمال الى خمسة أمتار، وتشقها قناة صغيرة من المياه العذبة، لعل عهدها يرجع الى الأسرة الثانية عشر. وبالطبع ففي شمال وجنوب هذه

المنطقة الرملية كانت توجد بعض الأراضي المزروعة التي ترويها المياه وتنبت بها بعض الأعشاب وطبيعة الأرض في هذه المنطقة يصعب اجتيازها والمنطقة القريبة التي يمكن اجتيازها هي منطقة بحيرات بعل، حيث كانت توجد مناطق ليس بها طمي لأنها واقعة تحت تأثير المد والجزر. ومن ناحية أخرى فإن موسى عندما هرب أول مرة من مصر اضطر أن يسلك طريق" سلية" وهو نفس الطريق الذي سلكه أثناء خروج بني إسرائيل، ذلك لأن الطريق الممتد بجوار ساحل البحر حتى غزة، كانت جنود بلوز قد سدته وقطعته أمام الهاربين، وبالتالي أصبح الطريق الوحيد الذي يمكن سلوكه بشيء من الالتفاف هو خط السويس حتى "قنطرة الكنز" وبيحاروت. ولسوء الحظ فإن أغلب القوات المصرية المعسكرة هناك، وعلى رأسها تحتمس نفسه منعت عبور القنطرة.

وعندئذ أصبح الطريق الوحيد أمام"بني إسرائيل"هو الاستفادة من اكتمال القمر واعتدال الليل لعبوره بحيرة البعل عند القنطره، مع محاولة اخفاء هذه العملية بدخان النيران التي أشعلوها بالبوص وأغصان النخيل الموجودة بكثرة في المنطقة. ولعل ذلك يتفق مع ما جاء في التوراة من أن العبور تم ليلاً وغرق فرعون وجنوده مع انبلاج الصبح). وكان ذلك في فجر السابع والعشرين من مارس الجريجوري عام ١٤٦٢ق.م..وعندما انطفأت النيران وتبدد الدخان،فوجيء المصريون بعدم وجود "بني إسرائيل"، ولم يكن يمتد أمامهم سوى رمال الصحراء التي تحدها المستنقعات عند الأفق الشرقي. واندفع المصريون بعرباتهم خلف الهاربين،لكن مياه الجزر الصاعدة غطت العربات وأغرقت راكبيها ومن بينهم تحتمس ذو اللحية الطويلة والعيون الزرقاء.

ومن السهل تحديد دقة هذا الحساب إذا عرفنا أنه في عام ١٤٦٢ ق.م. كان الشروق الشمسي للشعرة اليمينية قد وافق الأول من شهر

فيروي المتحرك الطيبي = ٢٠ يوليو جولياني = ٦ يوليو جريجوري .

أما بالنسبة لتحديد خط سير الخروج، فهو يرى أنه لابد أولاً من تحديد أن شواطيء البحر الأحمر لم تتغير منذ أقدم العصور التاريخية وعلى العكس، فإن شواطيء منطقة شمال شرق الدلتا قد تغيرت بشكل ملحوظ وقد انزلقت بالفعل بعض الأراضي تحت مياه البحر الأبيض المتوسط، لأن بحيرة المنزلة لم تكن بالقطع في الحجم الذي هي عليه الآن. وهنا ندرك أهمية دليل الدروب الذي رسمه "أنطونين" فقد كان يوجد طريق مواز للشاطيء يربط الاسكندرية بغزة، عن طريق شرو، وهمرموبوليس، وأندروبوليس، وسينوبوليس وتاءوبيس وتنيس وهيراقليوس وبلوز ورفح وغزة. وكان هناك طريق يربط بلوز بالسويس عن طريق مجدل وسليه ونوبازيو وسرابيوم. وطريق أخر لم يكن في الواقع سوى درب في صحراء إيتام ، يربط بين بلوز والسويس عن طريق مارا. وهذا الدرب هو الذي سلكه موسى بعد أن عبر بحيرات بعل "بحر البوص" عند سليه، خاصة وأن خط الطريق الساحلي بين تنيس وبلوز يوجد معظمة حاليا تحت مياه بحيرة المنزلة.

ويضيف أنه من المؤكد أن فرعون الطرد " تحتمس" كان يقيم في تنيس وليس في قنطير، في حين أن بني إسرائيل كانوا يقيمون عند ضواحي المدينة ولا يمكن أن يكون الوضع عكسيا، ذلك لأن فرعون قد استدعى موسى في نفس ليلة ١٥ برموده، وأن الخروج بدأ في صباح نفس اليوم.

وإذا وافقنا الرقم الوارد في التوراة وهو ٦٠٠ الف رجل دون احتساب عائلاتهم، فسوف نحصل على رقم أكثر من مليون وأربعماية ألف إسرائيلي خارجون - دون أن نأخذ في الاعتبار أيضاً بالجماهير العديدة والمختلفة التي انضمت اليهم. وإذا أضفنا قطعان الماشية، نرى

أنه من المستحيل لهذا البحر البشري أن يعبر بحر البوص في ليلة واحدة، ومن ناحية أخرى يجب أيضاً أن نتذكر أنه لم يكن يوجد (وفقاً للنص التوراتي) سوى قابلتين مولدتين تقومان بتوليد ما يقرب من ٢٦٠ الف إمرأة، أي ما يقرب من الف عملية ولادة يومياً.. وهي مسألة مستحيلة حتى بمساعدة يهوه نفسه.

ويضيف باشان أنه قام بحساب السلالة المنطقية ليعقوب منذ وصوله الى مصر، وكيف أنها لا يمكن أن تتعدى أيام الخروج أكثر من ثلاثين ألف وأربعماية رجل وامرأة. وربما انضم اليهم بضعة آلاف من مساجين المحاجر، مما يعطينا على الأكثر رقم خمسون الف شخص.

وبهذا يمكن القول أن عبور بحيرات بعل عند منطقة القنطره، وفي ليلة واحدة - رغم أنها مهارة غير طبيعية - تصبح عملية ممكنة الحدوث. ولا بد من أن نضع في الاعتبار أن عبور صحراء إيتام حتى بير مارا قد أدى الى هلاك عدد كبير من الأغنام لعدم وفرة المياه وندرتها.

أما كل المعجزات التي تذكر طوال قصة الخروج، فإنه يمكن تفسيرها علمياً، خاصة ظاهرة الهالة المضيئة التي أحاطت بالصندوق الذي يحتفظون فيه بلوحة القوانين. فهي ليست إلا شعلة الاحتراق التي يعرفها البحارة جيداً. وهي تحدث نتيجة شحنه كهربائية في الجو، وبما أن التابوت كان مصنوعاً من خشب الأكسيا المكسو برقائق من الذهب فقد تحول الى مكثف حقيقي للحرارة ووصلت الشحنة الكهربائية المختزنة الى درجة عالية بسبب رياح الصحراء المحملة بالرمال [٣٩].

٣ - ٢ - ٧ نظرية الصليبي :

يبدأ كمال الصليبي رأيه اعتماداً على شك كثير من علماء التوراة في أن خروج بني اسرائيل من مصر كان أرض مصرايم (مصر وادي

النيل)، لأن علماء الآثار لم يجدوا أثراً لمثل هذا الخروج لا في أرض مصر ولا في سيناء ولا في فلسطين، ولا يوجد في المدونات المصرية القديمة ما يشير الى مثل هذا الخروج، أو الى وجود لشعب اسمه (إسرائيل) عاش في أرض مصر في أى وقت. ويقل الصليبي أنه من خلال دراسته لقصة يوسف تحقق من أن أرض مصرايم التي نزل بها بنو إسرائيل وأقاموا بها لم تكن بلاد مصر الأم، بل كانت المستعمرة المصرية القديمة المعروفة باسم (مصرايم) [وهي اليوم قرية المصرمة] في حوض وادي بيشه داخل عسير. وليس هناك ما يجعلنا نستبعد أن خروج بني إسرائيل بقيادة موسى من أرض مصرايم هذه حدث بالفعل قرابة عام ١٤٤٠ ق.م.

كما أنه لا يوجد ما يستوجب الشك في أن موسى الذي أخرج بني إسرائيل من أرض مصرايم، وتاه بهم في البراري حتى أوصلهم الى مشارف أرض كنعان (بجنوب الحجاز) كان في الواقع شخصية تاريخية. ويمكننا استخلاص معلومات هامة عن موسى التاريخي هذا من التوراة ، والدليل القاطع - في رأيه - على هذا نجده في سفر الخروج (٦/٢٠ ، ٢٦ ٢٧،) عندما تبدأ قصة موسى المركبة من قصص مختلفة تتعقد، فيتداخل المصدر الكهنوتي، ليقول كلمته الفصل في الأمر. "أخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له. فولدت له هارون وموسى". هذان هما هارون وموسى اللذان قال لهما يهوه: أخرجا بني إسرائيل من أرض مصرايم".. وهما اللذان كلما فرعون ملك مصرايم في إخراج بني إسرائيل من مصرايم. وبالتالي فقد كان هناك على الأقل موسى واحد وهارون واحد غير الأخوين موسى وهارون اللذان أخرجا بني إسرائيل من أرض مصرايم.

أما عن قصة موسى ويثرون كاهن مدين، فيرى الصليبي أنه حتى على فرض أن موسى التاريخي، الذي أخرج بني إسرائيل (العبرانيين)

من أرض مصرايم كان هو نفسه رجلاً عبرانياً من أرض مصرايم، وليس دخيلاً عليها؛ فإننا نجد في الإصحاح الثاني من سفر الخروج أن موسى هذا كان شاباً من أصل عبراني نشأ كربيب لبنت فرعون ملك مصرايم، وكانت له مكانة اجتماعية مرموقة بين المصريين من أهالي المستعمرة. ويرى الصليبي أنه أقدم على قتل رجل من المصرين عندما صادفه ذات يوم يضرب عبرانياً من بني قومه(تكوين٢/١١ـ ١٤)...فهرب من مصرايم ولجأ الى مديان حيث تزوج بنت رجل إسمه وعوئيل (تك ٢/ ١٥ ـ٢١). ولم يرجع الى مصرايم إلا بعد أن أتاه الخبر بأن ملك مصرايم قد مات (خروج٢/٣٢) هو وجميع من كانوا يسعون الى قتله (١٩:٤) " وقال الرب لموسى في مديان إرجع الى مصر . لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك". والواضح هنا ـ كما يقول الصليبي ـ أن ملك مصرايم وجميع القوم الذين كانوا يسعون الى قتله لم يموتو ميتة طبيعية كلهم في أن واحد. وأن ما أطاح بهم جميعاً بهذه الطريقة المفاجئة لم يكن إلا إنقلاباً عسكرياً . وهنا يتضح أن موسى لم يذهب من مصرايم الى مدين هرباً من العدالة بعد أن قتل المصري، بل إن هروبه كان لأسباب سياسية. ويبدو أنه كان ينتمي الى فريق سياسي قوى معارض للحكم القائم في مصرايم، فلما أطيح بهذا الحكم وقتل جميع أربابه، بما فيهم الملك، عاد موسى الى مصرايم دون خوف. وهذا هو موسي التاريخي الذي قاد خروج بني إسرائيل من أرض مصرايم حوالي عام ١٤٤٠ ق.م.. ويرى الصليبي أن زوجة موسى التاريخي كانت بنت رعوئيل المدياني وهي مجهولة الإسم.لكن كان هناك موسى آخر متزوجاً من إمرأة إسمها صفورة ووالدها ليس رعوئيل بل يثرون كاهن مديان. وبالتالي فليس هناك من شك في أننا أمام شخصيتين مختلفتين إسمهما موسى، يبدأ الأول منهما في الظهور من الإصحاح الثاني من سفر الخروج، بينما

يظهر الثاني لأول مرة على مسرح الأحداث في الإصحاحين التاليين.

موسى رجل إلوهيم :

يظهر موسى هذا اعتباراً من خروج/٣ وهو "يرعى غنم يثرو حميه كاهن مديان".

ومبدئياً فإن موسى الذي ذهب الى جبل "الوهيم" ورأي العليقة تشتعل بنار لا تنطفيء، كما جاء في سفر الخروج، كان غير موسى التاريخي الذي ذهب في وقت ما الى جبل حوريب. ولا بد بالتالي من أن موسى الذي رأي العليقة كان هو ذاته موسى رجل إلوهيم . ويبدو أن القصة في الأصل كانت تقول أن "يهوه" طلب من موسى رجل إلوهيم أن يخضع له، فلم يمتثل موسى للأمر، فغادر المكان . وحدث في الطريق، أن التقاه يهوه وحاول قتله. فأخذت صفورة صوانة وقطعت غرلة إبنها ومست رجليه وقالت: "أنت عريس دم لي، فأنفك عنه (خروج ٤/٢٤-٢٦).

ويعتمد الصليبي على أن هذه القصة ليست تاريخية، بل هي ميثولوجيا أكثر منها تاريخا، وهي تشبه الى حد كبير أبرام تكوين ١٥.

وفي البعد الميثولوجي أيضاً أن موسى رجل إلوهيم كان "يكلم يهوه وجهاً لوجه، كما كان يكلم الرجل صاحبه (خروج ٣٣/١١). لكن دون أن يرى وجهه. وطلب موسى ذات مرة من يهوه أن يريه وجهه، فأجابه: لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش". ونزولاً على رغبة موسى وإصراره، سمح له يهوه مرة واحدة أن يقف جانباً وينتظر حتى يجتاز، فيرى قفاه دون أن يرى وجهه(خروج ٣٣/ ١٨- ٢٣). ومن المعروف من كتب الأخبار أن كبار الكهنة في شبه الجزيرة العربية في القدم كانوا يتحجبون بالبرقع، فيكون البرقع فاصلاً بينهم وبين عامة الشعب. ومن هؤلاء مسلمه بن حبيب كاهن اليمامة المسمى مسيلمة الكذاب. ولا يستبعد أن موسى (رجل إلوهيم) كان في وقت ما كاهناً

مرموقاً من كهنة يهوه (بمنطقة جبل الهان في شمال اليمن، وأنه كان يلقب موشيه (أي المنقذ أو المخلص) ، فنسجت حوله خرافة تقول بانه كان في الأصل الها مستقلاً، ثم تنازل عن الوهيته ولبس برقع الكهنوت وصار من كبار الدعاة لعبادة يهوه دون غيره من الآلهة.

موسى بن عمرام :

كان موسى رجل إلوهيم (من شمال اليمن) أما موسى بن عمرام، فكان هو وأخوه الأكبر هارون وأختهما مريم من جنوب الحجاز . وهناك إصرار في سفر الخروج ٦/ ٢٦- ٢٧) على أن موسى بن عمرام هو ذاته موسى التاريخي الذي أخرج بني إسرائيل العبرانيين من أرض مصرايم ، هو وأخوه الأكبر هارون. لكن هذا الإصرار يتناقض بوضوح مع ما يقوله السفر ذاته(١/٢) عن ولادة موسى التاريخي بجوار مصرايم، حيث المفهوم أن موسى هذا كان الإبن البكر لوالدين مجهولي الإسمين.

ويبدو أن قصة موسى بن عمرام وأخيه هارون وأختهما مريم كانت أصلاً من تراث بني يعقوب الآراميين بجنوب الحجاز. ومن الواضح أيضاً أن موسى التاريخي كان له أخ أو (قريب) إسمه هارون أو لنقل على الأقل إن في قصة موسى - كما ترويها التوراة - أكثر من هارون واحد، كما أن فيها أكثر من موسى واحد. ودليل ذلك أن سفر العدد يذكر وفاة شخص اسمه هارون بجبل هور(جبل الهرة بسراة زهران)[عدد ٢٠ / ٢٣ - ٢٩] .

"يضم هارون الى قومه لأنه لا يدخل الأرض التي أعطيت لبني إسرائيل لأنكم عصيتم قولي عند ماء مريبة. خذ هارون والعازر إبنه أياها. فيضم هارون ويموت هناك ففعل موسى كما أمر الرب".

ويلح الصليبي على أن هارون هذا لم يمت ميتة طبيعية على هذا الجبل بل إنه أعدم نتيجة لمعصية كان قد ارتكبها، معتمداً في ذلك على

ما جاء في (خروج ٢٠/٢٤). ويبدو ظاهرياً أن موت هارون المذكور على جبل هور كان حدثاً تاريخياً لإنه مؤرخ بدقة وتاريخه هو السنةالخامسة والأربعون من خروج بني إسرائيل من مصرايم، في الشهر الخامس في الأول من الشهر (عدد ٣٣/٣٨).

أما سفر التثنية (١٠/٦) فيذكر وفاة يبدو أنها كانت طبيعية لشخص إسمه هارون في موسير بالقرب من آبار بني يعقان.

" وبنو إسرائيل ارتحلوا من آبار بني يعقان الى موسير . هناك مات هارون وهناك دفن. فكهن العازار إبنه عوضاً عنه".

وحتى لو اعتبرنا أن هارون الذي يقول سفر التثنية أنه مات ودفن في (موسير) هو ذاته هارون الذي يقول سفر العدد بأنه مات في جبل هور. فإنه يتأكد أن التوراة تورد من مصدرين مختلفين عن شخص هارون، ولا بد من أن هذين المصدرين كانا في الأصل لعنصرين مختلفين من العناصر التي تكون منها شعب إسرائيل فيما بعد.

ويرى الصليبي أيضاً أن هارون الذي أقر عبادة العجل لم يكن هارون الكاهن المرافق لموسى التاريخي (وهو المتوفي في موسير) بل هارون الآخر الذي أعدم في جبل هور. وكان إما شخصية ميثولوجية أو كبير الكهنة لعبادة وثنية محلية غير عبادة يهوه. وربما كان الإله في هذه العبادة على شكل عجل أو ثور له قرنان يمثلان قرني القمر الهلال. وقد ورد في سفر الخروج أن شعب إسرائيل عبد العجل وهو معرى (خروج ٣٢/٢٥).

وإذا كانت التوراة قد وقرت هارون، فإنها لم توقر مريم؛ التى كانت نبية (خروج ١٥/٢) دون أي إشارة الى أنها كانت أخت موسى. "فأخذت مريم النبية أخت هارون الدف بيدها".

وفي سفر الخروج أيضاً أن هارون وموسى كانا ابني عمرام، دون

أي ذكر لمريم على أنها كانت (أختاً) لكليهما. ولا تصرح التوراة مباشرة في أي موضع بأن مريم النبية كانت أخت موسى، بالإضافة الى كونها أخت هارون.

وبالتالي، فيبدو أن موسى (التاريخي)، بعد رجوعه من مديان الى مصرايم، استعاد بعض النفوذ الذي كان له هناك من قبل. فكان يدخل على فرعون كلما شاء ويتكلم أمامه بكامل الحرية وبقدر كبير من الجرأة. وكان موسى قد اتخذ قراراً بأن يقود هجرة لبني قومه من أرض مصرايم الى مكان آخر يستقرون فيه كشعب مستقل ولعل فرعون كان يعارض هجرة العبرانيين من أرضه من حيث المبدأ، لحاجته اليهم كأيدي عاملة. لكن الواضح أن فرعون كان له اعتراض أيضاً على الوجهة المقترحة من قبل موسى لهذه الهجرة. وعلى ما يبدو أن بني إسرائيل قد عقدوا النية على أن يتوجهوا بقيادة موسى الى منطقة القويعية في نجد وما يليها الى الجنوب من أرض اليمامة، فيستقروا هناك كشعب مستقل عن مستعمرة مصرايم سياسياً،أو على الأقل إدارياً.أما المصريون فلم يأنسوا الى هذا المشروع، لأن قيام كيان عبراني مستقل عنهم في وسط الجزيرة العربية كان يهدد بتعكير صفوفهم، ويهدد أيضاً طرق مواصلاتهم التجارية المهمة مع البلاد الواقعة في المناطق الشرقية من الجزيرة العربية على سواحل الخليج العربي وخليج عمان.

الخروج :

عندما سمح لبني إسرائيل العبرانيين آخر الأمر بالخروج من أرض مصرايم، بشرط أن يتجهوا من هناك شمالاً نحو الحجاز وليس شرقاً نحو نجد ووادي اليمامه، احتاط المصريون للأمر فوضعوا قوات عند المخارج الشرقية لحوض وادي بيشه ومنها قوة عند الخماسين بوادي الدواسر، وأخرى عند وادي حبونا. أما بنو إسرائيل ومن معهم ، فقد

تجمعوا بقرية آل سكوت من سراة بلقرن، ثم ساروا الى قرية الريمه من المنطقة ذاتها، وانحدروا من هناك باتجاه الخماسين. وعندما تعذر عليهم الخروج من هناك، اتجهوا جنوباً الى وادي حبونا، حيث نزلوا أمام مدخل الحواضر بين القلعة ويام، بأعلى صفن. وهناك استعد الشعب للنزول الى بلاد يام وهي البادية التي تفصل منطقة نجران عن رمال بحر صافي، من رمال الربع الخالي. وسعى المصريون بجيشهم وراء بني إسرائيل وأدركوهم وهم نازلون بأعلى صفن وهي اليوم قرية الصفن بين وادي حبونا ووادي نجران. فسارع بنو إسرائيل الى الخروج من هناك الى وسط بلاد يام. وكان هناك "سحاب" كثيف يحول دون ترقب المصريين لتحركات بني إسرائيل وينذر بسيل عرم. وفي اليوم التالي تبعهم المصريون الى "وسط بلاد يام" وليس الى وسط البحر. ولاحظوا قدوم السيل، فانثنوا عن ملاحقة الهاربين، وحاولوا العودة الى بلاد يام عن طريق وادي حبونا، فلحقهم السيل هناك وأهلك ما أهلك منهم. " أما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط يام والماء سور لهم عن يمينهم (سيل وادي نجران) وعن يسارهم (سيل وادي حبونا).

وهكذا تم خروج بني إسرائيل من أرض مصرايم عن طريق وادي "حزقه" الذي هو وادي حبونا وليس "بيد قوية" كما جاء في الترجمة المعتمدة لسفر الخروج. وكان خروجهم ليس الى البحر بل الى بادية بلاد يام التي مازال إسمها هناك وليس مياه البحر الأحمر. ولو كان "يم سوف" بحراً لما تمكن بنو إسرائيل من المكوث فيه لأي فترة من الزمن ثم الخروج منه ، كما هو واضح من خروج ١٥/٢٢ .

التيه:

وصل بنو إسرائيل بعد خروجهم من أرض مصرايم الى بلاد يام ثم الى رمال بحر صافي ثم ارتحلوا من هناك الى شور التي هي اليوم

قرية شري بوادي خب ، على بعد ١٢٠كم تقريباً الى الجنوب من وادي حبونا. وكان بنو إسرائيل قد نجحوا في تحدي المصريين بخروجهم من مصرايم عن طريق وادي حبونا، باتجاه اليمامة، فعدوا ذلك انتصاراً كبيراً لهم (خروج ١٥/١-٢١). لكن موسى كان يعلم جيداً أن ما حدث للمصريين في وادي حبونا لن يثنهم عن عزمهم منع بني إسرائيل الوصول الى اليمامة، ناهيك عن نجد. فأقنه شعبه بتغيير وجهة سيرهم ، فجعلهم يتوجهون جنوباً نحو وادي خب، وهو بداخل اليمن. وهناك ورد بنو إسرائيل الماء عند ماره، وهي الآن ماء مُره بوادي خب. ثم ارتحلوا عبر مرتفعات اليمن الى ناحية جيزان وجاءوا الى إيليم، وهي على الأرجح الآن قرية اليامية بوادي ذهبان في جيزان. ومن إيليم ارتجلوا الى برية (سين) وهي الآن قرية صين أسفل اليامية بمنطقة نجران. وفي النص التوراتي كان موقع سين هذه بين إيليم وسيني أي بين وادي ذهبان ووادي سيان، مسرح قصة موسى رجل إلوهيم مع الرب يهوه إله " نار اليمن ".

ولعل تحول بني إسرائيل العبرانيين الى عبادة يهوه كان عند عبورهم مرتفعات اليمن وهم في طريقهم من وادي خب الى منطقة جيزان ويبدو أن الإله الأعظم الذي اعترف به بنو إسرائيل في مصرايم هو إيل شداي، فلما تعرفوا على عبادة يهوه صاروا يعتبرون إسم إيل شداي واحداً من أسمائه.وفي ذلك ما يفسر لنا ما جاء في خروج ٨-٢/٦: " أنا يهوه . وأنا ظهرت لأبرام وإسحق ويعقوب بأني إيل شداي. وأما بإسمي يهوه فلم أعرف عندهم. لذلك قل لبني إسرائيل " أنا يهوه.. أتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلها، فتعلمون أني أنا يهوه. أنا يهوه".

ولقد جاء تحول بني إسرائيل الى عبادة يهوه وهم بأرض اليمن عن طريق دخولهم في تحالف مع قبائل يمنية كانت تخلص لعبادة الإله

يهوه. ولعل هؤلاء هم "بنو بنيامين" (أى إبن يامن وهو الإسم العربي القديم لشعب اليمن) الذين التفوا حول بني إسرائيل عندما كان بنو إسرائيل مقيمين بين ظهرانيهم، فصاروا يعتبرون قبيلة من قبائلهم.

وإذا شئنا تلخيص هذه النظرية وقصرها على البعد التاريخي لهذه الفترة من التاريخ، فإننا نرى أن الصليبي يعتبر أن هذا الشعب كان موطنه غرب الجزيرة العربية، في المنطقة الواقعة بين الطائف وحدود اليمن، وليس في فلسطين. وكان ذلك فيما بين القرن الخامس والقرن السادس ق.م. وكان بنو إسرائيل في البداية رعاة أغنام من الشعب العبراني يقطنون تهامة عسير وجوارها في منطقة القنفده بتهامة الحجاز. وكان الههم فيها هو إيل عليون (آل عليان). وكانت القبائل العبرانية بأرض تهامه هذه، ومنهم بنو إسرائيل، ينتسبون الى جد أعلى يسمونه "أبرام". وكان من غير العبرانيين من سكان غرب الجزيرة العربية من انتسب الى جد أعلى أسماه "أبرام". ومن هؤلاء بنو يعقوب الآراميون الذين كانوا رعاة أبقار وإبل وأغنام ببلاد زهران، جنوب الحجاز. وكانوا يعبدون الرب يهوه، وجدهم الأعلى هو إبراهيم.

وفي القرن التاسع عشر ق.م.(حوالي عام ١٨٧٠) حدث قحط عظيم بأرض تهامه. فنزح بنو إسرائيل العبرانيون منها هرباً من المجاعة ونزلوا بأرض مصرايم التي كانت آنذاك مستعمرة مصرية مزدهرة بوادي بيشه وما يليه من أرض السراه بعسير. وحلوا هناك بأرض الغِثان (جاسان التوراتية) من سراة بلقرن المطلة من الغرب على أسفل وادي بيشه. وصار لهم هناك لفيف من الرعاه والمزارعين المحليين الذين كانوا يتعبدون للإله إيل شداي (آل سادي)، فاختلطت هوية هذا الإله بهوية إيل عليون إله العبرانيين. وصار بنو إسرائيل، وهم من العبرانيين يطلقون على إلههم إسم إيل شداي.أو أنهم تحولوا الى عبادة

إيل شداي لكونه كبير الآلهة المحليين.وكانت لغة العبرانيين هي ذاتها اللغة الكنعانية التي كانت سائدة في سراة عسير، ومنها سراة بلقرن. ولعل "إله كنعان" وإسمه اليوم هو إسم قرية "آل كنعان" في نفس المنطقة هو ذاته إسم إيل شداي الذي كان إله القبائل المحلية الكنعانية، أو الناطقة بالكنعانية.

ومكث بنو إسرائيل بأرض مصرايم أربعة قرون ونصف، على حد قول سفر الخروج (١٢/٤)، وتكاثروا حتى وصل عددهم الى ستماية الف رجل عدا الأولاد، فأخاف ذلك المصريين أصحاب المستعمرة، فاتخذو التدابير اللازمة لمراقبة تحركاتهم. ولعل أكثر ما أخاف المصريين هو أن العبرانيين كانوا رعاة منتظمين في قبائل، وعلى رأسها قبيلة بني إسرائيل. فحاول المصريون كسر تنظيمهم القبلي بتحويلهم من رعاة أحرار الى فلاحين وعمال سخرة فاستعبدوهم في أراضيهم وشغلوهم في بناء مدن جديدة لهم. وكان من العبرانيين طوال هذه الفترة من انخرط في صفوف المصريين أصحاب المستعمرة، فتمصر وصار منهم، ومن هؤلاء يوسف بن يعقوب الذي صار إسمه "صفنات فعنيح" بعد تمصيره. وكان له ولاية على أرض مصرايم عندما نزلها بنو قومه العبرانيون من بني إسرائيل ولفيفهم حوالي عام ١٨٧٠ ق.م. فاستقروا هناك تحت حمايته. وربما كان هناك عبرانيون غيره تمصروا على مر أربعة قرون، وصار لهم شأن في أرض مصرايم. وكان آخر هؤلاء الرجل العبراني المدعو موسى. وكان موسى هذا قد ولد لأبوين عبرانيين مجهولين. فتربى في بيت بنت فرعون ملك مصرايم ونشأ نشأة أبناء الطبقة الحاكمة من المصريين في المستعمرة. وصارت له مكانة مرموقة فيها. ويبدو أنه كانت له طموحات سياسية، وكان أصله العبراني على رأس العوامل التي حالت دون تحقيق هذه الطموحات . فتحول الى بني

قومه العبرانيين وصار يتقرب اليهم. وكان من الطبيعي أن يجد هؤلاء في شخصه خير من يحميهم من جور المصريين.

وكان موسى قد هرب من مصرايم لأسباب سياسية ولجأ الى مديان (قرية المدينة بوادي تثليث عند مشارف اليمامه)، فتعرف هناك على أرض اليمامة وما يليها من أراضي نجد الى الشمال، وصارت تراوده فكرة أن يخرج بني قومه العبرانيين من مصرايم الى أرض اليمامة ومنطقة القويعية المحاذية لها من أرض نجد، فيستقل بهم هناك. وما أن عاد موسى من مديان الى مصرايم حتى بدأ التفاوض مع المصريين بشأن خروج العبرانيين من مصرايم الى داخل الجزيرة العربية تحت قيادته. لكن المصريين رفضوا هذه الفكرة خوفاً من أن يتمكن العبرانيون هناك من قطع طرق المواصلات التي كانوا يعتمدون عليها في تجارتهم مع المناطق الشرقية المهمة من الجزيرة. بالإضافة الى حاجة المصريين الى أيد عاملة لكنهم في النهاية قبلوا بالخروج شرط أن يكون هذا الخروج الى أرض الحجاز التي كانت على بعد من وادي بيشه الى الشمال وليس الى داخل الجزيرة العربية.

وسلك العبرانيون الطريق الذي أشرنا اليه سابقاً. ولعلهم قد شاهدوا ثورة لبركان جبل "أهلان" عند مرورهم بأرض اليمن، فراعهم هذا المشهد، واتخذوا الرب يهود الذي كان إله هذا البركان إلههم أيضاً، وعرفوه بأنه هو ذاته إلههم إيل شداي.وهم بوادي بيشه، بأنه هو ذاته إيل عليون الذي كان من كبار آلهتهم عندما كانوا في أرض كنعان التي هى تهامة عسير. وهكذا أصبح إسما الإلهين شداي وإيل عليون من أسماء يهوه. ويبدو أنه كان في نية بني إسرائيل الاستقرار في منطقة جيزان عند حدود اليمن لكن بعض القبائل المحلية هناك ومنهم أهالي ما هو اليوم قرية "المعاليق" ، هبو الى محاربتهم لمنعهم من الاستيطان في

ربوعهم. فغادر بنو إسرائيل المنطقة الى الشمال، ومعهم لفيف جديد من أهالي اليمن (قبيلة بنيامين). وتاهو مدة أربعين عاماً بين تهامة عسير وتهامة الحجاز حتى بلاد زهران. ولعلهم حاولوا الاستقرار هناك ولم يفلحوا، فصعدوا من تهامة زهران عن طريق عقبة البعرة. وهناك التقوا مع بني يعقوب. ومنهم قبيلة بني يهوذا، الذين كانوا هم أيضاً على دين يهوه. وهناك تم الاتحاد بين بني إسرائيل العبرانيين من جهة وبين بني يعقوب الآراميين وعلى رأسهم بنو يهوذا من جهة أخرى. وذلك بقيادة موسى، فصار الفريقان شعباً واحداً أطلق عليه إسم "جميع إسرائيل"، كما ورد في التثنية١/١ :" هذا هو الكلام الذي كلم به موسى جميع إسرائيل في عبر الأردن في البرية في العربة قبالة سوف بين فاران وتوفل ولابان وحضيروت وذي ذهب.

وبالتالي فإن الصليبي يرى أن هذه العبارة "كل إسرائيل"لا تشير الى بني إسرائيل وحدهم، بل الى الشعب الذي توحد للمرة الأولى تحت قيادة موسى، وهو يتألف من عنصرين مختلفين لا يجمع بينهما إلا العبادة المشتركة للرب يهوه. وكان قيام هذا الاتحاد في صالح بني إسرائيل أكثر منه في صالح بني يعقوب، لأنه سمح لبني إسرائيل وهم الدخلاء على أرض بني يعقوب، بالاستيطان هناك. أما بنو يعقوب وهم في الواقع بنو يهوذا فكانوا قليلي العدد بالنسبة الى بني إسرائيل ولعل قلة أعدادهم هذه كانت هي العامل الأساسي الذي جعلهم يقبلون بمبدأ الاتحاد مع بني إسرائيل. ويذكر سفر العدد (١٩/١ ـ٤٦) أن موسى أحصى عدد رجال شعب إسرائيل من سن العشرين فما فوق، عدا الشيوخ منهم، فكان عدد الرجال من هذه الفئة، من بني يهوذا (أي من بني يعقوب الآراميين أربعة وسبعون ألف وستماية أما الباقون من بني إسرائيل فكانوا خمسماية ثمانية وعشرون ألفاً وتسعماية

وخمسون. بالإضافة الى بني لاوي ، وهم قبيلة الكهنة وقد أحصوا على حدة(٤/٣٤ ـ٤٨)، فكان عدد الرجال بينهم، ما بين سن الثلاثين والخمسين، ثمانون الف وخمسماية وثمانونرجلاً. وكان لبني يعقوب الذين يعبدون يهوه، حروب كثيرة مع جيرانهم من الآراميين الوثنيين بجنوب الحجاز، فرحبوا بقدوم بني إسرائيل العبرانيين بأعدادهم الكبيرة وهم أيضاً من عباد يهوه، فاستقووا بهم وقبلوا بالاتحاد معهم في شعب "جميع إسرائيل".

وهذا الاتحاد بين بني إسرائيل العبرانيين وبني يعقوب الآراميين حدث في أواخر أيام موسى، كما يفهم من سفر العدد. وعندما تم هذا الاتحاد أصبح بإمكان موسى أن يقف أمام "جميع إسرائيل" ليكلمهم كشعب واحد وينقل اليهم على لسان يهوه الفرائض والأحكام التي إرتآها الإله الواحد لهذا الشعب.

وإن كانت هناك حسنة لهذا الطرح الذي يقدمه الصليبي، فهي فصله بين العبرانيين والإسرائيليين. لكنه هنا لايفصل بينهما كجماعتين إثنيتين، بل نجده يربط بين بني إسرائيل والعبرانيين ويجعل منهما شعباً واحداً، ويربط أيضاً بين بني يعقوب والآراميين.

٣ ـ٢ ـ٧ يكاد يتطابق رأي الصليبي مع ما ذهب اليه سيجمند فرويد في حديثه عن فترة الصحراء، مع بعض الاختلافات، حيث نرى فرويد يقول عن موضوع ارتداد "بني إسرائيل" عن الوحدانية، بأن أخلاطاً من القبائل المستوطنة للأراضي الواقعة بين مصر وكنعان قد انضمت الى بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، وكانت قبائل شمال شبه الجزيرة العربية تعبد إلهاً تطلق عليه"ياهوي" وبذلك أصبح بني إسرائيل يتكونون من عنصرين أساسيين

١ـ عنصر مصري التربية والعقيدة.

٢ـ عنصر بدوي من شمال شبه الجزيرة العربية.

وهذا ما ظهر أثره فيما بعد من انقسام مملكة داود وسليمان الى مملكتين. وكان عدد "بني إسرائيل" المصريين أقل من عدد من انضموا اليهم من أبناء القبائل الأخرى، لكنهم بحكم توطنهم الطويل بمصر، كانوا أكثر ثقافة ومدنية من البدو.

وفي قادش ـ كما يقول فرويد ـ اجتمع الفريقان. الأقلية المصرية ـ (المصريون ـ اللاويون و"بني إسرائيل"والمتمصرون)والثانية من القبائل البدوية التي انضمت اليهم. وهناك تقبل الجميع إسم "يهوه"ـ الإله البركاني معبود منطقة شمال شبه الجزيرة على أن يحل محل " أتون" (أدوناي) وأن يكون رباً عالمياً مثل أتون. وفي ذلك الوقت ـ كما يقول فرويد ـ كان موسى قد اغتيل قبل هذا المؤتمر بأكثر من مائة عام. وسعى المجتمعون الى استئصال كل شيء يربطهم بمصر، فكان أن ربطوا بين موسى وذلك الكاهن الذي أوجد ديانة يهوه، فأطلقوا عليه إسم موسى السامري . إلا أنهم ـ تحت تأثير بني إسرائيل المصريين ـ قد احتفظوا بفريضة الختان وإن أنكروا أصلها المصري. وأرجع مؤلفوا التوراة أصلها الى عهد إبراهيم وربه تمييزاً لنسله عن بقية أقوام العالم.

وهكذا بدلاً من أتون المصري ، ذي الصفات الوديعة والخلق الكريم الذي يمقت العنف وينشد السلام (وهى صفات مصرية بفضل البيئة التي تتسم بها دلتا وادي النيل) حل مكانه إله تأثر بالبيئة الصحراوية المقفرة، يصفه فرويد بأنه عنيف، غضوب، ضيق الأفق، محب لسفك الدماء. وعد أتباعه أن يعوضهم عن أيام الرخاء في مصر بأرض تفيض لبناً وعسلاً باغتصابها من سكانها الأصليين بحد السيف.

ويضيف فرويد أن اتباع موسى ومواطنيه من المصريين، لم يرضوا بهذا الوضع - وعملوا على الانتصار لرب موسى وإحلاله محل يهوه الإله البركاني الأصل. فدأبوا طوال السنوات التي تلت مؤتمر قادش على استعادة شريعة موسى وتطويرها والحفاظ على النصوص المقدسة والزام بني إسرائيل بمراعاة طقوس العبادة المأثورة عن موسى، الى أن تم في النهاية عقد مؤتمر آخر تم فيه إدماج العقيدتين معاً والإلهين أيضاً مع الاحتفاظ باسم موسى كمؤسس لهذه العقيدة الموحدة.

٣-٢-٨ بعض الآراء الأخرى :

يقول العالم دي بورج في كتابه "تراث العالم القديم[٤٠] أن تاريخ الخروج يتفق مع طرد الهكسوس من مصر. أى في أوائل القرن السادس عشر ق.م.

أما المؤرخ بني إسرائيلي يوسيفوس [٤١] فيقول، نقلا عن المؤرخ المصري مانيثون الذي عاش في القرن الثالث ق.م. أن سبب خروج بني سرائيل من مصر هو رغبة المصريين في أن يتقوا شر وباء تفشى بين بني إسرائيل المستعبدين. وقوله أن موسى نفسه كان كاهناً مصرياً خرج للتبشير بين بني إسرائيل المستعبدين وقوله أن موسى نفسه كان كاهناً مصرياً خرج للتبشير بين "العبرانيين "المجذومين" وأنه علّمهم قواعد النظافة على نسق القواعد المتبعة عند الكهنة المصريين.

أما العالم روبنسون[٤٢]، فيقول أن قصة موسى وفرعون مصر قد انحدرت "لليهود"(العبرانيين) عن قصة مصرية قديمة ترمز الى الصراع الدامي بين أحمس وفرعون الهكسوس الشرير الذي هزمه أحمس واستكمل تحرير مصر بعد استشهاد والده "سقنن رع" ووفاة أخيه الملك "كاموس" - ووفقاً لهذه النظرية فقد واءم بطلهم القومي الذي نهض

بعبء قيادتهم في الخروج من مصر. ويضيف أن قصة الخروج نفسها ليست سوى قصة فولكلورية مصرية ترمز لخروج الهكسوس من مصر وتولي ملكها طردهم وقتلهم وتشريدهم بعد أن ذاق المصريون على أيديهم الذل والهوان.

بينما يقول دانيال روبس في كتابه "إسرائيل والعالم القديم"(٤٣) أن بني إسرائيل عاشوا في منطقة جاسان ومنطقة تنيس في مصر. وهذه المنطقة موازية تماماً لقناة السويس الآن وعلى وجه التحديد البحيرات المرة. فإذا كان بنو إسرائيل قد حاولوا الخروج من مصر في الوقت الذي لا يوجد فيه قناة أو أي عائق مائي يفصل بين مصر وصحراء سيناء، فما الذي دفع بهم الى عبور حاجز مائي ، بينما الأرض منبسطة أمامهم، وإذا كانوا قد عبروا فعلاً فإنهم قد عبروا البحيرات المرة أو داروا حولها.

ويقول ول ديورانت في كتابه "قصة الحضارة"(٤٤) أن موسى مصري، وليس يهودي. وينقل عن جارستانج ، عضو بعثة مارستن التابعة لجامعة ليفربول أنه اكتشف في مقابر أريحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجبته الأميره حتشبسوت عام ١٥٢٧، وأنه تربى في بلاطها بين حاشيتها وأن فرعون مصر حين جلس على العرش عدوها تحتمس الثالث (٤٥).

٤ ـ ١ قبل أن نفصل القول في كل هذه الاختلافات، التي ذهب بعضها الى مصرية موسى، بل ومصرية الخارجين معه أيضاً، كغالبية مصرية مع أقلية عبرية/إسرائيلية أو حتى العكس، بل واختلافهم أيضاً في تحديد مكان الخروج وزمنه وهدفه النهائي، وهل كان الهدف أرض كنعان تحديداً أم أن أرض كنعان ظهرت فجأة أمامهم كهدف نهائي

للرحلة، يجدر بنا أن نتوقف قليلاً عند الوثائق المصرية.

لقد لاحظنا أن أغلب العلماء يجمعون على أن زمن الخروج التقريبي كان قرابة عام ١٢٦٠ ق.م. أي أثناء حكم الفرعون رمسيس الثاني، الذي اشتهر بتشييد المباني العامة والصروح الضخمة، معتمداً في ذلك على توفر الأيدي العاملة المسخرة. إضافة الى أن هذا الفرعون كانت تقع عاصمة ملكه في منطقة الدلتا. وقد ورد في سفر الخروج أن خروج بني إسرائيل قد تم من مدينة " رعمسيس" باتجاه سكوت (خروج ٣٧/١٢) :" فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس الى سكوت نحو ست مئة الف ماش من الرجال عدا الأولاد". ومدينة رعمسيس معروفة في التاريخ المصري، فهي التي بناها الفرعون رعمسيس الثاني (رمسيس الثاني) في الدلتا قرب الحدود المصرية الشرقية وأطلق عليها إسمه ويكاد يكون هذا هو التطابق الوحيد بين الرواية التوراتية وبين أي معلومة عن التاريخ المصري القديم، سواء كانت معلومة تاريخية أو جغرافية، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها العلماء حتى الآن ، والتي عرضنا سابقاً لبعض منها، إلا أنهم فشلوا جميعاً في إيجاد أساس تاريخي لقصة الخروج من مصر، وجاءت كل نظرياتهم عبارة عن اجتهادات نظرية في حاجة الي بينة عملية. وظلت أيضاً النصوص المصرية صامتة تماماً عن هذا الحدث الرئيس في التوراة، الأمر الذي يجعلنا نتشكك تماماً في حجم الصورة التي رسم بها هذا الحدث في التوراة وإن كان قد حدث فعلاً، فقد حدث في الغالب من فئة صغيرة من الأجراء والعبيد فروا من مصر بشكل سلمي، أو سمح لهم بالخروج بإرادة مصرية بحتة. وبالتالي فلم يدون هذا الحدث في التاريخ المصري لهامشيته. فمن غير المعقول أن يغادر مصر ستماية الف شخص وينسحبون من الدلتا فيما يمكن أن نطلق عليه بالمفاهيم العسكرية

الحديثة "قتال تراجعي" دون أن يرد أي ذكر لهذا في سجلات ذلك العصر، الذي يعد من أكثر فترات التاريخ المصري توثيقاً.

وإذا عدنا الى النص التوراتي نستنطقه الأحداث، علّنا نكتشف فيه - ولو بصيص ضوء - يقودنا الى الحقيقة التاريخية لهذه الفترة فإننا نجد فيه للوهلة الأولى ما يلي ، مع العلم باننا يمكن أن نغض هنا الطرف - ولو مؤقتاً - عن تعدد المصادر التي جمع منها النص التوراتي، وعن كل النظريات الأخرى التي تختلف مع النص التوراتي، وسنتعامل مع النص التوراتي وكأنه وحدة واحدة .

يحاول سفر الخروج في الإصحاح الأول أن أن يلخص لنا الموقف في مصر بقوله

١- قام ملك جديد في مصر لم يكن يعرف يوسف.

٢- خشي هذا الملك من تكاثر شعب إسرائيل حتى لا يصيروا أكثر وأعظم من المصريين.

٣- بنى بني إسرائيل لفرعون مدينتي فينوم ورعمسيس .

٤- أمر ملكي لقابلتي العبرانيات (وليس بنات إسرائيل) بقتل كل طفل ذكر.

ويمكن أن نخرج من هذه الملاحظات بأن يوسف (عليه السلام) كان يتمتع بقدر كبير من الاحترام بين المصريين ؛ لكن ارتقى حكم مصر ملك أنزل يوسف عن هذه المكانة،وأصدر أمراً ملكياً بقتل كل طفل ذكر يولد للعبرانيات. وبالتالي فإننا هنا يمكن أم نقرن بين الملحوظة رقم ١ والملحوظة رقم٤ على أنهما مترابطتان وتخصان جماعة واحدة من البشر. ولنفترض مبدئياً أن يوسف هو فعلاً إبن يعقوب المهاجر من كنعان الى مصر للإقامة فيها في إطار هجرة اقتصادية بحثاً عن حياة أفضل، خاصة وأن يوسف حقق في مصر قدرا من الثراء والمكانة

الاجتماعية.

وكان هناك في نفس الوقت جماعات من العبيد بدأت تتزايد بشكل خشي منه هذا الملك، فأذل هؤلاء العبيد في بناء المزيد من المدن له.

وورود إسم رعمسيس كإسم مدينة قام (العبيد) بنائها، يجعلنا نكاد نجزم بأن توقيت هذه الأحداث تزامن مع عصر رمسيس الثاني أو قبله بقليل وأن فرعون الخروج هو رمسيس الثاني أو بعده بفترة وجيزة.

ويلاحظ في سفر الخروج،الإصحاح الثاني، أن الحديث يدور عن العبرانيين وليس عن بني إسرائيل، وبالتالي فإنه ينسب موسى الى العبرانيين. ودليل ذلك

١- رقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين (٦/٢).

٢- هل أذهب وأدعوا لك مرضعة من العبرانيات (٧/٢)

٣- فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته (١١/٢).

هذا فيما يخص موسى العبراني ، الذي قتل أحد المصريين وهرب الى صحراء مدين.

لكنا نجد الإصحاح الثاني فقرة٢٣ يقول فجأة "وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر قد مات. وتنهد بنو إسرائيل من العبودية.... ونظر الله بني إسرائيل.

وبالتالي فنحن هنا أمام حدثين منفصلين. الأول قصة موسى العبراني والثاني صراخ بنو إسرائيل (العبيد) من العبودية في مصر.

في خروج ٣ يظهر الرب لموسى في الصحراء ويقول له

" أنا إله أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب .... إني رأيت مذلة شعبي الذي في مصر.... والآن هو ذا صراخ بني إسرائيل قد أتى اليّ .. فالآن هلم فأرسلك الى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من

مصر.

يفهم من ذلك أن الرب التقى موسى العبراني حفيد إبراهيم وإسحق ويعقوب وطلب منه (بصفته نبياً ورسولاً) أن يذهب الى مصر ليصعد (شعب الرب) أي عباد الله العبيد المستضعفين في مصر ليأتي بهم " ليعبدوني على هذا الجبل (١٢/٣) ، فقال له موسى (١١/٣) من أنا حتى أذهب الى فرعون وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر ". أي أن موسى قال للرب مالي وبني إسرائيل (العبيد) حتى أخرجهم من مصر. ما هي علاقتي بهم وأنا (العبراني) وما هي صفتي لهم. فقال الرب : إني أكون معك " (١٢/٣) .

ويمكن أن نصيغ الحوار الذي تم على النحو التالي :

الرب: أنا إله أبيك إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب..رأيت مذلة شعبي الذي في مصر.. هو ذا صراخ بني إسرائيل قد أتى اليّ.. هلم أرسلك الى فرعون وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر.

موسى : من أنا حتى أذهب الى فرعون وحتى أخرج بني إسرائيل من مصر.

الرب : إني أكون معك.

موسى: ها أنا آتي الى بني إسرائيل وأقول لهم إله آبائكم أرسلني اليكم . فماذا لو قالوا لي ما إسمه. ماذا أقول لهم .

الرب : هكذا تقول لبني إسرائيل "أهيه" أرسلني اليكم ...فإذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ بني إسرائيل الى ملك مصر وتقولون له الرب إله العبرانيين التقانا.

موسى : لكن ها هم لا يعرفونني ولا يسمعون لقولي. بل يقولون لم يظهر لك الرب.

الرب : (يظهر لموسى بعض المعجزات).

موسى : إسمع أيها السيد أنا لست صاحب كلام..أنا ثقيل الفم واللسان.

الرب : إذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به.

موسى : استمع أيها السيد بيد من ترسل .

الرب: اليس هارون اللاوي أخاك. كلمه وأنا أكون مع فمك ومع فمه وأعلمكما ماذا تصنعان. وهو يكلم الشعب عنك. هو يكون لك فماً وأنت تكون له إلهاً.

المشهد الثاني

دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل

موسى : أطلق شعبي ليعبدوا لي في البرية .

فرعون : من هو الرب حتى أسمع لقوله.لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه.

موسى : إله العبرانيين التقانا. نذهب سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب هناك، لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف.

فرعون : لماذا ياموسى وهارون تبطلان الشعب عن أعماله . إذهبا الى أثقالكما.

٣ـ ٢ هكذا ومن خلال هذا السيناريو المستخلص من رواية الكتاب المقدس ، يمكن أن نفهم أن موسى لم تكن له أي علاقة ببني إسرائيل ، حينما كلفه الرب بالرسالة اليهم " من أنا حتى أذهب . كما يتضح أيضاً من هذا الحوار أن موسى لا يعرف من هو هذا الإله الذي يكلفه بتبليغ رسالة الى بني إسرائيل. ونعرف أيضاً من خلال هذا السياق أن موسى رفض تحمل أعباء الرسالة (شأنه في ذلك شأن أغلب الأنبياء الذين ظهروا بعد ذلك في بني إسرائيل) .

وأيضاً من خلال القراءة المتأنية لباقي النص التوراتي كما ورد

في سفر الخروج يمكن أن نقف على هذه النقاط الهامة

١ـ أن هدف الرحيل لم يكن "كنعان" وإنما عبادة الرب في البرية (خروج ٢/١) " ليعبدوا لي في البرية".

٢ـ بعد عرض موسى وهارون أمر الخروج على فرعون مصر ورفضه لهذه الفكرة بقوله :" لماذا ياموسى وهارون تبطلان (الشعب) عن أعماله . إذهبا الى أثقالكما. وقال فرعون هو ذا الآن شعب الأرض كثير وأنتما تريحانهم من أثقالهم " (خروج ٥/٤).

يتضح لنا هنا ـ من هذه الفقرة ـ أن هناك احتمال كبير بأننا أمام ما يمكن أن نطلق عليه"ثورة عبيد"، ارتدت رداء الدين للتخلص من نير العبودية.

٣ـ جرت محاولة لتوفيق الأوضاع مع هذه الثورة من جانب فرعون يمكن أن نلمح أبعادها في الفقرات التالية :

.." اذهبوا واذبحوا لآلهتكم في هذه الأرض. فقال موسى لا يصلح أن نفعل هكذا لأننا إنما نذبح رجس المصريين للرب إلهنا. إن ذبحنا رجس المصريين أمام عيونهم أفلا يرجموننا ... (٢٥/٨).

... " فقال فرعون أنا أطلقكم لتذبحوا لإلهكم في البرية . ولكن لا تذهبوا بعيداً (٣/١٠).

... " اذهبوا أنتم الرجال واعبدوا الرب" (٦/١٠).

... " اذهبوا اعبدوا الرب غير أن غنمكم وبقركم تبقى . أولادكم أيضاً تذهب معكم". (٢٤/١٠).

٤ـ حدث الخروج (كهروب) مشكوك في صحته، والأرجح أن الخروج تم بمعرفة فرعون ومباركته ويتجلى ذلك في :

أ ـ " وعندما يطلقكم يطردكم طرداً من مصر" (خروج ١/١٠)

ب ـ " فطير لم يختمر لأنهم طردوا من مصر "(خروج ٣٨/١٢).

وهنا تحديداً في قضية فطير الفصح يمكن أن نختلف مع كل ما ذهب اليه العلماء من أن فطير الفصح لم يختمر لأن بني إسرائيل كانوا في حالة هروب متعجل لذا خرجوا دون أن يختمر الخبز. بينما نجد أن الأكثر منطقية هو لو أن بني إسرائيل قد حددوا لأنفسهم توقيت الهروب لأكملوا كل احتياطاتهم وخمر الخبز في موعده وقبل الانطلاق للهروب. أما لأنهم طوردوا وأرغموا على الخروج بعجلة فلم يختمر خبزهم. أو لنقل أن الأرجح الحالين معاً. لقد كان بني إسرائيل يرغبون في الخروج (هروباً) من فرعون ؛ لكن في نفس الوقت كان فرعون قد مل من مقاومته لهذه(الثورة) فأمر بإبعادهم فوراً.فما كان من بني إسرائيل إلا أن انتهزوا هذه الفرصة وحتى لا تتغير الأمور أو يجد جديد في هذا الأمر فخرجوا لتوهم من مصر دون أن يكونوا قد أكملوا استعدادهم للرحيل.

٥- أن الذين خرجوا من مصر كانوا عبيداً من جنسيات مختلفة. ويمكن أن نقف على ذلك من الآتي:

أ - كل من أكل مختمراً، يقطع من جماعة إسرائيل. الغريب مع مولود الأرض (خروج ١٢/١٩).

ب - " وصعد معهم لفيف كثير أيضاً (١٢/٣٨). علماً بأن هذه الفقرة في أصلها العبري تكتب هكذا"وجم عيرف راف علاه إتام". وكلمة "عيرف" تعني الدهماء/ أخلاط من الناس/ رعاع /عبيد . أي أنه يمكن أن تترجم أيضاً " وخرج معهم عبيد كثيرون أيضاً" أو " وخرج معهم أخلاط متعددة من البشر "

ج - " هذه فريضة الفصح، كل إبن غريب لا يأكل منه. ولكن كل عبد رجل مبتاع بفضة تختتنه ثم يأكل منه . النزيل والأجير لا يأكلان منه... كل جماعة إسرائيل يصنعون...وإذا نزل عندك نزيل وصنع فصحاً للرب

فليختتن منه كل ذكر ثم تقدم بيصفه فيكون كمولود الأرض (١٢/٤٣ - ٤٥).

٤ ـ٢ هكذا يمكن أن نلخص القصة على النحو التالي:

" أرسل موسى برسالة الى فرعون علّه يهتدي الى الله الواحد الأحد، ويرحم عبيده الذين استضعفوا في الأرض. تعنت فرعون. وآمن كثير من العبيد في مصر برسالة موسى التي يمكن أن تخلصهم من العبودية. وبعد صراع طويل طردهم فرعون من أرضه لأن الثورة استفحلت ولم يعد لهؤلاء العبيد أي نفع يمكن أن يعود على فرعون. ولعل هذا يفسر لنا عدم وجود أي ذكر لهم في السجلات المصرية، لأنهم عبيد تمردوا وطردوا دون أن يشكل هذا الموقف أي بعد في أوضاع الإمبراطورية المصرية الكبيرة مترامية الأطراف. وخرج موسى بقومه، الذين تسموا بني إسرائيل، ربما لأن الجزء الأكبر من هؤلاء العبيد كان من أبناء قبيلة إسرائيل، التي ربما كانت تنتسب بصورة أو بأخرى في ذاكرتها البعيدة لبعض القبائل الآرامية التي دخلت مصر في أعقاب يوسف. ولما مات فرعون الذي لا يعرف يوسف استعبدوا في مصر. ولما حدث الخروج خرجوا ومعهم "لفيف كثير أيضاً" من العبيد المستضعفين، تحت راية موسى النبي/الزعيم/ القائد، الذي عبر بهم نحو مرحلة جديدة في تاريخهم. وما أن خرجت هذه الجموع حتى بدأ يبرز بينها التناقض الذي هو في أساسه تناقض بين بنية قبائل متنافرة اتحدت معاً بهدف الخروج. وما أن تم ذلك حتى بدأ التناحر والصراع على السلطة. وقد حاول موسى ـ قدر جهده ـ أن يوقف هذا التناحر، إلا أن التيار كان أقوى منه وظهرت زعامات أخرى، من قبائل أخرى غير قبيلة إسرائيل، أو لنتقل من عناصر عبيد آخرين وتبوأوا مركز

الصدارة، وهم الذين قادوا مسيرة الدخول الى كنعان. لذا لم يظهر موسى في دخول كنعان لتخبرنا التوراة أنه قد مات قبل دخولها . ولعل قصة يشوع بن نون - حامل سلاح موسى وخليفته - خير دليل على ذلك.

الفصل الثاني

***

يشوع بن نون وغزو كنعان

١ - يعد انتقال "قوم موسى/الإسرائيليين" من مصر حركة هجرة أو لنقل حركة انتقال بشري جماعي يمكن رؤيتها في إطار حركة طرد من مصر وجذب من كنعان. على الرغم من أن المعطيات التاريخية كانت تشير الى حركة الطرد من جنوب الجزيرة الى شمالها أو من جنوب الجزيرة وشمالها الى مصر، المستقرة اقتصادياً آنذاك. إلا أن الحركة التي نحن أمامها الآن هي حركة عكسية أي من مصر الى داخل الجزيرة العربية وتحديداً الى شمالها. الأمر الذي قد يؤكد الافتراض بأن هذه الحركة لم تكن حركة هجرة منظمة من مصر بقدر ما كانت حركة طرد جماعي لأقوام غير مرغوب في وجودهم أصلاً. وكانت هذه الأقوام (من عبريين وغيرهم) عبارة عن قبائل بدوية وعبيد بدائيين حينما خرجوا من مصر وعبروا سيناء ووصلوا الى مشارف كنعان، لم يكن في استطاعتهم احتلال كنعان بطريق الغزو العسكري، بل لجأوا الى التغلغل التدريجي فيها، وكما يتضح من رواية سفر يشوع لاحتلال كنعان. وقد استمرت عملية التغلغل التدريجي في الفترة ما بين ١٢٥٠الى ١٢٠٠ ق.م وقد حقق هذا التغلغل قدراً من النجاح بفضل عدة عوامل تاريخية واجتماعية وسياسية، لعل أهمها هو الغياب المؤقت للإمبراطوريات العظمى آنذاك - فالإمبراطورية الحثية في الشمال كانت قد انهارت في الربع الأخير من الألف الثانية ق.م. وكانت عوامل الضعف بدأت تزحف على القوة المصرية في الجنوب والتي تضاءلت هيمنتها على كنعان. ولم تكن آشور قد أصبحت قوة عظمى ذات أهمية. أما كنعان ذاتها، فقد

كانت دول المدن الكنعانية قد أحرزت تقدماً حضارياً ملحوظاً. ويرجح أن بني إسرائيل قد أخذوا بلغة وحضارة كنعان بل وحتى بديانتها بسبب كونها جماعة بدائية تفتقر الى أدنى المقومات الحضارية (١).

ويمكن أن يتضح من سفر القضاة وقصة يشوع بن نون أن هذا الغزو كان مجرد استيطان في عدة جيوب غير مترابطة وبرغم كل التهويل بقتل عشرات الملوك وإبادة مدن بكاملها. كما يؤكد السفر أيضاً أن قوم موسى لم يجرؤا على الاختلاط بالكنعانيين والسكنى بينهم. وظل هذا الوضع فترة طويلة جداً.

وقبل أن نعرض لأحداث هذه المرحلة التاريخية، كما سردها سفر يشوع، لا بد من الإشارة الى أن هذا التغلغل المسمى بالغزو لم يكن غزواً بالمفهوم الكامل لهذه الكلمة بقدر ما كان تغلغلاً يعتمد على القوة العسكرية أحياناً والدهاء أحياناً أخرى والتزاوج والتسلل أحياناً ثالثة(٢).

١-٢ فترة التيه والتأهب للتغلغل في كنعان، من واقع الرواية التوراتية.

تحاول التوراة في أكثر من موضع أن تضفي على شخصية يشوع بن نون، الذي خلف موسى في قيادة "بني إسرائيل" وظل معهم حتى الغزو/التغلغل المسلح في فلسطين،بعض سمات النبوة وهالات القداسة، على الرغم من أننا نرى في بعض الفقرات في الرواية الدينية التوراتية هفوات قد تدلنا على الشخصية الحقيقية ليشوع . وسنترك ذلك للسياق.

تقول التوراة في سفر التثنية إصحاح٣٢ "دعى موسى يشوع وقال له أمام أعين جميع إسرائيل : تشدد وتشجع لأنك أنت تدخل بهذا الشعب

الى الأرض التى أقسم الرب لآبائهم أن يعطيهم إياها وأنت تقسمها لهم والرب سائر أمامك وهو يكون معك ".

ولا يمكن أن نفهم من هذه الفقرة إلا أننا أمام عملية سحب صلاحيات كاملة من موسى ومنحها ليشوع - سواء كان ذلك بإرادة موسى نفسه أو بأمر إلهي أو لنقل بصورة أخرى ، نتيجة لرغبة يشوع نفسه في الاثتئثار بهذه الصلاحيات، وهى صلاحيات توزع على ثلاثة محاور.

١ - " أنت تدخل بهذا الشعب الى الأرض التى أقسم الرب ". أي سحب القيادة العسكرية من موسى ومنحها ليشوع.

٢ - " أنت تقسمها لهم"أي منح يشوع القيادة الإدارية أيضاً.أو لنقل بمصطلحات العصر الحديث أن يشوع أمسك في يده بزمام السلطة العسكرية والسياسية.

٣ - إذا فسرنا تعبير"الرب يكون معك"تفسيراً صحيحاً ، فإنه يعني أيضاً سحب السلطة الدينية من موسى ومنحها أيضاً ليشوع ليستأثر بالثقة الإلهية فيه هو دون موسى ليصبح الحاكم العسكري والزعيم السياسي المدعم بالسلطة الدينية (سواء من الرب أو من الكهنوت الأعلى).

ومات موسى بعد أن قدم يشوع لليهود مسيحاً من الرب ومكلفاً من قبل السماء بتكملة مسيرة موسى. وفي الإصحاح ٩/٣٤ تقول التوراة - استكمالاً لهذه الصورة ولهذا الإيحاء بأن يشوع مبارك ومؤيد من الرب "ويشوع بن نون كان قد امتلأ روح حكمة إذ وضع موسى عليه يده فسمع بنو إسرائيل وعملوا كما أوصى الرب موسى .

وتستمر محاولة التوراة التأكيد على هذه النغمة في شخصية يشوع فنراها تقول في االإصحاح الأول من سفر يشوع " وكان بعد موت

موسى عبد الرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً " موسى عبدي قد مات. فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب الى الأرض التي أنا معطيها لهم، أي لبني إسرائيل، كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى، من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات... كما كنت مع موسى أكون معك لا أهملك ولا أتركك . تشدد وتشجع.

وهكذا حاولت التوراة أن تجعل من يشوع " كليماً للرب أيضاً كما كان موسى.

لكن وكما يتضح من القراءة المتأنية للسفر، مرجئين تعليقنا النهائى وتحليلنا لمعطيات السفر الى ما بعد تقديم كل الآراء، أن يشوع بن نون جرد الحركة التي خرجت من مصر بقيادة موسى من سياقها الديني والبسها ثوب الغزو والاحتلال، أي أنه حول هذه الجموع من جماعات دينية متجولة الى جماعات عسكرية بربرية واتبع في ذلك كل الأساليب الممكنة وغير الممكنة. فقد لجأ الى التجسس والدعارة لاستطلاع أخبار الأرض التي يتأهب بجموعه لغزوها. فنحن نرى في الإصحاح الثاني أنه أرسل جواسيس من رجاله لاستطلاع أخبار الأرض والوقوف على مدى استعداد سكانها لملاقاة هجومه عليهم. وبات الجاسوسين ليلتهم عند امرأة عاهرة ودفعا لها ثمن خيانتها لشعبها وثمن المعلومات والأسرار العسكرية التي قدمتها لهم. وكان الثمن هو التعهد لها بتقديم الأمان لها ولعشيرتها حينما يتم الغزو وتسقط المدينة في أيدي هذه الجموع المغيرة. وتمكن يشوع من معرفة كل أخبار الأرض بدءاً من أريحا وكل غرب الأردن. وفي أثناء استعداده للغزو أو للتسلل تصبح العلاقة بين يشوع والرب - وفقاً للنص التوراتي - كأنها علاقة من أجل الحرب فقط، علاقة بين القائد العام وأحد قواده. " اليوم

أعظمك في أعين إسرائيل لكي يعلموا أني كما كنت مع موسى أكون معك".

وفي الحقيقة فإنه ليس أمامنا مصدر تاريخي يمكن أن يحدثنا عن سير هذه الحروب التي خاضها يشوع ضد سكان البلاد الأصليين(إن كانت هناك حروب فعلاً) سوى المصدر التوراتي الذي استفاض في شرح هذه الحروب وفي شرح الخيانة من بعض القبائل المحلية التي سهلت لهم الاستيلاء على جزء من الأرض.

ويتضح مما يصوره هذا المصدر أنه رغم الجهود الضخمة التي قام بها يشوع والأساليب التى لجأ اليها ، ليسهل احتلال أرض كنعان ، فإنه أخفق، حيث لم يستطع السيطرة على الأرض كلها. ولم يتمكن من هزيمة كل القبائل المقيمة في كنعان .

وتستمر هذه الحروب زمناً بين النصر والهزيمةوالتقدم والتراجع الى أن يموت يشوع . وإذا تتبعنا هذه الحروب أو بعضها كما جاءت في سفر يشوع، سنجد أن يشوع أمر ببدء حملة لاحتلال أريحا، لكن كان ينبغي أولاً عبور نهر الأردن كخطوة أولى حتمية لبدء الهجوم. فسار الكهنة في المقدمة حاملين تابوت العهد ولما وصلوا الى النهر، دخلوا المياه باندفاع من على يقين بحصول عجيبة. وهذا ما حدث، ففي اللحظة التي وطأت فيها أقدامهم مياه النهر، وقفت المياه وكأن سداً غير مرئي فصل بينها. وبقي الكهنة في منتصف النهر، الى أن عبر الشعب كله. وتخليداً لذكرى تلك العجيبة، أقيم قرب نهر الأردن إثنا عشر حجراً. وما أن انتقل "تابوت العهد" الى الضفة الأخرى حتى عادت المياه الى مجراها المعتاد[٣]. ولما وصلت أخبار تلك العجائب الى ملوك الشعوب الأخرى دب اليأس في قلوبهم. وتشير التوراة الى أن واقعة الاستيلاء على أريحا وتهديمها كانا سبباً لحوك مؤامرات ضد "إسرائيل". فلما رأى

ملوك تلك المنطقة واقع فهم بني إسرائيل للاحتلال، وطريقة تعاملهم مع المدن التي يستولون عليها، قرروا الدعوة لعقد حلف ضد بني إسرائيل . لكن ملوك كنعان لم يحسبوا حساباً لعامل هام كانت له أهمية "مقدسة": لقد كان الرب نفسه مع يشوع بن نون، فنشر الفوضى والبلبلة بين صفوف جيشهم وطردهم في طريق عقبة بيت حورون، ورماهم وضربهم الى عزيقة والى مقيده"(يشوع.١٠/١٠).لكن يشوع لم يعتبر هذا انتصاراً كاملاً. "حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام إسرائيل، وقال أمام عيون إسرائيل: ياشمس دومي على جبعون وياقمر على وادي إيلون فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه. "فوقفت الشمس في كبد السماء، ولم تعجل الغروب نحو يوم كامل" ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده، سمع الرب صوت إنسان لأن الرب حارب عن إسرائيل" (٤).

كان يقود جيوش العموريين، التي أبادها بني إسرائيل، خمسة ملوك، بدا أنهم أفلحوا في التخلص من المعركة، فالتجأوا الى أحد الكهوف، ولما وصل الخبر الى يشوع أمر بإغلاق باب المغارة بحجارة كبيرة، فألقى الملوك الخمسة أنفسهم في مصيدة للفئران، ثم أمر يشوع بإخراجهم من هناك،وطلب الى قادة جيوشه أن"يتقدموا ويضعوا أرجلهم على أعناق الملوك الخمسة". وبعد أن أوسعوهم ضرباً، قتلوهم وعلقوا جثثهم على خمسة أعمدة، وفي المساء أعيدت الجثث الى الكهف، وأعيد إغلاق مدخله بالحجارة.

وتابع يشوع بن نون انتصاراته وبطولاته"الفذة"، فضرب كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها: لم يبق شارداً، بل حرّم كل نسمة، كما أمر الرب إله إسرائيل (يشوع.١٠/٤٠) ثم طارد الملوك الآخرين كلهم حتى صيدون، وقتلهم كلهم، ولم يبق أحداً منهم قط، عرقب

خيولهم وأحرق مركباتهم بالنار. ثم رجع يشوع في ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف (ونحن نعرف أيضاً أن حاتسور كانت زعيمة تحالف الملوك الخمسة، الذين سبق أن دفنوا في المغارة)؛ وضربوا كل نفس فيها بحد السيف حرّموهم. ولم تبق نسمة. وأحرق حاتسور بالنار(٥) ." وجاء يشوع في ذلك الوقت وقرض العناقين الملوك من الجبل، فلم يبق عناقيون في أرض بني إسرائيل، لكنهم بقوا في غزة وجت وأشدود "(٦) ." جميع الملوك واحد وثلاثون".

لكن قبل وفاة يشوع قام بتقسيم الأرض التي تمكن من احتلالها. وقسمها بنظام القرعة على أسباط (إسرائيل) الإثنى عشر. واعتباراً من الإصحاح ١٣ حتى ٢١، يسرد السفر بالتفصيل أسماء قطع الأرض التي وزعت على كل سبط من أسباط بني يعقوب. وفي آخر خطبه لهم حذرهم من ترك عبادة الرب والتحول الى عبادة آلهة غريبة حتى لا يسيء الرب لهم مرة أخرى ويفنيهم بعد أن أحسن اليهم . وفي النهاية نجده يقول لهم "الآن انزعوا الآلهة الغريبة التي في وسطكم وأميلوا قلوبكم الى الرب إله إسرائيل (٧) وإن كان لهذه الفقرة من معنى فإنها لا تعني سوى أن (بني إسرائيل) في هذه الفترة من تاريخهم كانوا قد حادوا عن عبادة الرب الواحد (يهوه) الذي عرفهم موسى عليه أو أنهم على الأقل عبدوا آلهة أخرى الى جانبه، أي أنهم وبعد عصر الآباء البطارقة (الموحدين) لا زالوا على توجههم بتعدد الآلهة.

٢ ـ البينات الآثارية :

قبل أن نعرض للأدلة الآثارية التي يمكن أن تلقي بعض الضوء على تاريخ هذه الفترة الهامة في المنطقة، نود أولاً أن نلقي بعض الضوء على الأقوام الرئيسية التي لعبت دوراً بارزاً في تكوين الشكل الديموغرافي

للمنطقة في هذا العصر .

ما من شك في أن أرض كنعان (فلسطين) تعوضت لثلاث حلقات كبرى من الأقوام التي شكلت وجهها. الحلقة الأولى هي الحلقة الكنعانية والمهاجرة أصلاً من قلب الجزيرة العربية. والحلقة الثانية هي الآرامية (الخبيرو).أما الحلقة الثالثة الهامة فهي المتمثلة في دخول بني إسرائيل والفلستين الى المنطقة في وقت واحد تقريباً. حيث دخلها بنو إسرائيل قبيل نهاية القرن الثالث عشر ق.م. تقريباً ، بعد أن خرجوا من مصر واستطاعوا أن يدعموا مواقعهم في بقعة جبلية من المنطقة الغربية للأردن، لكن ضمن شروط اقتصادية وبشرية لم تكن تحتمل توسعاً سكانياً كبيراً[٨]. وفي تلك الأثناء انطلقت حركة عسكرية متمثلة في شعب "البلست"، الذي ينحدر من الأقوام الإيجية. وكان ذلك في أوائل القرن الثاني عشرق.م، حيث تمكنوا من احتلال بعض السواحل السورية العليا. ثم انطلقوا نحو مصر بهدف احتلالها، وكان ذلك في عصر رمسيس الثالث (١١٩٨- ١١٦٦ق.م.)، إلا أنه تمكن من طردهم حوالي عام ١١٩١ق.م.، فما كان منهم ، وتحت وطأة ضربات المصريين، إلا أن يرتدوا الى الساحل الكنعاني الجنوبي في المنطقة الممتدة من غزة جنوباً الى أسفل يافا شمالاً. وهناك أسس هؤلاء الفلستيون خمس مدن (دول مدن) تمتد من الشمال الى الجنوب،وهى غزة وأشقاون(عسقلان) وجت وأسدود وعفرون.

وبالنسبة لدخول بني إسرائيل بلاد الشام وعبور نهر الأردن الى أرض كنعان، فإن نتائج الحفريات الآثارية في هذه المنطقة غير مشجعة على الإطلاق، حيث أنها تشير بوضوح الى بطلان الرواية التوراتية في كثير من أحداثها. فالمقاومة المسلحة التي واجهها الإسرائيليون من ملوك شرقي الأردن لا أساس لها من الصحة، من وجهة نظر علم الآثار، لأن

منطقة شرقي الأردن كانت خالية تماماً من المراكز الحضارية بين القرن السابع عشر والقرن العاشر ق.م. أما الاقتحام الصاعق للأراضي الكنعانية عبر الأردن وتدمير وإحراق مدنها الرئيسية فلم يقم عليه أي دليل تاريخي حتى الآن.

٢ ـ١ يلاحظ روجيه جارودي ملاحظة جديرة بالتوقف عندها ونحن بصدد البحث عن غزو "بني إسرائيل" لكنعان ودوافعه. يقول جارودي(٩) "يورد كتاب القضاة عن الدخول الى أرض كنعان رواية مناقضة لما يرويه يوشيا الذي يشير الى أن القبائل المتحررة تحت لواء دولة واحدة وقيادة واحدة، كانت أثناء مرورها تقتل السكان، بينما يشير كتاب القضاة الى أن الدخول الى كنعان بدأ بتسلل بطيء وسلمي على الأغلب، وعنيف أحياناً ولكن دون مجابهات كبيرة مع سكان المدن الكنعانية المزودين بعربات قتال يصعب منالها على القبائل الرحل التي تعمل كل منها لحسابها الخاص " .

وإذا صح ذلك، فإنه يقدم أدلة جديدة ودلالات كبرى على الدور الأيديولوجي الديني المتميز، الذي مارسته النخبة الكهنوتية في صوغ وبلورة أيديولوجيا الانتقام والتدمير التوراتية، وفي منحها طابع الشمول والالزام الديني والأخلاقي في أوساط "الرعية" "الإسرائيليين/ العبرانيين"، وكذلك في أوساط أخرى من الشعوب المحيطة، كوجه من أوجه الإيهام والهيمنة.

ولعله إذا غدونا أمام هذه المحصلة الدقيقة للمسألة، يصبح يسيراً أن نتبين معقداً آخر لها ـ وهذا هام على نحو خاص بالمعنى الاقتصادي والسيكولوجي ـ ذلك هو تكون موقف إشكالي من الأرض لدى اليهود العبرانيين:فهذه هي، في وقت واحد،الرغبة والشؤم، الطموح والإخفاق،

وأخيراً الباعث على توليد علاقة عدائية ووهمية بين الواقع والفكر، بحيث يفصد الواقع فكراً وهمياً إيهامياً، ويحول الفكر الوهمي الإيهامي الى الواقع الأعلى القطعي. وبالتالي فإن التعامل مع" الواقع" لابد أن ينطوي على احتمالات الصدام معه، ولكن ليس عبر أدوات أيديولوجية ومعرفية لها صلة واقعية ما، وإنما من خلال ذلك الفكر الوهمي الإيهامي. وهنا، يكون المرتع خصيباً للفاجعة والأزمة والمأساة والحقد والاضطراب والشعور بالذنب أوالخطيئة، خطيئة ما.

وإذا قلنا، أخيراً، أن الموقف الإشكالي من الأرض المأتي عليه مارس دوراً ملحوظاً في تكوين الشخصية الاقتصادية والسيكولوجية والشعوبية ٥(بمعنى العلاقة مع الشعوب المحيطة) لأولئك، فإن عملية الاندماج مع هذه الأخيرة ظلت تبرز طريقاً ممكناً لكثير من هؤلاء للخروج من المأزق التاريخي الاجتماعي.(١٠)

وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن غزوالإسرائيليين/ العبرانيين (بقايا الحثيين المختلطين بشعوب المنطقة) لفلسطين في مطلع القرن الثالث عشرق.م أسهم بقوة في تعميق اتجاه التبعثر على صعيد السلطة السياسية هناك، وفي تعقيد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية (بمعنى تحويلها الى علاقات مركبة وأكثر تنوعاً) فلقد كان هؤلاء إبان دخولهم البلد المذكور في المرحلة النهائية من العلاقات البدائية المشاعية - أما وجه التعقيد فيكمن في أن كلا الفريقين، الدخيل والمقيم الأصلي تأثرا بهذه العملية، عملية اقتحام البلد المستقر اقتصادياً وارغامه عى الاستجابة السريعة والتبيؤ السريع مع ظروف ووقائع جديدة من النهب الاقتصادي والتخريب الزراعي، على الأقل في المراحل الأولى من عملية الاقتحام.

لقد كان على تلك الأقوام، من طرف آخر،أن تخضع نفسها لعملية

طويلة وعسيرة ومعقدة من التبيؤ، بشكل أو بآخر ولكن بدرجة أولية ضرورية، مع الوضعية الجديدة، وبصورة خاصة في الحقلين الاقتصادي الاجتماعي والديني الأيديولوجي. وهذا ما حدث فعلاً؛ وإنما بشكل جزئي وبطيء معقد صعب.ولا سبيل الى تجاوز المطلب التالي، وهو من أنه من أجل التمعن في آلية ما حدث هنا، ينبغي أن نلاحظ أمرين اثنين، وأن نمنحهما اهتماماً مركزاً.

الأول منهما يتمثل بكون تلك الأقوام دخلت فلسطين في سياق اقترانها دينياً ذهنياً بيهوه. وفي الحالة التي نتحدث عنها الآن، مثل هذا الأمر تجسيداً دينياً مشخصاً للجناح الذي أخذ بالتمايز اقتصادياً واجتماعياً(طبقياً) عن الآخرين من أبناء قومهم وبالاثراء المطرد على حسابهم. وبتعبير آخر نصوغ هذه الفكرة التي نراها بالغة الأهمية والدلالة التاريخية، فنقول أن دخول أولئك الى فلسطين تم بفعل التحريض الاقتصادي المعاشي المباشر (بحوافز دينية أيديولوجية) وغير المباشر(عوامل القمع السياسي)، الذي نظمه هذا الجناح وقاده وضبط أهدافه. فهذه الوظيفة تنهض - والحال كذلك - على انجاز مهمة احتلال الإراضي الفلسطينية، حيث يسيل "اللبن والعسل"، أي حيث تتمكن تلك الأخلاط الأقوامية المشردة والجائعة من أن تنهي تشردها وجوعها التاريخيين. (١١)

أما الأمر الثاني فيكمن في أن عملية التبيؤ المرتقبة والمطلوبة في حال نجاح الغزو ما أن بدأت تأخذ بعض أصدائها وآفاقها وتطرح مشكلاتها واعتباراتها الخاصة، حتى طفقت تواجه عوائق جدية وخطيرة، ومهددة لها في حالات عديدة.

لقد كان من مقتضيات وشروط تحقيق مطامع ومطامح تلك الفئة الاجتماعية (الدينية) الدخول في رحاب تناقض ذي أوجه اقتصادية

واجتماعية وأيديولوجية (دينية): فمن ناحية كانت مطامعها ومطامحها بغزو أرض اللبن والعسل تدفعها دفعاً باتجاه الأرض، بما يقوم عليها من نمط اقتصادي انتاجي متقدم تاريخياً بالقياس الى العلاقات الانتاجية الخاصة بجحافل الأخلاط البدوية المتقدمة نحو فلسطين، أي بما تنطوي عليه الأرض من تمثلها واستيعابها حضارياً (بمعنى التحول من البداوة الى الزراعة. ومن ناحية أخرى، أخذت تلك القوة الكهنوتية تتحسس مخاطر هذه الاحتمالات عليها، خصوصاً حيث حققت عملية التمثل والاندماج بسكان الأرض الجديدة، الكنعانيين، وتائر ملحوظة، أي أخذت جموع اليهود العبرانيين في الانصهار بالوضعية الاقتصادية الزراعية، وبالحياة العقدية الدينية، والقواعد والضبط والتقاليد الاجتماعية لأولئك وفي عقر دارهم.

وهنا في هذا المنعطف الحرج، أخذت تتبلور على أيدي الكهنوت محاولات أولى باتجاه إيجاد وضعية صارمة من الانعزال حيال "الآخرين" والرفض لهم والشعور بالتميز إزاءهم، وذلك في أوساط "رعاياه" من اليهود العبرانيين عموماً، وأوساط من اندمج منهم بالكنعانيين أو كان في طور الاندماج، على نحو الخصوص. وهنا تحديداً ، بدأت معركة كبرى وهائلة ومديدة بين اتجاه الاندماج و"الانصهار" الحضاري الطبيقي الجديد من طرف، واتجاه المحافظة على "النقاء" من طرف آخر، مع الاستمرار في مطلب الحرص على امتلاك خيرات مجتمع "العدو" الحضاري الجديد، دون الانخراط في سياقه الداخلي والخضوع لحركته الدينامية الداخلية. وهذا ما عني بالضرورة ، الدعوة اللاهثة الى تدمير الآخرين (الخطر المحدق) ، لكن بعد الاستحواذ على إرثهم، أي - وبصورة أكثر دقة - بعد السطو على هذا الإرث. كان على ذلك أن يتم ، بحيث يغدو وطن أولئك حقاً شرعياً ومصوناً لهم، بينما يغدو هؤلاء أغراباً في وطنهم، إن

اتيحت لهم إمكانية البقاء فيه(١٢)

" وأعطيك أرض غربتك لك ولنسلك من بعدك جميع أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون لهم إلهاً" (١٣)

وهكذا نجد أنه بسبب جموح الكهنة (السادة) باتجاه وضع اليد على فلسطين،البلد "الموعود" و"عطية" الرب يهوه، كان أقوى وأكثر فاعلية وتأثيراً من أى تحسب لنتائجه البعيدة الخطرة المحتملة وغير المحتملة، إضافة الى أنه جسد الخيار الذي لعله كان فعلاً الخيار الوحيد للخروج من"مأزق "حياة الرحالة، ولذلك نقول، أنه كان ضرورياً أن يحدث ما حدث - تعبئة وقيادة وتنفيذاً- على أساس من طاعة مطلقة عمياء من قبل جموع الإسرائيليين/ العبرانيين لمن نصبهم الرب (أو نصبوا هم أنفسهم) وسطاء مباشرين بينهم وبينه؛ وهم الكهنة بالطبع. إن العهد المقطوع بالدم وبشريط متصل من القرابين والأضحيات الخ.. بين الرب والإسرائيليين/العبرانيين يتضمن شرطين قطعيين، لا يصح أحدهما بدون الآخر، وبهما معاً تتحقق الأهداف الكبرى: أن يمنح الرب أرض كنعان لشعبه المختار المصطفى دون تباطؤ وأن يطيع هذا الشعب ربه (كهنوته) ويسلك طريق الوفاء والإخلاص له وحده.

"إنكم جائزون الأردن الى أرض كنعان، فتطردون جميع أهل الأرض من وجهكم وتبيدون جميع منقوشاتهم وأصنامهم المسبوكة ومشارفهم تدكونها، وتملكون الأرض وتقيمون بها فإني قد اعطيتها لكم ميراثاً. ترثون الأرض بالقرعة على حسب عشائركم....وإن لم تطردوا أهل الأرض من وجهكم كان من تبقونه منهم كإبرة في عيونكم وكحربة في جنوبكم يضايقونكم في الأرض التي أنتم مقيمون بها"(١٤)

٢ ـ٢ لقد كانت المؤثرات المعاشية الجغرافية الجديدة كبيرة وعملاقة

على هذه الجموع/الأخلاط، لكنها ملكت الشجاعة والحزم على "الخروج عن الطوق" ،والوصول الى المبادرة الكبرى: تقبل "الوثنية الكنعانية"، وثنية الأقوام الجديدة في العوالم الجديدة. وفي الطريق الى تقبل هذه الأخيرة والى الامتثال لمقتضياتها،كان "الإسرائيلي/العبراني" قد اكتشف أن تلك الوثنية متفوقة على "يهواه" في نقطتين كبيرتين وحاسمتين؛الأولى هي أن هذه الوثنية وإن ظهرت تعددية دينية، الا أنها كانت ضمن منظومة من الأنساق والعلاقات قادرة على إبراز ما كمن وراءها وداخلها، وهو الوحدة. وهنا تبرز النقطة الثانية، التي نلاحظ أنها اتضحت بشكل أكثر فاعلية وتأثيراً وإفصاحاً في مجال العلاقات البشرية الزراعية المباشرة. أما السبب في ذلك فيكمن في أن تلك الفاعلية وذلك التأثير وهذا الافصاح كمنوا في وجه من أوجه الممارسة الديموقراطية التعددية، أو على الأقل في توافر احتمالات نشوء وترعرع مثل هذه الممارسة في مجتمع زراعي.

لقد كان على بني إسرائيل، الذين دخلوا كنعان،أن يعيدوا النظر في بناهم الاجتماعية والاقتصادية والتنظيمية والأيديولوجية الدينية، لكي يتمكنوا من الانخراط بعمق في المجتمع الجديد؛ أي كان عليهم أن يقدموا على الاندماج والانصهار فيه، محققين - شيئاً فشيئاً - ببطء لكن بثقة ونجاح - عملية كنعنتهم التاريخية. وهذا وإن حدث فعلاً بنجاح في حالات معينة يمكن رصدها وضبطها، فإنه كان عليه أن يعني التضحية بجل معطيات وقيم العالم البدوي الرعوي.وكان على الغزو القتالي الذي يدمر النسل والزرع أن يفسح الطريق لاحترام "الأرض" والاندغام بها واكتشاف الاتحاد بها؛ كما كان على الزعامات البدوية المتناثرة أن يطاح بها لصالح حد ضروري من مركزية ووحدة الزعامة والقيادة.وربما عند هذه النقطة تحديداً تبلور المركز الهنوتي المسيطر على حياة هذه

الجموع، والذي أوهمها بأنه يحكم باسم يهوه، حتي يستطيع أن يحقق أكبر قدر من المكاسب الشخصية وختى يتسنى لهذه السيطرة الاستمرار الى الأبد.

أما الاعتبار الثاني، الذي عقد عملية انتقال بني إسرائيل/العبرانيين من عالم البداوة والرعي عالم الزراعة، فقد تجسد بالجهود الدءوبة والمركزة، التي بذلتها القيادة الكهنوتية باتجاه تكريس واضح وواع لعزل رعاياها عن المحيط الجديد، وباتجاه التأكيد المضخم على "أصالتهم" وتميزهم واصطفائهم إزاء ممثلي ذلك المحيط: أن نمتلك مايمتلكه الآخرون دون العيش معهم والاندماج بهم، أو على الأقل الانفتاح عليهم .(١٥).

والآن ، وإذا وضعنا الاعتبارين المأتي عليهما بحسباننا ومن موقع كونهما يشكلان وجهين لقضية واحدة، فإن أمراً ذا أهمية خصوصية بالغة يتضح أمامنا وقد فرض نفسه على بساط البحث؛ ذلك هو تعقد واضطراب العلاقة التراثية بين الوافدين من الإسرائيليين/العبرانيين المعبئين بالأيديولوجيا الكهنوتية اليهودية القائمة على وهم "الشعب المختار المصطفى" والمتحد في "حلف" لا يهزم مع يهوه من طرف وبين الموروث الذي وجدوا أنفسهم أمامه في البلد الجديد من طرف آخر.

فمنذ البدء الباكر، تولدت علاقة تكتنفها عقد التواتر بين الحقد والعداء والحسد،والنفاق والتزلف، وكذلك الرغبة الدفينة،المفصح عنها أحياناً والمتنكر لها أحياناً أخرى، في تحقيق حد من التفاهم والالتقاء أو التزاوج والاندماج.إذ بغض النظر عن الحركة الموضوعية،التي تمثلت باندماج جموع من اليهود العبرانيين في المجتمع الكنعاني، نلاحظ أن تيار الرفض ومناصبة العداء لتلك الحركة من طرف الكهنوت المتزعم، قد ولّد أشكالاً عديدة من الاضطراب في الحياة الاقتصادية والاجتماعية

والسيكولوجية والجنسية في أوساط اليهود عامة،وأوساط أولئك الذين حققوا منهم درجة أو أخرى من اندماجهم أو كانوا على طريق الاندماج بصورة خاصة. (١٦)

هوامش ومراجع الفصل الأول

(١) تكوين ٢٠/٢٢ ـ٢٤ . ٢٧/١ ـ٣٦ ، ٣٩/ ١ ـ ٥ ، ٥٠/٢٦

(٢) طيب تيزيني. م.س.ذ. ص٨١

(٣) تكوين ٤٦/ ٣١ ـ٣٤

(٤) طيب تيزيني. م.س.ذ. ص١٨٣

(٥) كمال الصليبي. م.س.ذ ص١٢٣

(٦) طيب تيزيني. م.س.ذ. ص٨٦

(٧) ول ديورانت. قصة الحضارة. م.س.ذ. ص٣٢٤

(٨) طيب تيزيني .م.س. ذ. ص٩٦ ـ٩٧

(٩) خروج ١٢/ ٣٧ ـ٤٠

(١٠) خروج ١٠/ ٢٢

(١١) عدد ٢٣/١

(١٢) خروج ١٧/ ٨ &

(١٣) خروج ١٨/ ٣٤ ـ ٣٧

(١٤) خروج ٣٢

(١٥) خروج ٣٢/٩

(١٦) خروج ٣٢/ ١٢ ـ ١٤

(١٧) خروج ٢/٤ ، عدد ٧/٧

(١٨) خروج ١٧/١١

(١٩) مدراش شوحر طوف ١٢/٩٨

(٢٠) نفس المصدر ١٧/ ٢٤

(٢١) نفس المصدر ١٧/ ٢٦

(٢٢) خروج ٢/٤

(٢٣) مدراش شوحر طوف ٥/٣

(٢٤) تثنية ٥/ ١٤ ـ١٥
(٢٥) مدراش تنحوما ١٦/٦٧
(٢٦) توسفتا زوتيرت. ٩/٢١
(٢٧) شيموت رابا ٢٩/٣٣
(٢٨) مدراش شوحر طوف ٣/٥
(٢٩) جيمس فريزر م.س.ذ. ص١٨٩
(٣٠) ول ديورانت. م.س.ذ. ٣٢٧
(٣١)صبري جريس. التراث اليهودي الصهيوني والفكر الفرويدي. القاهرة ١٩٧١ ص ٨٨
(٣٢) سيد القمني. م.س.ذ ص١٠٩
(٣٣) محمد العزب موسي . موسى والتوحيد . القاهرة ص ٥٨
(٣٤) نفس المصدر ص ٥٩
(٣٥) نفس المصدر والصفحة
(٣٦) نفس المصدر ص ٦٢
(٣٧) طيب تيزيني. م.س.ذ ص٩٩ عن ديورانت ص٣٢٦
(٣٨) أندريه باشان . مجلة الهلال . نظرية جديدة في خط الخروج من مصر ص ٨٨
(٣٩) نفس المصدر ص ٨٩
(٤٠) دي بورج. تراث العالم القديم . سلسلة الألف كتاب. القاهرة ١٩٧١ ص ١٨١
(٤١) صبري حريس م.س.ذ ص٩٢
(٤٢) نفس المصدر ص٩٣
(٤٣) دانيال روبس. إسرائيل والعالم القديم م.س.ذ . ص١٦٢
(٤٤) ول ديورانت. م.س.ذ ص٣٢٣

(٤٥) نفس المصدر والصفحة

هوامش ومراجع الفصل الثاني

(١) فراس السواح. الحدث التوراتي. م.س.ذ. ص١٥٥

(٢) طيب تيزيني. م.س.ذ ص١٠٦

(٣) يشوع ٣/٤

(٤) يشوع ١٠/ ١٢ ـ١٤

(٥) يشوع ١١/ ٩ ـ١١

(٦) يشوع ٢١/٢٢

(٧) يشوع ٢٤/٢٣

(٨) فراس السواح. م.س.ذ ص١٥٨

(٩) روجيه جارودي. ملف إسرائيل . أحلام الصهيونية وأضاليلها.
جريدة السفير ، بيروت ١٩٨٣/٢/١٨ عن تيزيني ص١٠٠

(١٠) طيب تيزيني. م.س.ذ. ص١٠٥

(١١) نفس المصدر ص ١٠٧

(١٢)نفس المصدر ص١٠٩

(١٣) تكوين ٨/١٧

(١٤) عدد ٢٢/ ٥١ـ ٥٦

(١٥) طيب تيزيني م.س.ذ ص١٥٣

(١٦) نفس المصدر ص ١٥٤

الباب الثالث
الإسرائيليون في فلسطين

الفصل الأول
عصر القضاة

==========

١ ـ تعرف فترة عصر القضاة بأنها الفترة التي أعقبت وفاة يشوع بن نون وقد استمرت هذه الفترة حوالي مائة وستين عاماً(من ١١٨٠ ـ ١٠٢٠ ق.م.) ولم يعرف اليهود خلالها الاستقرار، إذ دفعت بهم نزعة العدوان التي سادتهم الى حروب مستمرة مع جيرانهم الكنعانيين والمديانيين والعمونيين والفرزيين، واستولوا فيها على القدس وأضرموا فيها النار، إلا أنهم هجروها بعد فترة وجيزة ولم يركنوا الى الإقامة بها، لأنها ـ حتى تلك اللحظة ـ لم تكن تعنيهم في شيء ولم يروا فيها أي أهمية، دينية أو سياسية أو إقتصادية، تدفعهم الى التمسك بها. كما دفعت بهم نزعة العصيان الى التقلب بين عبادة "الرب إله إسرائيل" وعبادة غيره من الأرباب" فعبدوا البعليم والسواري[١]."ولما شدد الرب عجلون ملك مؤاب عليهم لأنهم عملوا الشر عبد بنو إسرائيل عجلون ملك مؤاب ثماني عشر سنة[٢]..."وزنوا وراء البعليم وجعلوا لهم بعل بريت إلهاً[٣].."وعبدوا البعليم والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة مؤاب وآلهة عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه[٤].

وبالإضافة الى هذه الفوضى الدينية التي سادت عصر القضاة، فإنه اتسم أيضاً بالفوضى الشائعة التي تصفها التوراة بقولها "في تلك الأيام لم يكن ملك في إسرائيل، كان كل واحد يعمل ما يحسن في عينيه[٥]. كما تميز هذا العصر أيضاً بالانحلال الجنسي. فعلى سبيل المثال " وكان يفتاح الجلعادي جبار بأس وهو إبن إمرأة زانية[٦] وقصة

شمشون والزانية[٧] ويكفي أن نقرأ الإصحاح التاسع عشر للتعرف على الفوضى الجنسية التي سادت هذا العصر. ولقد لخصت المزامير أوزار هذا العصر بقولها " وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان، وأراقوا دماً ذكياً دم بنيهم وبناتهم الذين ذبحوهم لأصنام كنعان وتدنست الأرض بالدماء. وتنجسوا بأعمالهم وزنوا بأفعالهم[٨]

ويمكن أن تفيدنا قصة التوراة عن هذا العصر من الناحية التاريخية، بأن بني إسرائيل حاربوا أهل تلك الديار من الذين كانت لهم قوة في مناطقهم ومدنهم في غرب الأردن ونجحوا في بعض حروبهم وأخفقوا في كثير منها،إلا أنهم لم يستقروا أبداً. فقد كانوا يتعرضون لغارات كثيرة من سكان هذه البلاد، ترجعها التوراة الى الانحرافات الخلقية والاجتماعية والدينية التي ارتكبها بنو إسرائيل في هذا العصر. وكذلك لم يستطع الإسرائيليون أن يوفروا لأنفسهم استقراراً أو أمناً في هذه المنطقة إلا في عصر الملوك وبصورة محدودة نسبياً ولفترة محدودة أيضاً.

ويمكن أن نخلص من رواية العهد القديم عن هذه الفترة في تاريخ اليهود الى أن القاضي كان يتم اختياره أو أنه كان يفرض نفسه للزعامة بصفاته الشخصية وأحياناً الجسمانية، وقد يوضح لنا ذلك أن الاختيار الذي تفترضه التوراة لم يتطرق لعامل الأصالة أو المركز الاجتماعي ولم يتم اختيار القضاة بالوراثة بل كان القاضي يظهر ليخلص الإسرائيليين من ضائقة ما. والملاحظ أن معظم هؤلاء القضاة كانوا قادة عسكريين تتركز مهمتهم في تخليص قومهم من استعباد الشعوب الأجنبية لهم. ولم يكن للقاضي أي طابع قومي أي أنه لم تكن له سلطة على كل القبائل الإسرائيلية بل كانت سلطته تنحصر في قبيلته وبعض القبائل المجاورة أحياناً، وهناك حالة واحدة من هؤلاء

القضاة كان لها الطابع القومي، وهى حالة القاضية دبورة وكانت تشمل زعامتها أكثر من نصف القبائل الإسرائيلية كما يلاحظ أيضاً أن هؤلاء القضاة لم يكونوا بصفة عامة حكاماً بالمعنى المفهوم لكلمة حاكم. كما أن القضاة لم يتسلسلوا تسلسلاً تاريخيا بل أن هناك بعض الحالات تزامن فيها أكثر من قاضي وبهذا يمكننا القول بأن قصص القضاة لا تمثل تاريخاً مسلسلاً للإسرائيليين بقدر ما تفيدنا في معرفة الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشوها في هذا العصر وأيضاً فإن هناك عدد من هؤلاء القضاة ليس لهم أي وجود تاريخي بل ينحصر وجودهم في وجدان اليهود كمأثورات شعبية.

١-١ بعد دراسة السفر قسم الباحثون هؤلاء القضاة الى مجموعتين.

المجموعة الأولى :

وهي مجموعة القضاة الكبار الذين كان لهم تأثير على الحياة اليهودية خلال الفترة التي قاموا فيها بأعمال لصالح الإسرائيليين

وهؤلاء القضاة حسب ترتيبهم في سفر القضاة: عتيل، إيهود شمجر بن عنت، جدعون ، ديبورة، يفتاح الجلعادي، شمشون .

المجموعة الثانية :

وهم القضاة الذين اعتبرهم الباحثون قضاة صغار. وهم القضاة الذين لا ينسب السفر لهم أعمالاً بطولية كبيرة، وعلى ما يبدو من خلال السرد في سفر القضاة، أنهم كانوا من أصحاب السطوة في قبائلهم وهم حسب تسلسل ورودهم في السفر : تولع بن فوة، يائير الجلعادي إبصان البيتلحمي، إيالون الزبولوني ، وعبدون البرعتوني .

ويمكن ملاحظة أن هناك سمة عامة تميز سفر القضاة وقصصهم

وهى أن كل قاض من هؤلاء القضاة خاض معركة عسكرية ضد عدو من طراز خاص ومختلف هدف الى القضاء على الأغراض التوسعية الإسرائيلية. فمثلاً خاضت ديبورة حربها ضد الكنعانيين، بينما خاض جدعون حربه ضد القبائل الجوالة في فلسطين، وإيهود ويفتاح الجلعادي ضد الشعوب التي كانت تعيش على حدود فلسطين في شرق الأردن (المؤابيين - العمونيين) . وخاض شمشون حربه ضد الفلسطينيين.

١-٢ يبدأ سفر القضاه رواياته بوصف حرب قبيلتي يهوذا وشمعون ضد عشرة آلاف كنعاني يقودهم أدوني بازق. وأبيد هذا الجيش عن بكرة أبيه وسيم أدوني بازق أقسى العقاب قبل أن يذبح، فاقتلع اليهود الأصابه الكبيرة من يدي الرجل وقدميه.وعندئذ قال أدوني بازق: "سبعون ملكاً مقطوعة أياديهم وأرجلهم كانوا يلتقطون تحت مائدتي؛ وكما فعلت ، كذلك جازاني الرب. وأتوا به الى أورشليم فمات هناك[٩] إذاً كان أدوني بازق ملكاً جباراً، طالما أنه استطاع أن يأسر سبعين ملكاً. وتقول التوراة أن عاصمته كانت في مدينة بازق، لكن علماء الآثار والمؤرخين لم يجدوا أى أثر لهذا الملك الجبار أو لمملكته. وهو أمر غريب لأن المائدة الكبيرة التي كان يقتات تحتها سبعون ملكاً، كانت قمينة وحدها أن تصنع له مجداً لا ينسى. وربما دفعنا هذا الى القول بأن هؤلاء الملوك الذين يتحدث عنهم السفر لا وجود لهم إلا في خيال المدون، أو أنهم إن كانوا موجودون تاريخياً فإنهم ليسوا أكثر من شيوخ قبائل بدوية رحالة وليسوا بأي حال ملوكاً لشعوب مستقرة.

وربما دعم فرضيتنا هذه أننا لو أضفنا هؤلاء الملوك السبعين الى الملوك الواحد والثلاثين الذين أبادهم يشوع بن نون، لأصبح لدينا، اضافة الى أدوني بازق، مائة وملكان؛ أي أنه كان يوجد في أرض كنعان

مائة ومملكتان على الأقل." فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم زوجات لهم، وأعطوا بناتهم لبنيهم، وعبدوا آلهتهم"(١٠).

ولكي نستطيع أن نعطي تقويماً أفضل لتلك الزيجات الغريبة، ينبغي علينا أن نستذكر مرة أخرى أن جيش يشوع بن نون المؤلف من ست مائة الف مقاتل، كان قد أباد سكان هذه البلاد حتى آخر نسمة، وإذا كان موسى قد أبقى على إثنين وثلاثين ألف عذراء كنعانية، فإن خليفته لم يبق على أي كائن حي. "فحمي غضب الرب على إسرائيل ودفعهم الى أيدي كوشان رشعتايم"ملك آرام النهرين، فعبد بنو إسرائيل رشعتايم ثماني سنين (١١).

وهنا ينبغي علينا أن نختار بين تاريخ يشوع بن نون وتاريخ القضاة،لأن أحد هذين التاريخين مخطيء بالضرورة فالسفرين يحتويان على تناقضات كبيرة وينفي أحدهما الآخر نفياً قاطعاً. "فليس من المعقول أن يسقط الإسرائيليون في العبودية مباشرة بعد أن أبادت جيوشهم الجبارة سكان أرض كنعان الأصليين كلهم، ثم من هو كوشان رشعتايم ملك بلاد ما بين النهرين الذي نزل على بني إسرائيل ووضع القيود في أرجلهم وأيديهم؟ كيف جاء من بلاده البعيدة؟ ولماذا لا نعرف عنه شيئاً ولا عن حملته ؟ (١٢)

ويستطرد سفر القضاة بعد ذلك ليقول:"بعد ثماني سنوات ظهر القاضي عثنيئيل وحرر اليهود من العبودية، وأنهم قتلوا كوشان(١٣) (٩-١٠) لكن التوراة لم تعط أي معلومات أخرى عن تلك الحرب ولم تشر اليها أيضاً أي مصادر تاريخية أخرى .

وفي موضع آخر يستطرد سفر القضاه في وصفه لهذا العصر المتخيل فيقول "وبعد أربعين عاماً سقط اليهود من جديد عبيداً عند

الملك المؤابي عجلون[١٤]؛ هذا على الرغم من أن مملكة مؤاب كانت قد بادت واندثرت منذ زمن طويل، كما تقول التوراة نفسها، كما أبيد سكانها المؤابيون والمديانيون على يد اليهود أكثر من مرة، وفي كل مرة لم يكن يبقى أحد منهم؟!.

لقد استمرت العبودية المؤابية ثمانية عشر عاماً، الى أن انتهت على يد إهود وهو يهودي لا تقول عنه التوراة أكثر من أنه رجل أعسر. كمل الهدايا الى الملك عجلون وطلب أن يستقبله على انفراد، متذرعاً بأن عنده له سر يريد أن يفضي به اليه. فأمر الملك الحضور بالخروج وبقي مع اليهودي وحيداً، فاستل الأخير سيفه وضربه به في بطنه ثم فر هارباً دون أن يراه أحد[١٥]. فأيقظت هذه العملية الحماس في صفوف"اليهود"، فقاموا وقتلوا عشرة آلاف مؤابي وعم السلام البلاد ثمانين عاماً.

" وكان بعد أهود شمجر بن عنت الذي قتل ست مائة فلسطيني بمنساس البقر، وهو أيضاً خلّص إسرائيل[١٦].

١-٣ إذا تحدثنا بشيء من التفصيل عن بعض هذه الشخصيات وحاولنا اختيار أهمها وأكثرها تأثيراً في تاريخ "بني إسرائيل"، فإننا سنجد أولهم دببورة(النبية).وترجع أهمية هذه(النبية) في سفر القضاة الى قصتها التي احتوت على أقدم نموذج وجد حتى الآن من الشعر العبري حيث أرجعه العلماء الى القرن الثاني عشر ق.م. وتسجل هذه القصيدة صراع ديبورة وباراق قائد جيشها ضد الكنعانيين. وقد لاحظ العلماء في دراستهم لهذه الشخصية أن هناك اختلافاً واضحاً في سرد قصة الحرب ضد الكنعانيين(قضاة٤) وبين القصيدة الشعرية التي تنسب الى ديبورة، ويرى معظم العلماء أن القصيدة كانت أصدق في تسجيلها

للوقائع لأنها دونت عقب الأحداث مباشرة فسجلتها وصورتها تصويراً حياً. ويعتقد بعض العلماء أن هذه القصيدة هي قصيدة النصر التي قرضتها ديبورة(النبية) عقب انتصار اليهود على سيسرا قائد جيوش الكنعانيين .

تحدثنا القصة الواردة في سفر القضاة عن هذه الحرب أنه كان بين بني إسرائيل والكنعانيين صراع على بعض المناطق في المنطقة السهلية التي كان يسيطر عليها الكنعانيون، وبينما كان الإسرائيليون يقيمون في الجبال وكان الجيش الكنعاني أقوى من هجمات الإسرائيليين. فقد كان مزوداً بالحصون وبالعربات الحربية التي استعصت على هجمات "بني إسرائيل". وهنا ظهر باراق بن أبي نوعم القاضي العسكري لبني إسرائيل ومعه ديبورة النبية ليقود جيشاً يهودياً قوامه عشرة آلاف رجل مسلح من سبطي نفتالي وزبولون، ويخرج سيسرا قائد جيوش يابين ملك الكنعانيين لملاقاتهم. وحدث ذلك في الوقت أن فاض نهر قيشون وأغلق السهل فتعثرت عربات ومركبات سيسرا فانقض عليهم اليهود وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة وفر سيسرا الى الجبال باحثاً عن ملجأ يختبيء به فتلقفته هناك إمرأة تدعى ياعيل زوجة حابر القيني، وقالت له لا تخف أدخل خيمتي فإن أعدائك في ركابك. وصدقها سيسرا ونام عندها فقامت ودقت وتد الخيمة في صدغه فمات في الحال. ثم قامت بتسليمه الى باراق وجنوده.

١ـ٤ كعادة اليهود دائماً كلما نزلت بهم ضائقة ما نسبوها الى أنهم حادوا عن طريق الرب وفعلوا الشر فاستحقوا العقاب. فبعد النصر الذي أحرزته ديبورة وباراق يخبرنا سفر القضاة أن اليهود عملوا الشر في عيني الرب مرة أخرى فاستحقوا العقاب، فدفعهم الرب ليد مديان

سبع سنين فاستعبدوهم وأذلوهم، ولما صرخ اليهود مستغيثين بالرب سمع الرب لصراخهم فأرسل لهم نبياً ذكرهم بالحسنات التي فعلها الرب معهم منذ أن أصعدهم من مصر الى هذا اليوم وطمأنهم الى أن النصر قريب.واختار النبي جدعون ليكون قاضياً وقائداً عسكرياً يخلص اليهود من سطوة المديانيين. ورضي جدعون القيام بهذه المهمة ونفذها بنجاح وخلّص اليهود من سطوة المديانيين عليهم وأراح اليهود من شرهم أربعين عاماً .

وقد لاحظ العلماء في هذا الصدد أن جدعون دعي أيضاً يروبعل في نفس القصة، فهل كان له إسمان أم أن هناك مصدران للقصة لا مصدر واحد . كما أن هذه الحرب لم تكن حرباً إسرائيلية شاملة بل حرباً خاصة قادها سبط منشه ضد المديانيين القريبين من موقعه ودخلها جدعون بثلاث مئة رجل فقط اعتماداً على تقسيمهم الى ثلاثة أجنحة واتباع أساليب الغش والخداع الأبدية في اليهود .

كما لاحظ العلماء أيضاً أن اليهود كانوا تواقين الى الاستقرار بدلاً من هذه الحياة الجوالة، ذلك أنهم طلبوا الى جدعون بعد النصر أن ينصبوه ملكاً عليهم لكنه أبى وإن ظل بالفعل يمارس سلطات الملك، واستطاع في خلال فترة حكمه أن يخضع سكان مدينة شكيم (نابلس) لسلطانه وجعلهم يدفعون له الجزية وتزوج إحدى بناتهم وأنجب منها أبي مالك القاضي التالي الذي مارس كل وسائل الخداع والغش ليصل الى هدفه وكأن المكيافيلية بدأت من عنده أو أنه كان أستاذ مكيافيلي ومعلمه الأول. وقد تدفعنا حالة جدعون والرغبة في تنصيبه ملكاً على اليهود، كما تقول التوراة، الى القول بأنه ربما كان ذلك بواكير الرغبة لدى هذه الجموع الجوالة أو على وجه الصحة لدى بعض قياداتها في التخلص من سلطة "الكهنوت" على حياتهم الأرضية والتمرد للفصل بين

السلطتين الدينية والمدنية.ولعل ما يؤكد هذه النظرة أيضاً تكرار ورود ذكر التنكر للرب والسعي الى عبادة آلهة أجنبية.حيث نجد سفر القضاة يقول لنا مرة أخرى وكان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزنوا وراء البعليم وجعلوا لهم بعل بريت إلهاً، ولم يذكر بنو إسرائيل الرب إلههم الذي أنقذهم من يد جميع أعدائهم من حولهم ولم يعملوا معروفاً مع بيت يروبعل جدعون نظير كل الخير الذي عمل مع إسرائيل(١٧).

وهنا يظهر أبيمالك بن جدعون ليتآمر مع أهل شكيم، قبيلة أمه، واستطاع إقناعهم بمد يد العون له للقضاء على إخوته السبعون أبناء جدعون ليخلصهم من شرورهم ثم استأجر أبيمالك قطاع طرق وذهب بهم الى بيت أبيه وقتل جميع إخوته عدا واحداً هو يوتام بن جدعون الإبن الأصغر له، لتمكنه من الاختباء لحظة قتل جميع إخوته. ونصّب أهل شكيم أبيمالك ملكاً عليهم (وإذا صح ذلك، تكون هذه أول حالة ملكية في التاريخ اليهودي، وقبل ظهور شاءول بفترة طويلة). واستمر أبيمالك على هذه الحال ثلاث سنوات الى أن غدر به أهل شكيم ونصبوا له كميناً في الجبل بغية قتله، لكنه هرب هذه المرة أيضاً، ليموت في النهاية بيد إمرأة القت بقطعة حجر فوق رأسه فأردته قتيلاً في الوقت الذي كان يحاصر فيه حصن أهل شكيم (يبدو أنه حتى ذلك الوقت كان للمرأة دور فعال في الفلكلور اليهودي).

وبعد أبيمالك جاء تولع بن فوة بن دودر من سبط يساكر. ولم تحدثنا التوراة عنه شيئاً أكثر من أنه قضي لإسرائيل ثلاثاً وعشرين عاماً ولم تخبرنا متى عاش وحارب من ؟.

وجاء من بعده يائير الجلعادي ولم تذكر لناالتوراة عنه أيضاً أكثر من أنه قضى لإسرائيل إثنتين وعشرين سنة. ثم في قضاة (١٠/٤ ـ ٥)

خير عنه لا ندري ماذا أتى به هنا في هذا المجال، وكان له ثلاثون ولداً يركبون ثلاثين جحشاً ولهم ثلاثون مدينة.

ومن بعده جاء يفتاح الجلعادي ليزود عن أسباط يهوذا وبنيامين وأفرايم ضد العمونيين والمؤابيين. ويحدثنا سفر القضاة عن يفتاح هذا قائلاً "أنه ابن إمرأة زانية طرده إخوته من منزلهم لأنه إبن إمرأة غريبة، فهرب من وجه إخوته وأقام في أرض طوب وكوّن لنفسه عصابة من قطاع الطرق(١٨).

وقد لاحظ العلماء في قصة يفتاح كثيراً من التناقض مما يدل على أن كاتبها ليس شخص واحد وإنما لها أكثر من مصدر. فبينما نجد عدوه (عمون) إذا به في موضع آخر (مؤاب) وبينما نجد المكان الذي خرج منه هو أرض (طوب) [قضاة ١/٥] نجد في الفقرة التاسعة والعشرين من الإصحاح الحادي عشر أنه خرج من أرض(مصفاة). الى آخر التناقضات الموجودة في هذه القصة، ولا ندري ما الذي جعل قاطع طريق بما يمثله من قيم مغايرة يقدم مثالاً للتضحية في سبيل الرب، حيث أنه ضحى بإبنته على المذبح كقربان للرب(١٩) .

١ـ٥ يأتي بعد يفتاح الجلعادي شمشون الذي يعد أشهر القضاة على الإطلاق. ويبدو هذا البطل المارد ذا شخصية غريبة بين قضاة بني إسرائيل الكبار. ويذكر لنا سفر القضاة أن شمشون كان يشغل منصب القضاة في إسرائيل لمدة عشرين عاماً. وإذا كان لنا أن نصدر حكماً على فحوى وطبيعة أفعال شمشون، فإنه يحق لنا أن نتشكك فيما إذا كان هذا الرجل يعد مفخرة في تاريخ القضاء الإسرائيلي، ذلك أن موهبته كانت أكثر ما تتمثل في إحداث الشغب والعراك وفى إحراق مؤن الذرة التي يختزنها الناس، وفي كثرة التردد على بيوت الدعارة. أى أن

شمشون كان يبدو في شخصية التاجر الخليع أكثر مما يبدو في شخصية القاضي الكفء الصارم. ونلاحظ أيضاً أن شمشون هذا لم يقم أبداً بحرب نظامية ضد الفلسطينيين ، كما أنه لم يتزعم عصيان وطني مسلح ضد العدو،بل كان يقوم وحده بهجوم مفاجيء عليهم بوصفه البطل الفرد، ثم نراه يضربهم بفك حمار أوبأى سلاح آخر يقع في يده. وحتى هذه الغارات التي يقوم بها والتي تعتمد على السلب (إذ أنه لم يتورع عن أن يسلب ضحاياه ملابسهم، ومن المحتمل ثروتهم) كانت فكرة تخليص قومه من العبودية آخر ما يتراءى له. وعندما كان يقوم بمذبحة ضد الفلسطينيين، كما كان يفعل كثيراً في تهور بالغ، فإنه لم يكن يفعل ذلك بدافع وطني أو بدهاء سياسي، وإنما بدافع حقد شخصي بحت بهدف الإنتقام من هؤلاء الذين أساءوا له الى زوجته ووالدها.

فقصته من بدايتها الى نهايتها هي قصة مغامر أناني ومخادع تحركه عاطفة جامحة ولا يكترث بشيء إلا إرضاء نزواته العارضة. ولم يخفف من حدة هذه الشخصية وابتذالها المألوف سوى تلك القوة الخارقة للعادة، والبسالة الطائشة ونمط مقيت من الفكاهة. وإذا كانت هذه العناصر قد أضفت نوع من الخبرة على قصة معارك هذه الشخصية فإنها لم تقلل من إحساسنا بالفتور من هذه الشخصية الغريبة المختالة المتغطرسة، وبخاصة إذا وضعناها جنباً الى جنب مع شخصيات القديسين والأبطال الذين صوروا في معرض التاريخ الإسرائيلي وربما ترجع المبالغة في تصوير شخصية شمشون الى لمسات مصور القصة أكثر مما ترجع الى الحقيقة التاريخية. إذ من المحتمل أن الحوادث العجيبة المسلية التي رويت عن تاريخ حياة هذه الشخصية سيئة السمعة، قد انسابت من غير ضابط بوصفها حكاية شعبية، مع تيار من التراث الشفاهي، وذلك قبل أن تتبلور بزمن طويل في ذاكرة اليهود

حول شخصية رجل حقيقي باسل من سكان النجاد والحدود، ومن نوع الرجال العبريين الذين كانوا يعيشون على السلب والنهب، والذي اشتهر بوصفه بطل بني إسرائيل في كثير من الغزوات التي كان يقوم بها عبر الحدود الى السهول الغنية في فلسطين، بفضل مزاجه الحاد وقوته الخارقة وجسمه القوي، ذلك لأنه ليس هناك سبب مقنع يجعلنا نشك في وجود إساس صلب من الواقع يرتكز عليه هذا التكوين المهلهل الخيالي الذي تكشف عنه أسطورة شمشون.

نعود الى قصة شمشون كما صورها لنا سفر القضاة، فنجد أنه يحدثنا عن سر قوة شمشون الخرافية ويركزها في شعره الذي لم تعله موسى منذ ولادته لأن أمه نذرته للرب لكونها عاقر. ولا نجد على مدار قصته سوى بعض الأساطير الخرافية التي تروي كيف بطش شمشون بالفلسطينيين وكيف كان مارداً جباراً لا يعرف المستحيل، كما أنه كان فاجراً أتي جميع أنواع الموبقات، الى أن تمكن الفلسطينيون منه في النهاية على يد عاهرة تدعى دليلة هام بها حباً واستطاعت بدهائها أن تعرف سر قوته وسلمته للفلسطينيين بعد أن حلقت له شعر رأسه، وقام الفلسطينيون بدورهم بإذلاله واستعباده وسملوا عينيه ونزلوا به الى غزة وأوثقوه بالسلاسل. وظل على هذا الحال بالسجن الى أن نبت شعر رأسه، واجتمع أقطاب الفلسطينيين ومعهم قرابة ثلاثة آلاف فلسطيني ليشاهدوا شمشون وهو يلعب أمامهم في المعبد، فإذا بشمشون يهدم المعبد على رأسهم جميعا ويموت معهم بعد أن أطلق صيحته الشهيرة "عليّ وعلى أعدائي يارب"(٢٠).

١ ـ ٥ ـ ١ شخصية شمشون كما رسمها الكاتب في هذه القصة، تعد شخصية مريضة، غير سوية، تحركها دوافع الحقد والكراهية تجاه

الفلسطينيين. وهي شخصية خيالية اخترعها الكاتب لتحميلها حقده وحقد شعبه على الفلسطينيين، الذين كانوا في ذلك الوقت العدو التقليدي للاسرائيليين. وبالتالي تحولوا في هذه القصة الى عدو تقليدي لشمشون، تلك الشخصية الرمزية التي يرمز بها الكاتب للإسرائيليين.

والكاتب هنا يتحرك من خلال عقدة نفسية. إنه يأمل في مدارك الحس اللاشعوري أن يتمتع الإسرائيليون - في الصورة الرمزية التي يعرضها - بقوة خارقة ليس لبشر مثلها. ويأتي رسم شخصية شمشون معبراً عن ذلك. فشمشون يتمتع بقوة خارقة وأورد الكاتب أمثلة كثيرة للتدليل على هذه القوة. وهنا نجد أن شخصية الكاتب غير السوية تبحث عن قوة مجهولة تقنعها بالتفوق والقدرة اللامحدودة على البطولة.

كما يحاول الكاتب أيضاً أن يرسم صورة الكراهية المتأصلة لدى شمشون ضد الفلسطينيين ، فيأتي بقصة تكاد تكون أقرب الى السذاجة منها الى الواقعية. وهي قصته مع دليلة. حيث يقول أن شمشون أحب إمرأة من الفلسطينيات وتزوجها. لكنها احتالت عليه وعرفت منه سر أحاجيه التي يحاجي بها أقرانه من الفلسطينيين وأخبرت قومها بها، فغضب شمشون وهجرها فتزوجت رجلاً غيره. وحينما عاد اليها وجدها قد تزوجت ، فتأصلت عنده الكراهية للفلسطينين. ومنذ ذلك اليوم وهو يعمل على قتل الفلسطينيين كلما وجدهم، وأصبح همه الوحيد هو كيفية الإضرار بالفلسطينيين وإنزال الهزائم بهم. ولما ضاقوا ذرعاً بأفعاله ، قاموا بفرض سيطرتهم على قبيلة يهوذا التي ينتسب اليها شمشون، وطالبوا أهلها بأن يسلموه لهم. وارتضى أهل يهوذا بتسليمه موثوقاً بالسلاسل. وما أن تسلمه الفلسطينيون حتى تمكن شمشون من

تحطيم قيوده،وأخذ فك حمار طرياً وقتل به ألف رجل من الفلسطينيين.

ولم يتورع الكاتب بعد ذلك وهو يرسم شخصية شمشون عن أن يقول :" ثم ذهب شمشون الى غزة ورأي هناك إمرأة زانية، فدخل اليها، فقيل للغزيين قد أتى شمشون الى هنا فأحاطوا به وكمنوا له الليل كله عند باب المدينة. فهدأوا الليل كله قائلين عند ضوء الصباح نقتله، فاضطجع شمشون الى نصف الليل ثم في نصف الليل أخذ مصراعي الباب والقائمتين كع العارضة على كتفيه وصعد بهما الى رأس الجبل الذي مقابل حبرون.

وهذا التلاقح مع الفلسطينية، إنما هو اقناع من الكاتب لنفسه بالقدرة والقوة، ويؤكد ذلك مرة ثانية في قصة شمشون مع الزانية الفلسطينية. فمضاجعة الإسرائيلي للفلسطينية ، تأكيد على الإحساس بالرجولة والتفوق. وهو ما لم يستطع الإسرائيليون أن يطبقوه عملياً في الواقع، فحاول الكاتب أن يؤكده في خياله.

ويسير بنا الكاتب ليصل الى القصة الرئيسة في حياة شمشون، ألا وهي قصته مع دليلة. ولم يحاول كاتب القصة أن يصف لنا أحاسيس الحب بين شمشون ودليله، على الرغم من أن هذه القصة قد خلدت حتى يومنا هذا على أنها من أعظم قصص الحب والخيانة في التاريخ.

يقول العهد القديم أن دليله تواطأت مع الفلسطينيين ضد حبيبها، وبعد أكثر من محاولة بذلتها معه لتعرف سر قوته، ضاق شمشون في النهاية بإلحاحها وأخبرها بسر قوته الذي يكمن في شعره الذي لم تعله موسى منذ ولادته. فخدعته أثناء نومه وقصت له خصلات شعره.

وعلى كل فإن كاتب العهد القديم لم ينجح في أن يرسم شخصية دليله بخطوط واضحة ولا أن يعبر عن أحاسيسها بالألوان الزاهية التي

ترسم بها دائماً شخصية المرأة المحبوبة. فمع أول ذكر لها أعطانا انطباعاً بأنها إمرأة خائنة، ساومت على حبها بالمال وخانت حبيب قلبها.

ولكن إذا أخذنا بالمنهج المتحيز في السرد فإننا يمكن أن نقف هنا على زاوية الأنا في القص. أما إذا نظرنا اليها من منظور الآخر فإنه يمكن أن نخلد هذه الشخصية في تاريخ الفلسطينيين،فإنها إمرأة ضحت بحياتها وداست على قلبها في مقابل نصرة بني جنسها. إن القضية بالنسبة لها ليست قضية حب ووفاء للمحبوب بقدر ما هي قضية حب ووفاء للمحبوب الأول والأخير، وهو الوطن.

وعلى كل فإن هذه القصة في العهد القديم يمكن أن نطلق عليها اسم "القصة الرمزية". وهي هنا لا تعدو أن تكون تعبيراً عما يجيش في نفس كاتبها من انفعالات وما يعتمل عنده في اللاوعي من مشاعر يتمنى تحقيقها في الواقع. فيطلق شمشون على الفلسطينيين لينكل بهم - وهو ما لم يستطع أن يفعله في الوعي ففعله في الخيال من خلال قصة ابتكرها ليحملها كل ما في مكنون قلبه من أحقاد على الفلسطينيين.

١ ـ ٥ ـ٢ ويلاحظ العالم جيمس فريزر أن الأساطير التي حيكت حول شخصية شمشون لا تتعدى الفولكلور الشعبي،فيذكر أن الأوربيين القدماء كانوا يعتقدون أن القوة الشريرة عند السحرة والعرافين تكمن في شعورهم، وأنه لا يوجد ما يؤثر في هؤلاء الأوغاد طالما كانوا يحتفظون بشعورهم على رءوسهم. ومن ثم فقد جرت العادة في فرنسا أن يحلق كل جزء من أجسام الذين يتهمون بالشعوذة وذلك قبل تسليمهم الى من يقوم بتعذيبهم. وقد كان يحدث ما يشبه هذا في مقاطعة"باستار" في الهند . فعندما كانت تثبت التهم ضد رجل من هذه

المقاطعة بأنه يمارس السحر، فإن الجمهور كان يتهور عليه ضرباً، كما كان يحلق شعره حيث أن قوى الشر تكمن في شعره وتخلع أسنانه الأمامية حتى لا يستطيع ترديد الشعوذة.

ويخلص فريزر الى أنه ليس من المستغرب أن يجد هذا الاعتقاد الذي انتشر على نطاق واسع في العالم، مكاناً له في الحكايات الخرافية، فكل ما يبدو في الحكاية الخرافية من خيال ، إنما هو مرآة تنعكس عليها المعتقدات الحقيقية االتي كان يعتقدها الناس الذين نشأت بينهم هذه الحكايات.

وفي معرض تعليقه على هذه القصة يقول اللورد بولينغبروك(٢١) إن فك الحمار الذي ظهر في قصة شمشون، ليس أكثر من انتحال ممسوخ للرواية الوثنية الأسطورية هرقل. ومثلها أيضاً قصة تقديم إيفيجينيا قرباناً، وهي القصة التي ألهمت صاحب قصة يفتاح الجلعادي الذي قدم ابنته قرباناً على المذبح. والحقيقة أن اللاهوتيين يؤكدون على أن الميثولوجيا الإغريقية هي التي اقتبست من التوراة وحرّفتها، فيقولون أن صموئيل هو كاتب سفر القضاة، وقد كتبه في عهد الملك شاءول، لكن أسطورة هرقل ظهرت عند الإغريق قبل حرب طروادة بزمن طويل، وهذه الأخيرة وقعت قبل انتخاب شاءول ملكاً على الإسرائيليين بأكثر من مائتي عام. زد على هذا أن الأسطورة الإغريقية صيغت بإحكام وفطنة، وهو ما تتصف به الأسطورة اليهودية. فنهاية هرقل أقل عبثية من نهاية شمشون. ففي الأسطورة الإغريقية أسرت فتنة امفالي هرقل الى درجة نسي معها بطولاته القتالية وحبه الترحال. فأقام قرب حبيبته، التي أصبح تأثيرها عليه قوياً جداً.

١ - ٦ يهمنا في النهاية تقرير أنه لم تتألف من هؤلاء الغزاة

الإسرائيليين في يوم من الأيام وحدة متماسكة، بل ظلوا زمناً طويلاً يؤلفون إثنى عشر سبطاً مستقلين استقلالاً واسعاً أو ضيقاً. ولا يقوم نظام حكمهم على أساس الدولة، بل يقوم على أساس الحكم الأبوي في الأسرة، فكان شيوخ العشائر يجتمعون في مجلس من الكبراء وهو الحكم الفصل في شئون القبيلة وهو أيضاً الذي يتعاون مع زعماء القبائل الأخرى إذا ألجأتهم الى هذا التعاون الظروف القاهرة التي لا مفر من التعاون فيها. وكانت الأسرة هي الوحدة الإقتصادية التي يقوم عليها زرع الأرض ورعي قطعان الضأن. وكانت هذه المكانة هى مصدر قوتها ونفاذ كلمتها وسلطانها السياسي. وكانت الأسرة تتمتع بقدر من الشيوعية التي خففت بعض الشيء من صرامة النظام الأبوي.

٢ ـ تاريخية عصر القضاة :

في عام ١٩٧٤ نشر أ.د.هـ.مايز رسالته المنشورة عام ١٩٦٩، معدلة، وبذلك أثار تساؤلاً هاماً حول الأساس التوراتي لاعتبار عصر القضاة حقيقة تاريخية. الهدف الأساسي لهذا الكتاب كان مراجعة البيانات المقدمة لتأييد تصور نوث عن " الجماعة الدينية" ولإظهار عدم صحة هذه المقارنة. توصل مايز الى استنتاج أن الروايات نفسها لا تقدم دعم إيجابي لافتراض وجود جماعة دينية في إسرائيل القديمة. وفي مسار إثبات حجته تمكن مايز من صياغة أحكام عامة أضعفت فيما بعد قبول القول بتاريخية الروايات الواردة عن القضاة في العهد القديم. وجود إسرائيل كاملة ، النقطة المركزية لقبول نظريةعصر القضاة نسبت الى الروايات الأولى في سفر الاشتراع كما أعيد بناؤها ولم تكن فكرة أصيلة في الروايات نفسها، حتى يشوع ٢ -٩ (وقصصه عن غزو وفتح مدن منطقة بنيامين) أصبح مرتبطاً بغزو قامت به إسرائيل الكاملة،

إنما في مرحلة لاحقة لنشأة الروايات. وعلى أساس التوراة، لم تقم أية سلطة مركزية قبل تلك المشار اليها في قصص شاءول. وبذلك يرى مايز أنه من الخطأ الجسيم مواصلة الدفاع عن بنية موحدة لإسرائيل قبل الملكية(٢٢).

لقد أدى مايز خدمة كبيرة بشرحه المفصل عن عدم وجود بينة تاريخية على بنائه التاريخي كذلك. إظهار أن (إسرائيل الكاملة) مفهوم متأخر لا يمكن فهمه على أنه يوازي إظهار أن القبائل قد وجدت كحقائق تاريخية مستقلة في فترة ما قبل شاءول.

الفصل الثاني

عصر الملكية

صموئيل وبداية الملكية

١- يحدثنا سفر صموئيل عن معركة خاضها اليهود ضد الفلسطينيين كانت نتيجتها أربعين ألف قتيل إسرائيلي. ثم جمع اليهود شتاتهم مرة أخرى وحاولوا الأخذ بالثأر من هزيمتهم المنكرة فأسفرت عن مقتل ثلاثون ألف رجل واستيلاء الفلسطينيين على تابوت الرب، وكان من بين من مات في هذه المعركة إبنا "عالي"(كبير القضاة) حفني وبنحاس(١)

وصدمت نتيجة هذه المعركة عالي فمات، وخلفه صموئيل. وكان آخر من ولي على إسرائيل من القضاة.

وتعطينا التوراة صورة عن صموئيل بأنه لم يكن قاضياً فحسب، وإنما كان نبياً أيضاً، مؤيداً من الرب. وعرفه اليهود كلهم في كافة أسباطهم وكان لهم بمثابة الزعيم الروحي الذي يستلهمونه في كل خطواتهم.

يقول سفر صموئيل أنه صموئيل بن إلقانه بن يروحام بن الياهو بن توحو بن صوف من سبط أفرايم. وكانت أمه عاقر لا تلد فدعت الرب أن يهبها أبناً تهبه لخدمة بيت الرب. وقد كان لها ما أرادت. ونشأ هذا الإبن "صموئيل" في رعاية "عالي" يلقنه التعاليم الدينية الى جانب قيامه بخدمة بيت الرب، وتتلمذ على يديه. وما أن مات عالي حتى خلفه صموئيل في القيادة الروحية لليهود. وفي عهد صموئيل هدأت الحال السياسية والعسكرية لليهود ولم يتعرضوا كثيراً للغزو الفلسطيني، بل أن اليهود استطاعوا في عهده أن يستردوا المدن التي كان

الفلسطينيون قد استولوا عليها من قبل. كما أنه استطاع في عهده أيضاً أن يعقد صلحاً ومعاهدة عدم اعتداء بين اليهود والأموريين.

وظل صموئيل يقضي لليهود طوال عمره، لكنه حينما تقدمت به السن ، كان قد جعل من بنيه قضاة لليهود وهما يوئيل وأبيا.لكنهما لم يحوزا القبول لدى اليهود نتيجة لتصرفاتهما السيئة وشرورهما التي فعلاها معهم. فحدث أن اجتمع شيوخ اليهود الى صموئيل وقالوا له "هوذا أنت قد شخت وإبناك لم يسيرا في طريقك. فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب[٢]. فأغضب هذا الكلام صموئيل وصلى للرب ليغفر لهم هذه الخطية . لكن الرب قال له " اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك. لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم "[٣] .

" فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكاً بجميع كلام الرب. وقال هذا هو قضاء الملك الذي يملك عليكم. يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثته ويحصدون حصاده. ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه[٤] .

ويستمر السفر بعد ذلك فيحدثنا كيف أن الرب أرشد صموئيل الى الملك الجديد من سبط بنيامين أصغر أسباط إسرائيل وأحقرها وكيف قدمه الى الشعب على أنه هو مليكهم الجديد الذي يجب عليهم طاعته وكيف أمكن لصموئيل إقناع كبار القبائل ورؤسائها وأشراف اليهود بقبول هذا الشاب المغمور الذي لم يسمع به أحد من قبل، ليتوج ملكاً عليهم يحكمهم ويأمرهم فيأتمرون بأمره.

كان هذا الشاب الذي وقع عليه الاختيار - سواء من قبل الرب أو من قبل صموئيل نفسه،وهذا ما سنعرضه بعد قليل بشيء من التفصيل

ـ هو شاءول بن قيس بن أبيئيل بن حور بن بكورة بن أفيح[٥]

١ ـ٢ لكن القسم الأول من قصة صموئيل، آخر قضاة إسرائيل، أثار بعض الملاحظات النقدية. فقدم فيريريه بعض الملاحظات العامة بصدد نسبة الكتاب لصموئيل، وأكد على الخطأ الذي يجب ألا يقع فيه أي مؤرخ جدي، وهو أن الكاتب أبقى القارىء في عتمة كثيفة حجبت رؤية الحال العامة التي كان يعيشها الشعب الذي يجري الحديث عنه. والحقيقة أنه يشق علينا كثيراً تحديد أطر الرقعة الجغرافية التي شغلها اليهود في زمن كهانة عالي؛ أين عاشوا؟ وهل كانوا عبيداً، أم أتباعاً للفينيقيين الذين يصر الكتّاب اليهود على تسميتهم فلسطينيين؟. وعلى أية حال، في أغلب الظن كان مؤلف كتاب "الملوك الأول" كاهناً، فهو لم يلق بالاً للأمور التي تتصل بمهنته وحسب، متجاهلاً أهمية كل مسألة أخرى.[٦] . يقول صاحب سفر الملوك الأول أن مدينة شيلو كانت مقر الكاهن الأكبر عالي، وقد لاحظ فولتير، أن القرية المسماة شيلو كانت تابعة للفينيقيين، ولا نعتقد بأنهم كانوا سيوافقون على وجود كبيركهنة ديانة أخرى في عقر دارهم. أما إذا كان "تابوت العهد" قد وضع في تلك القرية حقاً، فإن إقامته هناك كانت سراً. وسنرى لاحقاً أن الفلسطينيين أخذوا التابوت بعد مضي زمن طويل، بعد معركة عنيفة سحق خلالها جنود يهوه، وإذا كان الأمر كذلك فكيف نفسر حج اليهود الى شيلو إذاً؟.

وينوه المؤلف في معرض وصفه لما حدث لصموئيل أن يهوه قلل أحاديثه مع يهوده، وهنا تطل علينا أيديولوجية الشعوب البدائية مرة أخرى فحسب هذه الأيديولوجية أنه إذا ما هزم شعب، هزم إلهه أيضاً وعندما ينهض ينهض معه [٧].

وخرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب، ونزلوا عند حجر المعونة، وأما الفلسطينيين فنزلوا في أفيق، واصطفوا للقاء إسرائيل، واشتبكت الحرب، فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين، وضربوا من الصف في الحقل نحو أربعة آلاف رجل. فجاء الشعب الى المحلة. وقال شيوخ إسرائيل لماذا كسرنا اليوم الرب أمام الفلسطينيين؟ فلنأخذ تابوت عهد الرب من شيلو فيدخل في وسطنا ويخلصنا من أعدائنا. فأرسل الشعب الى شيلو وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود الجالس على الكروبيم. وكان هناك إبنا عالي، حفني وفنحاس مع تابوت عهد الرب.

لكن التوراة لم تذكر لنا كلمة واحدة عن سخط اليهود على مستعبديهم الفلسطينيين، كما لم تشر الى سبب الحرب، أو المنطقة التي كان يقطنها اليهود. فقد اقتصرت على أن اليهود خسروا ثلاثين ألف قتيل، على الرغم من وجود " تابوت العهد" بينهم. ويلاحظ فولتير قائلاً: " كيف يمكننا تصديق أن شعباً مستعبداً خسر كل تلك الخسائر، ثم عاد ونهض بتلك السرعة؟".

وغني عن القول ، أن النقاد ارتابوا منذ زمن طويل، بصدق أخبار التوراة،ولاحظوا فيها الميل الى المبالغة في وصف الهزائم والإنتصارات على حد سواء. وفي أحد مقاطع التوراة نجدها تولي تمجيد صموئيل اهتماماً أكبر من ذلك الذي توليه لتوضيح التاريخ اليهودي. ولذلك عبثاً ننتظر منها وصفاً صادقاً لبلاد اليهود وللظروف التي وقع فيها العصيان، والقلاع أو حتى الكهوف التي استولى الثائرون عليها، أو لإجراءات الدفاع والقادة الذين أداروا المعركة؛ ومن هنا جاءت ملاحظة بولينغبروك بأن اللاوي، الذي كتب هذه القصة، إنما كتبها كما كتب كهنة القرون الوسطى عن بعض الأحداث من منظورهم الكهنوتي.

٢ ـ شاءول أول ملك يهودي

يعد شاءول إحدي الشخصيات الأكثر مأساوية في التاريخ اليهودي. فبعد أن طالب اليهود بأن يحكمهم ملك مدني، بعد أن أعلنوا تمردهم على حكم الكهنة الذين كانوا يتظاهرون لهم بأنهم يحكمونهم باسم الرب وبإرشاده المباشر متمثلين في آخرهم النبي "صموئيل" الذي كان بحق أحد القوى النزاعة الى السلطة بطبيعتها وأحد القوى المتعصبة التي صبت في قالب من الحديد. تلك القوى التي تسيء الى عزمها الذي لا ينثني من أجل إرادة السماء، فتسير قدماً من غير انحراف الى هدفها، ضاربة عرض الحائط بكل الاعتراضات وقد أوصدت قلبها دون الإحساس بالشفقة وبالعاطفة الإنسانية الرقيقة. وبعد أن طلب اليهود هذا من صموئيل سعى في براعة، وهو الذي عرف بعنفه في سياسة الأمور بقدر ما كان من أكثر الشخصيات الكهنوتية صرامة، لا أن يمسح شاءول فحسب بل عينه ملكاً جديداً على شعبه، تركزت من حوله آمال بني إسرائيل.

وقد كانت هذه الشخصية التي وقع عليها اختيار صموئيل جديرة بأن تكسب إعجاب الناس وولاءهم. وبما يميزه لأن يتقبله الناس حاكماً عليهم، جسمه الفارع الذي ينبض بالهيبة (حيث كان أطول من كل الشعب) وشهامته وجسارته وقيادته الماهرة، وشجاعته في ميدان الحرب. فلم يمض شهر واحد على تنصيبه ملكاً حتى هاجم ناحاس ملك العمونيين مدينة "يابيش جلعاد؛ في أرض سبط يهوذا في شرقي الأردن واستولى عليها. فما كان من شاءول رلا أن جمع جيشاً من اليهود قوامه

ثلاثمائة وثلاثون الف رجل وهجم على ناحاس وثتله وشتت شمل العمونيين، فارتفع مقامه جداً بهذا العمل عند اليهود وجددوا له البيعة في الجلجال. كما دخل شاءول أيضاً في حروب كثيرة ضد الفلسطينيين والمؤابيين والعمونيين والأدوميين وملوك صوبه الذين كانوا يسيطرون على سهول البقاع وبعلبك وكان صموئيل يوجهه في كل هذه الحروب ويعطيه الأوامر على أنها أوامر الرب[8] لكن في إحدي حروبه ضد العماليق لم ينفذ شاءول كل ما قاله له صموئيل. فغضب عليه وعقاباً له أخبره بأنه قد خلعه من الملك وأنه لم يعد ملكاً على اليهود، فاستعطفه شاءول واعتذر له ، فرفض اعتذاره، واستدار للانصراف فأمسك بذيل رداءه فتمزق فقال له صموئيل: " يمزق الرب مملكة إسرائيل عنك اليوم ويعطيها لصاحبك الذي هو خير منك (٩).

ومع ذلك فإن هذا الجندي الشعبي الجسور، كان يخفي وراء مظهره الرائع نقاط ضعف خطيرة في شخصيته فقد كان ينزع الى الشك والغيرة. كما كان ضعيف الإرادة ، متردد في اتخاذ قراراته. وكان فوق هذا كله مصاباً باكتئاب نفسي ألح على فكره الذي لم يكن منظماً على الإطلاق وكان يصل به بعض الأحيان الى مشارف الجنون.

وربما اكتشف صموئيل بعينه النفاذة هذه الجوانب الضعيفة في شخصية "شاءول" وكانت هذه الجوانب موضع اعتباره، عندما أرضخ الشعب في أن يعين بدلاً منه من يخلفه في إدارة شئون البلاد العليا. وربما اعتمد على هذا عندما عين شاءول بوصفه الحاكم البراق ذو القناع المزخرف الذي يخفي وراء الملامح العسكرية للجندي الشجاع الدمث سيماء صارمة لنبي لا تلين عريكته وربما تصور " صموئيل" أنه سيعامل الملك كما لو كان دمية تلبس التاج فوق رأسها وتمسك الصولجان في يدها وترقص على المسرح على أنغام طيفه مؤتمرة بأمر من يقف وراء

الأنظار. فإذا كان صموئيل قد قدر كل هذه الأمور عندما ساعد شاءول على اعتلائه العرش، فإن الأحداث قد أكدت صدق تقديره فيما بعد. فطالما كان صموئيل على قيد الحياة فإن شاءول لم يكن سوى آلة في أيدي صموئيل.

وعندما كان شاءول مكتفياً بتنفيذ أوامر ناصحه المتغطرس، ومعترفاً له بما في ضميره كما يعترف أمام الأب الروحي، كان صموئيل يسمح له بأن يتبختر أمام الشعب، وهو يحمل التاج الوهمي فوق رأسه.

" فقال صموئيل اليس إذ كنت صغيراً في عينيك صرت رأس أسباط إسرائيل ومسحك الرب ملكاً على إسرائيل" (١٠)

" فقال شاءول لصموئيل أخطأت لأني تعديت قول الرب وكلامك لأني خفت من الشعب وسمعت لصوتهم" (١١) "والآن فاغفر خطيئتي وارجع معي فسجد للرب "ودار صموئيل ليمضي فأمسك بذيل جبته فانمزق فقال له صموئيل يمزق الرب مملكة إسرائيل عنك اليوم ويعطيها لصاحبك الذي هو خير منك. فقال قد أخطأت، والآن فاكرمني أمام شيوخ شعبي وأمام إسرائيل وارجع معي فاسجد للرب الهك" (١٢).

ولما حاول شاءول أن يحيد قيد أنملة عن أوامر رئيسه الروحي ذي القلب المتحجر، حطم صموئيل الملك الدمية والقى به جانباً كما يلقي الإنسان بآله كفت عن القيام بوظيفتها ثم عين سراً خليفة لشاءول. ورفض أن يراه مرة أخرى بل أنه أعلن عليه الحداد طوال حياته كما لو كان قد توفى بحق.

ثم ساءت الأمور مع شاءول بعد ذلك، فبعد أن حرم الساعد القوية التي طالما ركن اليها طويلاً، تملكه العناد والشرور وأكثر من ذي قبل فزاد اكتئابه وتضاعفت شكوكه، ولم يعد يستطيع التحكم في مزاجه

الذي كان يتميز بالتقلب فاستسلم لثورات الغضب وحاول الاعتداء على داود بل حتى على إبنه يوناتان.

وتحولت الحياة اليهودية آنذاك على يد شاءول من حرب قومية مع الجيران الى حرب جانبية للصراعات الشخصية التي تمثلت في الصراع الدامي بين شاءول وداود حيث راح الآلاف ضحية لهذا الصراع وهذه المطاردات الجانبية لدرجة أن الجيش الإسرائيلي تحت قيادة شاءول تفرغ الى مطاردة داود الهارب ونسي المعركة القومية مع الفلسطينيين، وحدث في بعض الأحيان أن ارتد شاءول عن مطاردة داود ليقوم بمحاربة الفلسطينيين ثم يعود ثانية للقيام بمطاردة داود(١٣) .

"وكلم شاءول يوناتان ابنه وجميع عبيده أن يقتلوا داود"(١٤). وكان الروح الردي من قبل الرب على شاءول أن يطعن داود بالرمح حتي الى الحائط ففر من أمام شاءول فضرب الرمح الى الحائط. فهرب داود ونجا تلك الليلة".

" فأرسل شاءول رسلاً الى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه في الصباح وظلت هذه المطاردات وهذه الروح الحاقدة بينهما فترة طويلة لدرجة أن داود لجأ الى التعاول مع أعداء اليهود في ذلك الوقت ضد قومه بزعامة شاءول (١٥)

"وقام داود وهرب في ذلك اليوم من أمام شاءول وجاء الى أخيه ملك "جت" (١٦) .

"وذهب داود من هناك الى مصفاة مؤاب وقال لملك مؤاب ليخرج أبي وأمي اليكم حتى أعلم ماذا يصنع لي الله. فودعهما عند ملك مؤاب فأقاما عنده كل أيام إقامة داود في الحصن".

بل وصل الأمر بداود الى حد التعاون مع الفلسطينيين ضد شاءول(١٧)

" وقال داود في قلبه أني سأهلك يوماً بيد شاءول فلا شيء خير لي من أن أفلت الى أرض الفلسطينيين فييأس شاءول مني فلا يفتش عليّ بعد في جميع تخوم إسرائيل فأنجو من يده.

" وكان عدد الأيام التي سكن فيها داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر "(١٨).

"وكان في تلك الأيام أن الفلسطينيين جمعوا جيوشهم لكي يحاربوا إسرائيل. فقال أخيش لداود إعلم يقينا انك ستخرج معي في الجيش أنت ورجالك. فقال داود لأخيش لذلك أنت ستعلم ما يفعل عبدك، فقال أخيش لداود لذلك أجعلك حارساً لرأسي كل الأيام.

وتعاون شاءول مع السحرة ومحضري الأرواح للتغلب على هذه الأزمة دون جدوى، ولم يجد مفراً من أن يخوض حربه الأخيرة مع الفلسطينيين، ومات شاءول في هذه الحرب ومات معه يوناثان وأبيناداب وملكيشوع أبناءه. وخلا الجو لخليفته الهارب داود. الذي كان قد استطاع في خلال فترة هربه أن يشكل من قبيلته شبه مملكة وشبه جيش حارب به شاءول أحياناً وأحياناً أخرى بعض أعدائه وبعد ذلك صعد داود الى حبرون حيث مسح هناك فأخذ إيشبوشت إبن شاءول وعبر به الى محنايم وجعله ملكاً على جلعاد وعلى الأشوريين وعلى يزرعئيل (مرج بن عامر حالياً) وعلى أفرايم وعلى بنيامين وعلى كل إسرائيل. وكان عمرإيشبوشت بن شاءول أربعين عاماً حين ملك على إسرائيل واستمر حكمه لمدة سنتين. أما بيت يهوذا فإنما اتبعوا داود وكانت المدة التي ملك فيها داود في حبرون على بيت يهوذا سبع سنين وستة أشهر.

فما هي قصة داود وصراعه مع شاءول، وكيف استطاع أن يكون أول ملك يهودي يضم القدس الى مملكته ويجعلها عاصمة لأول مملكة إسرائيلية موحدة.

٢ ـ ١ أول ما تحدثنا التوراة عن داود تظهره لنا في صورة شاب صغير السن جميل الطلعة يرعى غنم أبيه، عديم الشأن لدرجة أن صموئيل حينما أمره الرب بالذهاب الى بيت يسى ليمسح هناك إبنه الذي سيدله عليه الرب، لم يقدم له داود من بين الأبناء، وحينما أرسل صموئيل في طلبه من المرعى حضر اليه ودله الرب على أن هذا هو ملك بني إسرائيل المنتظر فقام شاءول بمسحه ملكاً على إسرائيل في السر. ثم تمضي الأيام ويقدم داود في صورة الملحن الشاب الذي سيسري عن شاءول كربه بألحانه العذبة، ويجد هذا الشاب قبولاً في عين شاءول فيقربه اليه.

لكن التوراة تعود في موضع آخر لتناقض نفسها فتقول لنا أن شاءول كان قد جمع جيشه وخرج لمحاربة الفلسطينيين. وكان داود يرعى غنم أبيه،أما في ميدان القتال فكان هناك الجبار الفلسطيني (جوليات) الذي اعتاد أن يخرج كل يوم ليطلب منازلة الإسرائيليين وكان منظره يبعث في قلوبهم الرعب وحدث أن أرسل داود الى إخوته زادهم مع أخيهم الصغير(داود)فذهب الى ميدان القتال وشاهد هذا المشهد المتكرر يومياً وسأل عن هذا العملاق فقيل له أن شاءول قد أمر بأن يزوج ابنته لمن يستطيع قتل هذا المارد الفلسطيني فتقدم منه داود الصغير واستطاع بدهائه أن يقضي عليه. ولنتوقف قليلاً عند حادثة قتل داود لجوليات لما تمثله من أهمية بالغة في تشكيل الوجدان اليهودي.

" ولما نظر الفلسطيني ورأى داود. احتقره لأنه كان غلاماً وأشقر جميل المنظر. وقال لداود: ألعلي كلب حتى تأتي إلي بعصا؟ ولعن الفلسطيني آلهة داود؛ ثم قال: تعال إلى فأعطي لحمك لطيور السماء ووحوش البرية. فقال داود: أنت تأتي الي بسيف ورمح وترس، وأنا

آتي اليك باسم رب الجنود؛ إله صفوف إسرائيل الذي غيرتهم»، في هذا اليوم يحبسك الرب في يدي، فأقتلك وأقطع رأسك. وأعطي جثث جيش الفلسطينيين هذا اليوم لطيور السماء وحيوانات الأرض .. ولما قام جوليات وتقدم للقاء داود، أسرع داود وركض لقائه. ومد داود يده الى الكتف وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع، فأصاب جوليات في جبهته، وسقط على وجهه الى الأرض. وهكذا تمكن داود من جوليات بالمقلاع والحجر. ولم يكن في يد داود سيف؛ فركض ووقف على الفلسطيني وأخذ سيفه واخترطه من غمده، ثم قطع به رأس جوليات. فلما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات هربوا. وقام رجال إسرائيل ويهوذا وهتفوا ولحقوا بهم حتى مجيئك الى الوادي، وأبواب عفرون، وسقط قتلى الفلسطينيين في طريق شعرايم الى جت والى عفرون، ثم رجع بنو إسرائيل من الاحتماء وراء الفلسطينيين ونهبوا محلتهم،وأخذ داود رأس جوليات وأتى به الى أورشليم ووضع أدواته في خيمته (١٩).

لكننا لا ندري هل كان لداود الصغير خيمته الخاصة كي يضع فيها أدوات جوليات؟ كما أن أورشليم لم تكن في يد اليهود بعد. بل استولوا عليها فيما بعد؛ بل أن داود نفسه سيحتلها بعد أن يخلف شاءول على العرش .

ولما رأى شاءول داود خارجاً للقاء جوليات، قال لأبنير رئيس الجيش: إبن من هذا الغلام؟ ولما رجع داود من قتل جوليات ، أخذه أبنير وأحضره أمام شاءول ورأس جوليات بيده، فقال له شاءول: إبن من أنت ياغلام؟ فقال داود:بن يسى البيتلحمي»(٢٠). لكننا كنا قد عرفنا من الإصحاح السادس عشر أن شاءول طلب من يعزف له على القيثارة لتهدئة نفسه المتوترة، فجاء أحد خدمه بالشخص المطلوب، ولم يكن هذا العازف سوى داود بن يسى نفسه، وقد عرف شاءول عائلته عندئذ؛ بل

وأرسل يطلب من العجوز يسى أن يطلق الغلام له،لأنه أعجب به كثيراً. كما نعرف أيضاً من هذا الإصحاح أن داود غالباً ما كان يترك شاءول ويأتي الى بيت لحم. وفجأة لم يتعرف شاءول ولا أبنير، أو أي من خدم قصر الملك على داود الذي خرج لملاقاة جوليات؟! .

وعلى أية حال فقد كان قتل داود لجوليات، سبباً في تقدم الإسرائيليين وهرب الفلسطينيين وهزيمتهم. وهنا سأل شاءول عن هذا الشاب الصغير فقيل له أنه داود بن يسى فأمر بأن يتزوج داود من إبنته. وقدمت له الإبنة الصغرى "ميكال" زوجة. ومنذ هذا اليوم وداود يخرج ويدخل أمام الشعب فأحبه الشعب جداً. وحينما عادوا من ميدان القتال كان الناس في الساحات يهتفون هذا الهتاف " قتل شاءول ألوفه وقتل داود ربواته" وهنا اغتاظ شاءول من هذا الهتاف وأخذ يتربص به لقتله. لكن التوراة في هذه النقطة تعود لتناقض نفسها أيضاً. ففي موضع آخر تقول أن ميكال إبنة شاءول وزوجة داود رشحت زوجها لخلافة أبيها فاغتاظ والدها من هذا الترشيح وقرر قتله.

وعلى أية حال فإن التوراة في كلا الروايتين تركز على أن يوناتان بن شاءول أحب داود ونشأت بينهما علاقة صداقة متينة، والتزم بموجبها يوناتان أن يهّرب داود دائماً من أمام والده وينقل له مخططاته للقضاء عليه. ووصل الأمر بين شاءول وداود - بعد وفاة صموئيل - الى الصراع العلني، كما ذكرنا من قبل. فتمكن داود من تزعم قبيلته والقبائل المجاورة لها وأصبحت شبه مملكة مناوئة لشاءول وصارت هناك مملكتان رسميتان في إسرائيل، مملكة بزعامة داود والأخرى - الرسمية - بزعامة شاءول.

لكن في ذلك الوقت كانت تصدر عن داود بعض التصرفات - استناداً الى نص التوراة - تجعلنا نحار في فهم طبيعة هذه الشخصية.

تخبرنا التوراة في سفر صموئيل الأول أن داود حينما هرب من عدوه شاءول اختفي في برية "يشمون" وهناك زارته أبيجال" المرأة الجميلة زوجة المزارع الغني (نابال) الذي كان يمتلك قطعاناً من الغنم وكان داود قد تعهد له ألا يسرق غنمه. لكنه بعد ذلك رفض أن يزوده بالمؤن (وهي جزية طلبها داود منه). وهنا حركت هذه الإهانة إحساس داود الزائد بكرامته، ومن ثم فقد اتخذ طريقه الى مزارع "نابال" على رأس أربعمائة رجل من أشداء الرجال. كان كل منهم يحمل سيفه العريض في جنبه. وكان داود على وشك ارتكاب الجريمة التي لا يرتكبها إلا قطاع الطرق، حتى ظهرت له أبيجال زوجة نابال واستطاعت إقناعه بالعدول عن عزمه إحراق وتدمير كل ما يملك زوجها، فاقتنع داود وارتد ثانية ولم تمض عشرة أيام حتى توفي زوجها وتزوجها داود من بعده.(؟)

لا ندري لماذا تقص علينا التوراة هذه الحادثة في الوقت الذي تعود في موضع آخر لتركز الصورة حول داود الحليم الذي يعفو أكثر من مرة عن عدوه بعد أن واتته الفرصة تلو الفرصة لقتله، بل وصل به الأمر حينما مات شاءول أن كره داود في مماته.

٣ ـ اليهود تحت حكم داود :

على الرغم من أن صموئيل كان قد مسح داود ملكاً على إسرائيل منذ زمن طويل، كما تقول التوراة، إلا أنه لم يعتبر نفسه ملكاً إلا بعد مقتل شاءول؛ فبعد ذلك فقط أخذ داود يكتشف عظمته الملكية. وأول عمل ملكي قام به هو سؤال الرب عن المدينة التي يجعلها عاصمة لملكه. فجاءه الجواب حبرون (الخليل) [٢١] . ثم دعا الشعب فلم يعترف به سوى زعماء يهوذا، و"مسحوا داود ملكاً على بيت يهوذا"[٢٢]. وكان هذا هو المسح الثاني لداود.

وأقام داود في حبرون مع زوجتيه، أخينوعم وأبيجايل. ونصّب يوآب قائداً لجيشه. وسنرى فيما بعد أن هذا الرجل لعب دوراً هاماً في عهد داود.

وملك داود في حبرون على بيت يهوذا سبع سنين وستة أشهر(٢٣) لكن أبنير، قائد جيش شاءول، لم يعترف بشرعية اختيار قبيلة يهوذا داود ملكاً. وقدم للشعب بدلاً منه، إيشبوشت ابن شاءول الأصغر. واعترفت قبائل إسرائيل الإحدى عشر بإبن شاءول ملكاً عليها، واختار هذا الأخير مدينة محانيم عاصمة له. لكن ملكه لم يدم سوى عامين.

وهكذا وقعت الحرب الأهلية. والتقى الطرفان عند بركة جبعون. فاقترح أبنير على يوآب مبارزة يشارك فيها اثنى عشر شاباً من بنيامين ومثلهم من أنصار داود. ثم اندلعت بعد ئذ معركة شاملة هزم فيها أعداء داود. وفر أبنير بنفسه من المعركة

وبسبب النساء انتقل أبنير الى جانب داود."فقد كانت لشاءول سرية إسمها رصفه بنت أيه. فقال إيشبوشت لأبنير: لماذا دخلت الى سرية أبي؟ فاغتاظ أبنير جداً من كلام إيشبوشت وقال: ألعلي رأس كلب؟ أنا ضد يهوذا صنعت اليوم معروفاً مع بيت شاءول أبيك، ومع إخوته، ومع أصحابه ولم أسلمك ليد داود، وأنت تطالبني اليوم بإثم إمرأة. هكذا يصنع بأبنير، وهكذا يزيده، انه كما حلف الرب لداود، كذلك أصنع له: انقل المملكة من بيت شاءول وأقيم كرسي داود على إسرائيل وعلى يهوذا. من دان الى بئر سبع.

ولم يقدر بعد أن يجيب أبنير بكلمة لأنه خاف منه. فأرسل أبنير من فوره رسلاً الى داود قائلاً: لمن هذه الأرض؟ وقال أيضاً: اقطع معي عهدك، وها هي يدي معك لرد جميع إسرائيل اليك. فقال (داود) حسناً: أنا أقطع معك عهداً، إلا أني أطلب منك أمراً واحداً هو، الا ترى وجهي

مالم تأت بميكال بنت شاءول حين تأتي لترى وجهي. وأرسل داود رسلاً الى إيشبوشت بن شاءول يقول: اعطني امرأتي ميكال التي خطبتها بمائة غلفة من الفلسطينيين. فأرسل إيشبوشت وأخذها من عند رجلها، من فلطيئيل بن لايش. وكان رجلها يسير معها ويبكي وراءها بخوريم، فقال له أبنير: ارجع، فرجع "(٢٤) .

وهكذا استرد داود زوجته الأولى .أما فيما يختص بأبنير، فإن خيانته لسيده لم تحقق له السعادة. فعندما جاء الى داود في حبرون، وبرفقته عشرون خادماً، أقام له داود وليمة ثم أطلقه بسلام ليحرض القبائل اليهودية الأخرى على الاعتراف بداود ملكاً شرعياً وحيداً. ولما علم يوآب بذلك استدعى رجاله للحاق بأبنير وإعادته الى حبرون بحجة أن داود يريد أن يقول له شيء أخر. وهناك "مال به يوآب الى وسط الباب، متظاهراً بأنه يريد أن يقول سراً، فضربه في بطنه فمات. وهكذا ثأر لدم أخيه عسائيل.

ولما علم داود بالأمر قال: إني بريء ، فليحل دمه على رأس يوآب. ثم أقام لأبنير مأتماً يليق به كقائد عسكري فذ.

وبهذا الفى إيشبوشت نفسه في وضع لا يحسد عليه؛ فقد انفض عنه أكثر أنصاره.وفي يوم قائظ، بعد أن تناول إيشبوشت وجبة الغذاء، دخل ليأخذ قيلولة، فتسلل الى غرفته اثنان من قادة جيشه وخنقوه هناك ثم قطعا رأسه وجاءا بها الى داود فخوران بعملهما هذا، وانتظرا منه مكافأة مجزية. لكن داود أمر بقطع أيديهما وأرجلهما أولاً، ثم علقا على مشنقة واحدة عند بركة حبرون. أما رأس إيشبوشت فقد دفن مع أبنير في حبرون.

ملك داود في حبرون سبعة أعوام ونصف تلتها ثلاثة وثلاثون عاماً أخرى في أورشليم التي كانت مدينة يبوسية، فانتزعها داود من

أصحابها بعد أن أصبح ملكاً على القبائل اليهودية الإثنى عشر. وفي أورشليم عاش داود في قلعة أطلق عليها اسم "مدينة داود" وبنى مستديراً من القلعة فداخلاً". وقد أرسل له حيرام ملك صور، النجارين والحجارين فبنوا لداود بيتاً [٢٥].

ومما يجدر ذكره في هذا السياق، أن وثائق صور لا تذكر هذه البعثة قط، كما لا تأتى على أي ذكر لداود. لكن مهما كانت الحال، فإن تاريخ اليهود الحضر لم يبدأ إلا بعد استيلائهم على أورشليم، أما قبل ذلك التاريخ فلم يكن اليهود سوى أقوام من البدو الرحل تعيش على السلب والنهب متنقلة من جبل لآخر، ومن كهف لآخر، غير قادرة أن تبني لنفسها حياة بشرية عادية وتستقر في مكان واحد. وكانت مدينة أورشليم تقع على طريق القوافل التجارية التي تتعامل مع الفينيقيين، أي أن المدينة كانت تتمتع بموقع هام جداً[٢٦].

وقد علّق فولتير على هذا بقوله: "كان داود على رأس قوم فقير جداً عاش زمناً طويلاً في عبودية مذلة. فلم تكن الغنائم التي يغنمها في غزواته لتجعل منه غنياً، لأنه هو نفسه لم يذكر أنه غزا أى مدينة غنية. وأخيراً فإن تاريخ اليهود لم يعط أي إيضاحات بصدد الحال التي كان يعيشها اليهود في تلك الحقبة"[٢٧].

٣ ـ١ حكم داود اليهود حوالي عام ١٠١٠ق.م ابتداء بحكم يهوذا الى أن توفي إيشبوشت بن شاءول فحكم أهل الشمال أيضاً(إسرائيل) وضم القومين معاً في مملكة واحدة تحت قيادته، وضم القدس الى مملكته بعد أن استولى عليها من الفلسطينيين بعد أن هزم أمامهم مرتين، وبهذا ظهرت القدس لأول مرة عاصمة للمملكة الموحدة بزعامة داود. ونقل اليها تابوت الرب ونقل اليها مقر حكمه وجعلها عاصمة له.

وكان في اختياره للقدس عاصمة له ذكاء غير محدود. ويرجع ذلك الى موقعها الجغرافي الممتاز كأرض محايدة، تقع بين القبيلتين الإسرائيليتين الكبيرتين يهوذا وبنيامين، كما كانت تسيطر على خطوط المواصلات الرئيسية بين الشمال والجنوب كما أنها تتلاءم مع المملكة الموحدة التي أنشأها داود، ولم يكن لهذه المدينة في ذلك الوقت أي كيان ديني بالنسبة لليهود، ولم يكن هذا عيباً ، بل بالعكس كان ميزة كبرى ، ذلك لأنه عندما أحضر داود التابوت الى القدس، اتخذت المدينة طابعاً فريداً لم يتأثر بالتقاليد السابقة وأخذ هذا الطابع يقوى عبر القرون .

وبدأ داود بعد ذلك في تنظيم أمور مملكته السياسية والاجتماعية والدينية. ففي المجال السياسي والعسكري قام بتوسيع مملكته وذلك عن طريق الفتوحات العسكرية فاستولى على أرض الأدوميين والمؤابيين والعمونيين في شرق الأردن، كما تمكن من فرض سيطرته على دمشق - في فترة ما - وفقاً للنص التوراتي ،كما أجبر حاكمها على دفع جزية له، وأنشأ علاقات صداقة مع مدينة حماة في أقصى الشمال وفينيقيا في الشمال الغربي، ومع الفلسطينيين بعد أن انتصر عليهم.

أما في المجال الاجتماعي ، فيكفي داود أنه قام بإجراء أول إحصاء رسمي في تاريخ اليهود. ويبدو أن يهوه كان يعد هذا العمل جريمة بشعة، فحلت اللعنة على اليهود بسبب هذا التعداد وأصيبوا بالطاعون، وتناقص عدد اليهود إثر ذلك التعداد مباشرة، ونظر اليهود الى هذه الكارثة بوصفها جزاءاً طبيعياً لجريمة عدهم .

كما قام بتوزيع المناصب الرسمية في الدولة، فعين يوآب قائداً عاماً للجيش كما عرفنا من قبل.وعين يهوشافاط أميناً للدولة، وصادوق وأخي مالك كاهنين رسميين للدولة.

أما فيما يتعلق بحياته الخاصة ففيها الكثير من قصص البذخ

والإسراف والخزي أيضاً[٢٨].

٣ ـ ٢ وكان في بيت داود عوامل انهياره فإن انهيار مملكة داود لم يكن سبب عوامل خارجية أكثر من كونه نزاعات وأحقاد وثأر داخلي بين أفراد الأسرة بعضهم البعض.

تقص علينا التوراة في سفر صموئيل الثاني، قصة حدثت داخل بيت داود تدل على انهيار القيم في هذه الأسرة، وكان لهذه الحادثة أبعد الأثر في بذر البذرة الأولى في انهيار هذه المملكة وتفتتها.

يقول سفر صموئيل في الإصحاح الثالث عشر أن داود كان له عدد من الأبناء منهم ابشالوم وأخته تامار التي كانت على قدر كبير من الجمال، الى الحد الذي جعل أخاها غير الشقيق أمنون يهيم بها ويحتال لسلبها عفافها مما أثار حفيظة والده داود وأخيه زبشالوم شقيق تامار، فقرر قتله، واحتفظ في نفسه بفكرة الثأر من أخيه الى أن تمكن من قتله بعد سنتين وفر هارباً بعد قتله من وجه أبيه الذي خرج طالباً رقبته. ودارت معركة رهيبة بين أتباع أبشالوم الذي كان قد أعلن مملكة منشقة تحت زعامته وبين أتباع والده،راح ضحيتها عشروم الفاً من رجال إسرائيل. عشرين ألف يموتون في نزاع حدث بين الأب وإبنه. وما أن وصل الخبر الى داود بوفاة إبنه ومعه هذا العدد الضخم بكي داود وأخذ يردد "يابني .. ياإبني أبشالوم ..ياإبني أبشالوم..ليتني مت عوضاً عنك "

وتقدمت السن بدواد وداهمه المرض واشتد عليه فبدأ أبناءه يتطلعون الى كرسي الملك من بعده ـ وهو بعد حي ـ ويبدأ التطاحن يشتد بينهم ووصل الأمر الى حد أن إبنه أدونيا من زوجته حجيت أعلن نفسه ملكاً في حياة والده بينما كانت رغبة داود أن يملك من بعده إبنه

سلسمان إبن بتشيفع زوجة أوريا الحثي التي تزوجها داود بعد مؤامرته لاغتيال زوجها. وهنا يبدأ الصراع على المملكة بين الأخوين أدونيا وسليمان في حياة والدهما.

٣-٢ ليس هناك من شك في أن كاتب العهد القديم، قد نظر الى حياة داود وأعماله من خلال منظار ديني، وهو نفس المنظار الذي كان يضعه كل كاتبي العهد القديم. لكن حياة شاءول وداود ، كما وردت في العهد القديم؛ يمكن أن نفهمها ونستوضحها إذا وقفنا جيداً على ظروف ذلك العصر الذي عاشا فيه. فكلاهما شخصية مزساوية. مأساة شاءول تتركز في أنه أول ملك يملك في فترة انتقالية خطيرة. وكان الزعيم الديني للشعب غير راغب فيه وغير متقبل لوجوده على قمة السلطة. أما داود فكان ناجحاً في ملكه نتيجة لصفاته السياسية والعسكرية. لكن المأساة في حياته تتركز في حياته الأسرية، ويرجع ذلك الى عواطفه الفياضة وانعدام قدرته في السيطرة على أبنائه.

ونحن حين ندرس الفترة الانتقالية في تاريخ اليهود - كما قدمها لنا سفر صموئيل - يجب أن نشير الى حقيقة هامة ، وهي أن كل أقسام العهد القديم كانت تفسر الأمور من وجهة نظر لاهوتية،، أو كما يقول أحد كبار الساسة اليهود المحدثين في تعليقه على هذا الوضع: " إن مدون التوراة يبدأ سرده لأي ضائقة أو أي ضغط من جانب الجيران بكلمات مثل : وصنع بنو إسرائيل الشر في عين الرب وعبدوا البعل وغضب الرب وسلمهم لجيرانهم". ولو كان رجال العهد القديم يكتبون عن العصر الحديث لكانوا قد بدأوا كتاباتهم هكذا : وصنع يهود بولندا والمانيا والمجر الشر في غيني الرب، فسلمهم لأيدي هتلر ليفعل بهم كما يريد"[٢٩]

٤ـ٣ وإذا أردنا أن نفهم الواقع التاريخي ، كما يصفه العهد القديم، علينا أن نفرق بين وجهة النظر الدينية للكاتب وبين الأحداث وفقاً لتسلسلها الطبيعي. فنحن إذا قرأنا قصة داود، كما وردت في سفر صموئيل، فإننا لا نشك في صدقها. لكن يجب أن نفهم الأحداث من الناحية الإنسانية، بدون أن نجعل من داود نبياً أو نجعل منه الرجل الذي يعرف الرب دائماً.

ليس هناك من شك في أن داود - مثله مثل كل معاصريه - قد آمن بإله إسرائيل وفقاً للنظرة العامة السائدة في ذلك الوقت للإيمان. لكن أعمال داود يمكن أن نفهمها من خلال ظروف الانتقال في عصره من السيادة المؤقتة لشخص روحي على أسباط إسرائيل، الى نظام الملكية في صورة شعب موحد. ومن هذا المنطلق يمكننا أن نرصد ثلاث شخصيات دينية لعبت دوراً بارزاً في هذه الفترة. صموئيل وشاءول وداود.

لقد عرف داود منذ صغره بأنه راعي غنم أبيه في ناحية بيت لحم يهوذا وقد اشتهر هناك بأنه يجيد الضرب على العود وأنه جبار بأس ، رجل حرب، فصيح، ومؤيد من الرب.

وليس هناك من شك في أن رجلاً كهذا، رأى في نفسه خاصية كبيرة تؤهله لعمل عظيم، ويبدو أنه وجد طريقه الى صموئيل بصورة ما. وشجعه صموئيل برغبته الكامنة في كراهية شاءول. وربما لم تكن مجرد حادث عابر، أنه حينما اكتاب شاءول نصحه رجاله بأن يطلب شخصاً يجيد الضرب على العود للضرب أمامه، وحينما وافق شاءول على هذه النصيحة ، استدعوا له داود.

وهكذا اقترب داود من البلاط الملكي، ووجد قبولاً لدى شاءول

وإبنته التي وقعت في غرامه. كما أنه استطاع أن يصادق إبن الملك، الذي يعد إحدى الشخصيات الرائعة في العهد القديم، حيث قدم مساعدات غير محدودة لداود في طريق تقدمه نحو العرش.

وما من شك في أن فترة بقاء داود في بيت شاءول قد مكنته من الوقوف على شخصية شاءول غير المستقرة. الأمر الذي منحه الثقة في نفسه والاقتناع بأنه الشخص المرتقب والمؤهل لبدء فترة جديدة في التاريخ الإسرائيلي.. كما أن الشعب احترم داود واعترف بتفوقه على شاءول وعبر عن ذلك بالقول: ضرب شاءول ألوفه وضرب داود ربواته".

وقد أعطت هذه الحادثة الفرصة لداود كي يرتفع شأنه، حيث رقاه شاءول الى رتبة رئيس ألف. لكن هذه الحادثة أيضاً كانت بداية للصراع بين شاءول وداود، وهو الصراع الذي لعب فيه يوناتان بن شاءول دوراً قلما يوجد في التاريخ.

وتحول داود الى شخص مطارد، خارج على القانون، لكنه عرف كيف يستغل هذا الوضع. فقد جمع حوله شرذمة من أشداء الرجال وبذل جهده كي يجعل لنفسه حلفاء.وحاول التقرب من ملك مؤاب، وربما يرجع ذلك الى صلة القربى بينهما. لأن والد داود كان حفيد روث المؤابية (٣٠). وقد أبدى داود حكمة سياسية بارعة ، خصوصاً في الفرص المتعددة التي واتته للقضاء على شاءول، ذلك لأنه عرف أن مساسه بمسيح الرب، وملك إسرائيل في ذلك الوقت، كفيل بتأليب الشعب ضده ولهذا كان داود يترفع عن قتل شاءول ولم يستمع الى نصيحة مستشاريه وأصدقائه المقربين بقتل شاءول. ونراه قد بذل كل جهده ليثبت له أنه لو أراد أن يقتله لقتله ووضع حداً لحياته.

وعبر داود بجيشه الى فلسطين، وتحالف مع لاخيش ملك جت وقام بغارات منظمة على الشعوب المجاورة التي كانت تغير على

المستوطنات الإسرائيلية في الجنوب. وبهذا العمل كسب داود القبائل الجنوبية تمهيداً للسيطرة عليها وتكوين مملكته.

وبعد أن علم داود بوفاة شاءول قام بعمل أكبر مناورة سياسية في حياته، حيث رثى شاءول في مرثية كبيرة، كما قتل الجندي الذي أبلغه بوفاة شاءول وأبنائه، تعبيراً تظاهرياً منه بحزنه الشديد على هذه الكارثة القومية.

وقد عرف داود أنه ليس من السهل أن يتمكن من رئاسة إسرائيل كما أنه لم يتسرع في تنفيذ ذلك المطلب، لا في أيام شاءول ولا حتى بعد مماته لكنه اعتبر موت شاءول بمثابة إشارة له كي يستعد للملك، حيث كان صموئيل قد مات أيضاً، ولم يقم في إسرائيلب رجل دين مثله. وكان النظام الملكي قد ضرب جذوره أيضاً في وجدان البيهود. وكان أغلب اليهود يقدرون داود ويحترمونه، لكن كان له أيضاً أعداؤه الذين تربصوا به، وبحكمة بالغة اكتفى داود في البداية بحكم مملكة يهوذا في حبرون (الخليل).

لكن هذا لا يعني أن النزاع بين بيت شاءول وبيت داود قد توقف، لكن من حسن حظ داود أن شاءول لم يترك بعده وريثاً يقوم بمهامه، كما تراجع تأثير الكهنوت على حياة العامة بعد وفاة صموئيل وضعف رجال الكهنوت المعاصرين له، فتمكن داود بمرور الوقت من ضم المملكتين معاً لأول مرة في التاريخ الإسرائيلي.

٤ - سليمان خليفة داود في حكم اليهود :

بعد أن تقدمت السن بدواد بدأ إبنه أدونيا يطمع في الحكم، كما سبق القول، قام داود باستدعاء إبنه سليمان لمسحه ملكاً على إسرائيل، فقام صادوق الكاهن وناثان وكل عبيد داود، وأخذوا سليمان وأركبوه

على بغلة أبيه وانطلقوا به الى جيحون، كما أمرهما داود. وهناك مسحوه ملكاً علي كل إسرائيل. وسمع أدونيا أن داود قد ملك سليمان فتملكه الرعب وفر الى خيمة الاجتماع حيث تابوت الرب أملاً في ألا تمتد اليه يد أخيه سليمان وذلك لأن هذا المكان كان يعتبر مكاناً مقدساً لا يمكن إراقة الدماء فيه. لكن حدث أن عفا عنه سليمان وأمره بالإنصراف الى بيته واعتزال الحياة السياسية (٣١). ويعني هذا القرار الذي اتخذه سليمان في لغة العصر تحديد الإقامة، أي أن سليمان أعفى أخيه أدونيا من مناصبه التي كان يتولاها وحدد إقامته في منزله.

وقبل وفاة داود استدعى إبنه سليمان وأوصاه قائلاً: " أنا ذاهب في سبيل أهل الأرض كلهم - الى الموت - فتشدد وكن رجلاً، واحفظ وصايا الرب الهك، واسلك في طريقه، على ما هو مكتوب في شريعة موسى لكي تفلح(٣٢)

ثم جمع جميع رؤساء إسرائيل وكل أبنائه والأبطال وكل عظماء المملكة وخاطبهم قائلاً "لقد كان في نفسي أن أبني بيتاً لتابوت عهد الرب، وقد أعددت كل مواد البناء. إلا أن الله قال لي : أنت لا تبني بيتاً لإسمي ، لأنك رجل حروب وقد سفكت الدماء، بل سليمان إبنك هو يبني بيتي.

ومات داود ودفن في مدينة داود. وتحدد لنا التوراة مدة حكم داود على إسرائيل بأنها كانت أربعين سنة، في حبرون ملك سبع سنين وفي القدس ملك ثلاثاً وثلاثين سنة. وكانت وفاته في عام ٩٧٠ ق.م.

وكان أول عمل قام به سليمان بعد ارتقائه العرش هو تطهير المملكة كما أوصاه داود قبل وفاته، من الخونة وأعضاء السوء .

وأول من شمله التطهير الذي قام به سليمان كان "أدونيا" أخوه من أبيه، الذي كان قد سبق وحدد إقامته. وذلك لأنه بمجرد وفاة داود، أخذ

يلعب بالنار ويضمر السوء لسليمان محاولاً الإيقاع به وذلك حينما ذهب الى أم سليمان وطلب منها التوسط لدى إبنها لكي يزوجه "أبيشاج الشمونية" أجمل نساء داود وأصغرهن سناً ولم يكن داود قد دخل بها.

وبمجرد أن سمع سليمان بهذا الطلب حتى أمر بقتله، وربما دفعنا هذا التصرف السريع من سليمان الى الوقوف هنا لنعرف السبب الحقيقي الذي دفع سليمان للتخلص من أدونيا.

كان القانون العبري في ذلك الوقت(وهو أشوري بابلي في الأصل) يعطي الملك الجديد الحق في وراثة الملك السابق لا في ملكه فقط وإنما تمتد الوراثة الى كل ممتلكات الملك السابق بما فيها نساءه، وبناء على هذا، ربما اعتقد سليمان أن تقدم أخيه بطلب إحدى نساء داود كزوجة له يعتبر نوعاً من التمرد، لأن هذا الطلب كان بمثابة طلب العرش ضمناً، طالما أنه سمح لنفسه بطلب شيء من الموروثات وإذا أضفنا الى هذا الحادثة السابقة التي قام بها أدونيا حينما نصب نفسه ملكاً على إسرائيل في حياة والده وتحديد إقامته بعد ذلك. لفهمنا أبعاد القرار الذي أصدره سليمان بقتله.

وكان من بين المتآمرين مع أدونيا في هذه المؤامرة كل من يوآب وأبيتار رئيس الكهنة وشخص آخر يدعى "شمعي" وما أن علم يوآب بمقتل أدونيا حتى هرب الى المكان المقدس واعتصم هناك ظناً منه أن سليمان سيستحرم قتله ـ كما سبق وأن قلنا مع أدونيا ـ ولكن سليمان أصدر أمراً بقتله هناك قائلاً "ليرد الرب دمه على رأسه، لأنه بطش برجلين بريئين خير منه، وهما أبنير بن نير، رئيس جيش إسرائيل، وعماسا بن ياتر رئيس جيش يهودا. أما أبيتار رئيس الكهنة فلم يقتله احتراماً لكرامة تابوت الرب، الذي كان يحمله يوم دخوله الى القدس

ولأنه شاطر أحزان داود في حله وترحاله.

واكتفى بأن أصدر أمراً له بالانصراف الى مدينته ليرعى شئون بيته الخاصة دون شئون الدولة العامة، أى بمعنى آخر أصدر أوامره باعتزاله الحياة العامة وتجريده من منصبه كرجل دولة. كما أصدر أمراً آخر بتحديد إقامة شمعي في منزله وقال له "إعلم أنك يوم تخرج وتجوز وادي قدرون تموت موتاً، ويكون دمك على رأسك. وحدث بعد ثلاث سنين أن هرب عبدان من عبيده الى جت، فخرج شمعي دون استئذان الملك وأحضرهما، وعلم سليمان بذلك فاستدعاه وقال له: "لماذا لم تحفظ حلف الرب، والأمر الذي أمرتك به، إنك ولا شك تذكر جيداً الشر الذي صنعته بداود أبي، إن هذا الشر يرده الرب الى رأسك اليوم، وأصدر أمراً الى بنيامين بن يهوياداع بقتله، ونفذ فيه الأمر .

وبعد ذلك عين بنايا بن يهوياداع رئيساً عاماً للجيش بدلاً من يوآب واختار صادوق الكاهن لرئاسة الكهنوت بدلاً من أبيتار.

وبعد أن انتهى سليمان من تطهير المملكة من أعدائها الداخليين، حتى أخذ في توطيد أسس النهضة التى بدأها أبوه كما أخذ في تقوية المملكة من الخارج حيث قام بعقد معاهدات صداقة مع الملوك المجاورين. وكانت أول معاهدة من هذا النوع هي تلك التي أبرمها مع ملك مصر، بمصاهرته فرعون(٣٣).ويمكن أن نطلق على مثل هذه المعاهدات الخارجية أنها كانت تعكس العلاقات السياسية الدولية لمملكة سليمان.

وإذا أردنا أن نأخذ صورة عامة عن التنظيم الإدارى في مملكة سليمان فنجد شرحاً وافياً لهذا التنظيم في الإصحاح الرابع من سفر الملوك الأول حيث جاء " تعيين عزرياهو بن صادوق الكاهن واليحورف وأخيا إبنا شيش كاتبان، ويهوشافاط بن أخيلود مسجلاً. وبناياهو بن يهوياداع قائداً عاماً للجيش وصادوق وأبيتار كاهنان، وعزرياهو بن

ناتان مشرفاً عاماً على الوكلاء وزابود بن ناتان كاهن وصاحب الملك. وأخيشار على البيت وأدونيرام بن عيدا مشرفاً على العبيد. كما كان لسليمان إثنا عشر وكيلاً على جميع إسرائيل.

وامتد سلطان سليمان على جميع الممالك الصغيرة المجاورة لإسرائيل، من نهر الفرات الى أرض فلسطين، والى حدود مصر، فكانوا يحملون اليه الهدايا خاضعين له في بعض الأحيان. وكان بينه وبين جميع الملوك الأخرى سلام، واستطاع أن يجلب الطمأنينة على كل سكان إسرائيل من دان الى أقصى الشمال الى بئر سبع في أقصى الجنوب.

كما أنشأ سليمان أسطولاً بحرياً من السفن التجارية في البحر الأحمر تحت إمرة ملاحين فينيقيين يعملون مع عبيده. وكان له أسطولاً آخر يجوب البحار الشرقية، حتى أوفير ببلاد الهند. وكان أساطيله تجلب الذهب والفضة والأحجار الكريمة والأخشاب الثمينة(٣٤). كما أنشأ أسطولاً آخر في البحر الأبيض ووصل به الى حدود أسبانيا، وكانت هذه السفن تعود مرة كل ثلاث سنوات محملة بالذهب والفضة والعاج والقردة والطواويس (٣٥).

وفي المجال الداخلي، بنى سليمان عدة مدن أهمها: جازر، بيت حورون، بعلت، ندمر، ومدن خاصة بالمخازن، كان يخزن فيها ممتلكاته الخاصة، ومدناً أخرى للمركبات ومدناً للفرسان. وقد سخر لهذه الأعمال العظيمة من بقوا من ذرية الأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين (٣٦).

وكان أكبر عمل معماري قام به سليمان هو بنائه بيت الرب أو الهيكل المقدس، وتشييده أيضاً قصره المنيف، وبدأ سليمان في بناء هيكل الرب في السنة الرابعة من حكمه وقد استغرق البناء سبع سنين واختار موقعه على جبل الموريا، شمال شرق القدس. وبلغ عدد العمال

الذين استخدمهم سليمان لإنجاز هذا العمل مئتي ألف عامل، منهم ثلاثون ألف عامل سخرة وسبعون ألف عامل لحمل الأثقال ونقلها، وثمانون ألف لقطع الأحجار ونحتها قبل تصديرها الى القدس. هذا عدا الرؤساء والمشرفين ثلاثجة آلاف وثلاثمائة رجل. [يلاحظ هنا أن هذا العدد والعتاد لا يتسق مع حجم الهيكل الوارد في الكتاب المقدس] .

ويتكون الهيكل من قسمين: القدس وقدس الأقداس وهو ضعف مساحة خيمة الإجتماع التي كان قد أقامها موسى. ومن ثم كان طوله ثلاثين متراً وعرضه عشرة أمتار، ويمتد أمام القدس دهليز، وهو بعرض البيت وطوله خمسة أمتار.

وكان للقدس، الذي لم يكن مسموحاً بدخوله إلا للكهنة، شبابيك مرتفعة. أما قدس الأقداس أو المحراب ، فلم يكن يسمح إلا لرئيس الكهنة بدخوله ومرة واحدة فقط في السنة. وكان مظلماً تماماً. ويبلغ ارتفاع رواق القدس أو الدهليز ثلاثون متراً، والقدس خمسة عشر متراً. أما ارتفاع قدس الأقداس، فكان عشرة أمتار.

أما القصر الذي بناه سليمان لنفسه فتحدثنا عنه الوراة بقولها أن سليمان بناه في ثلاث عشرة سنة. وكان طوله خمسون متراً وعرضه خمسة وعشرون وسمكه خمسة عشر متراً على أربعة صفوف من أعمدة من خشب الأرز المستورد من لبنان(٢٧) .

وليس هناك من داع للاستفاضة في هذه الأرقام، لكن ورودها هنا ليس سوى محاولة لعقد مقارنة بين بيت الرب وبيت سليمان وكم أنفق سليمان على بيته في مقابل ما أنفقه على بيت الرب.

وكان في أواخر أيامه أن استسلم سليمان الى الشهوات، فأحب نساء غريبة كثيرة مع زوجته إبنة فرعون، من المؤآبيين والعمونيين والأدوميين والصيدونيين والحثيين، ومن الأمم التى أمر يهود بني

إسرائيل بعدم الاختلاط بهم.

ويحاول العلماء إيجاد مبرر لهذا لدى سليمان، فيقولون أن سليمان كان بحق رجل دولة من الطراز الأول، ولعله أراد ببعض هذه الزيجات أن يوطد صلاته بالدول المجاورة، كما يرجعها فريق آخر من العلماء الى فكرة أكثر تطرفاً حيث يقولون أن الباعث على ذلك هو نفس الباعث الذي دفع رمسيس الثاني الى نفس العمل، وهو رغبته في أن يترك وراءه طائفة من الأبناء لهم من القوة الجنسية العظيمة ما كان له هو.

المهم أنه بعد أن انتهى سليمان من تأسيس المملكة وكانت قد تقدمت به السن، أخذت عنايته بالدين تقل على مر الأيام، كما أخذ يتردد على حريمة أكثر من تردده على الهيكل وبدأ يرضي زوجاته الأجنبيات بأن أقام مذابح لآلهة زوجاته الأجنبيات. وتقول التواة في هذا الصدد، أن الرب غضب على سليمان حينما مال قلبه عنه، وهو الذي تجلى له مرتين وأمره بالرجوع عن هذا الفساد، ولم يرتدع، فقال له الرب: بما أنك لم تزل مصراً على غيك، ولم تحفظ عهدي ورسومي التي أمرتك بها، فسأشق الملك عنك وأدفعه الى عبدك، إلا أنني لا أفعل ذلك في أيامك، من أجل داود أبيك، بل من يد أبنائك أشقه، ولا أشق الملك كله، ولكني أعطي لإبنك سبطاً واحداً، من أجل داود عبدي ومن أجل أورشليم التي اخترتها.

وحدث في تلك الأيام أن بدأ الشعب يتذمر من الضرائب الباهظة التي فرضها سليمان عليهم، ومن حياة الفقر التي بدأ الشعب يعيشها في الوقت الذي كان ينعم فيه ملكهم بأطايبه وملذاته، فبدأت تظهر بعض القلاقل التي تهدد صفو الحياة الرغدة التي كان يعيشها سليمان، ورفع لواء العصيان ضده كل من هدد الأدومي ومن بعده رزون بن اليادع

ثم يربعام بن نباط الأفرايمي الذي سيكون له شأن بعد وفاة سليمان.

ومات سليمان بعد أن ملك على إسرائيل أربعين سنة. مات ولم يبد أى توبة، لذلك فإن كثير من العلماء ومفسري الكتاب المقدس يشكون في مدى إخلاص سليمان للدين، وفقاً للرواية التوراتية عنه.

وبعد وفاة سليمان كانت موارد إسرائيل قد نضبت ، ونشأت فيها طائفة من العمال الصعاليك لا يجدون عملاً دائماً يرتزقون منه.

الفصل الثالث

التاريخ الإسرائيلي من انقسام المملكة حتى المهجر البابلي

تضم هذه الحقبة٢٤٦ سنة، تبدأ عام٩٣٢ وتنتهي في عام ٥٨٧ ق.م.

١ ـ بعد أن توفي سليمان، ملك من بعده إبنه رحبعام. وبدأ رحبعام حياته متردداً لا يدري ماذا يفعل، وربما كان له بعض العذر في ذلك. فقد ورث المملكة عن أبيه سليمان الذي كان يتمتع بشخصية عظيمة وحكمة مؤيدة من الرب وحب لا محدود من الشعب، باستثناء الفترة الأخيرة التي بدأ فيها الشعب يبدي تبرمه، كما كان عصر سليمان يتسم بعلاقات خارجية ممتازة، وكل هذا دفع الملك الشاب الى التردد والشك في مدى محافظته على المملكة بهذه الصورة، ولكن لازمه سوء الحظ منذ بداية حياته كملك. فقد كانت الأسباط الشمالية وعلى رأسها سبط أفرايم،المنافس الأكبر لسبط يهودا، على التخلص بأي ثمن ، من قيود الضرائب التي كانت قد أثقلت كاهلهم منذ أيام سليمان، ولا سيما في أيامه الأخيرة بعد أن أسرف في إغداقه على ملذاته الخاصة.

وحتى يتمكنوا من فرض إرادتهم على الملك الجديد، دعوه الى شكيم(نابلس)بعيداً عن البلاط في القدس،وذلك بحجة الاحتفال بتتويجه ملكاً عليهم.

وما أن وصل رحبعام الى شكيم حتى واجهه الشعب بمطالبهم قائلين: إن أباك قد أثقل نيرنا، فخفف أنت الآن من عبودية أبيك الشاقة، ونيره الثقيل فنخدمك. فقال رحبعام: امضوا الآن، ثم عودوا بعد ثلاثة أيام.

وخلال هذه الأيام الثلاثة قام رحبعام باستشارة الشيوخ الذين كان يستشيرهم سليمان، فكان ردهم عليه: إن أنت تنازلت لهؤلاء في هذا

اليوم، ووافقتهم، وكلمتهم بإحسان، فإنهم يكونون لك عبيداً كل الأيام.
ونتيجة لتردده وعدم ثقته بنفسه ـ كما سبق الذكر ـ لم يكتف بهذه المشورة، بل قام أيضاً باستشارة الجيل الشاب الذين نشأوا معه، فقالوا له: قل لهؤلاء إن خنصري أغلظ من ظهر أبي والآن، فإن أبي حمّلكم نيراً ثقيلاً، وأنا أزيد على نيركم. أبي أدبكم بالسياط، وأنا أؤدبكم بالعقارب. وفي اليوم الثالث أخذ رحبعام بمشورة الشباب، فغضب الشعب وتمردوا عليه، إلا سبطي يهوذا وبنيامين.

ومن سوء الحظ أيضاً، حدث في تلك الأيام أن سمع يربعام بن نباط بوفاة سليمان وكان قد فر هارباً من وجهه بعد تمرده عليه، الى مصر، فعاد الى فلسطين مرة أخرى طمعاً في الحكم وانتقاماً لنفسه بعد سنوات الغربة. فانتهزت الأسباط العشرة فرصة وجوده وهو عدو لسلالة سليمان وأعلنوا الانفصال عن المملكة وتنصيب يربعام ملكاً عليهم (١).

وانقسمت المملكة الى مملكتين صغيرتين لا قوة لهما ولا مهابة، وصارت مملكة يهوذا الخاضعة لرحبعام وعاصمتها أورشليم (القدس) ومملكة إسرائيل، الخاضعة ليربعام وعاصمتها شكيم (نابلس)، ثم بعد ذلك السامرة. ولم تدم مملكة إسرائيل أكثر من ٢١٠ سنة، أي حتى إجلاء ملكها وبقية الشعب الى نينوى.

أما مملكة يهوذا فعاشت ٣٤٦ سنة، أي حتى الانتقال القسري الى بابل.

ولا يمكن أن نسرد تاريخ المملكتين في آن واحد. ولهذا فإننا سنبدأ من هنا في الحديث عن كل مملكة منفصلة عن الأخرى، وربما دعمنا في هذا المبدأ اعتبار أن كل مملكة كانت مستقلة استقلالاً تاماً عن الأخرى، الأمر الذي يمكن أن نقول معه، أنه اعتباراً من هذا التاريخ، أصبح لدينا

تاريخين لليهود، الذين لم يتحدوا في مملكة واحدة بعد ذلك وحتى تهجيرهم النهائى من فلسطين عام ٧٠موانتشارهم في شتى بقاع الأرض.

١ - تاريخ المملكة الشمالية :(مملكة سرائيل):

يمتد تاريخ المملكة الشمالية من سنة٩٣٢الى سنة٧٢٢ق.م ويمكننا تقسيم تاريخ هذه المملكة الى ثلاث فترات :

الفترة الأولى: فترة حروب وصراعات بين الدولتين الناشئتين، وامتدت حتى أواخر حكم أحاب.

الفترة الثانية: وهى تعتبر فترة سلام بين الدولتين، وتتسم بظهور الأنبياء وتعددهم، وبداية اتخاذ الدين اليهودي مظهراً جديداً على يد هؤلاء الأنبياء.

الفترة الثالثة: وهي فترة عادت فيها الحروب مرة أخرى بين الدولتين وتمتد حتى نهاية المملكة وتدميرها على يد شلمانصّر ملك آشور وتهجيره لأهلها الى نينوى.

كان يربعام بن نباط(٩٣٢ ـ٩١١ ق.م.) هو أول ملك مؤسس للمملكة الشمالية . واتسمت هذه المملكة باتساع رقعتها وكثرة سكانها، وبالتالي كانت أكثر رخاء من المملكة الجنوبية(مملكة يهوذا). لكن سرعان ما حادت هذه المملكة عن طريق الرب، وعن عبادة يهوه وسقطت في عبادة الأوثان. وكان سقوطها على يد ملكها نفسه الذي قاد لواء الدعوة الى عبادة الأوثان. وتفصيل ذلك أن يربعام كان يخشى على عرشه أكثر مما كان يخشى الرب، فقام بصنع عجلين من الذهب ووضع أحدهما في بيت إيل والآخر في مدينة دان بالقرب من الحدود الشمالية. وخاطب الشعب قائلاً: هذه آلهتكم ياإسرائيل التي أخرجتكم من أرض مصر. فلا حاجة لكم بعد أن تصعدوا الى أورشليم. ذلك لأن أورشليم كانت تتبع المملكة

الجنوبية في تقسيم المملكتين. وتبعه الشعب وبدأوا يمارسون عبادتهم وتقديم الذبائح أمام العجلين بدلاً من الصعود الى أورشليم، ولم يكتف يربعام بذلك، بل بنى المشارف لتقديم الذبائح عليها. ولأول مرة أخذ يختار كهنته من عامة الشعب، بعد أن كانت الكهانة قاصرة على اللاويين فقط وفقاً لما أمر به موسى في شريعته - كما ادعى لنفسه سلطة الكهنوت، وبهذا يكون قد مزج بين السلطة الدينية والسلطة المدنية لأول مرة في إسرائيل.

وتستطرد التوراة بعد ذلك لتقول أن الرب لم يغفر ليربعام هذا الشر الذي عمله وإنما بدأ الرب يعاقبه بشتى أنواع العقاب عقاباً له على ترديه في هوة الوثنية. فكانت البداية، حينما وقف يربعام يقدم الذبائح الى عجله الذهبي وإذا برجل من يهوذا - تقول عنه التوراة أنه أحد رجال الرب - أخذ يصيح نحو المذابح بقوله: يامذبح ..يامذبح.. هكذا قال الرب: هو ذا سيولد لبيت داود إبن يسمى يوشيا، سوف يذبح عليك كهنة المشارف ويحرق عليك عظام الموتى فتصير رجساً. وهذه علامة لكم هو ذا المذبح ينشق ويذري الرماد الذي عليه.

فلما سمع يربعام هذا الكلام، مد يده نحو المذبح، مشيراً الى رجل الرب ليقبضوا عليه فيبست يده وانشق المذبح وذري الرماد الذي عليه. فسأل يربعام الرجل أن يصلي لأجله، لترد اليه يده، فاستعطف رجل الله وجه الرب، فعادت يد الملك صحيحة كما كانت من قبل (٢)

وعلى الرغم من كل ذلك لم يرتدع يربعام واستمر في غيه وضلاله، وبعد ذلك مرض ابنه واشتد عليه المرض، فارسل زوجته الى أخيا النبي لتسأله عن مصير ابنها وعن هذا الحظ العثر الذي يلازمه. وما أن وصلت زوجته الى أخيا النبي حتى بادرها بقوله: هكذا يقول الرب، حيث أني رفعتك وجعلتك رئيساً، وشققت الملك عن بيت داود،

وأعطيته لك، ولم تحفظ وصاياي .. فهاأناذا جالب الشر عليك وقارض كل حيّ في بيتك. فمن مات لك في المدينة تأكله الكلاب ومن مات في الصحراء تأكله طيور السماء. أما عن ابنها المريض فانبأها بانه سيموت بمجرد دخولها المدينة، وأنه الوحيد من بيت يربعام الذي سيحويه قبر، لأنه وجد فيه شيء من الصلاح لدى الرب[٣].

وحدث بعد ذلك أن أخذت المصائب تنهال على يربعام، فمات إبنه ولي العهد واجتاحت جيوش فرعون أراضيه ونهبت ما نهبت وقتلت من قتلت، وتفاقمت عليه المصائب حينما أخذ أبيام بن رحبعام (ملك يهوذا الجديد) يجتاح أراضيه هو الآخر بجيوسه وتمكن من أن ينتزع منه عدة مدن هامة، بعد أن قتل من رجاله خمس مئة الف رجل.

ومات يربعام بعد أن ملك على إسرائيل اثنتين وعشرين سنة وخلفه في الحكم إبنه ناداب.

ولم يستمر حكم ناداب سوى عامين فقط (٩١١ـ٩١٠ق.م.) وقد سلك في طريق أبيه وصنع الشر في عيني الرب وكان من الضعف بحيث أغرى كل من عنده استعداد للتمرد وشهوة الوصول الى الحكم في التآمر عليه، وتمكن منه بعشا، من سبط يساكر وتمكن من القضاء عليه في جيشون[٤] .

وكانت الظاهرة العامة التي اتسم بها هذا العصر بعد وفاة يربعام أن الملوك الخمسة الأوائل الذين أتوا بعده، بما فيهم ناداب، كانوا جميعاً أشراراً ، وكانت بينهم وبين ملوك يهوذا حروب متواصلة.

اعتلى بعشا العرش من عام ٩١٠ واستمر فيه حتى عام ٨٨٧ ق.م وتمكن بعشا طوال هذه الفترة من القضاء على كل بيت يربعام فلم يتبقى أحد من أبنائه ، وبهذا تحقق كلام الرب الذي قاله أحيا لزوجة يربعام .

وصنع بعشا الشر في عين الرب، فقال له الرب عالى لسان ياهو النبي حيث أني رفعتك عن التراب وجعلتك قائداً لشعبي إسرائيل، فسلكت في طريق يربعام وجعلت شعبي يخطأون، فهاأنذا مستأصل ذريتك وجاعل بيتك كبيت يربعام. وملك بعشا على جميع إسرائيل أربعاً وعشرين سنة ومات ودفن في ترصة عاصمة ملكه (٥)

وملك من بعده إبنه أيله من عام ٨٨٧ وحتى عام ٨٨٦ق.م. ولم تمض سنتان على ملكه حتى تحالف عليه أحد قواده يدعى زمري. وتمرد عليه وقاد ثورة ضده وقتله في عاصمته وهو ثمل من كثرة الشراب في بيت أرصا أحد عبيده وتمكن من القضاء على كل بيته وبيت أبيه بعشا، محققا بذلك نبوءة ياهو.

ولم يملك زمري سوى سبعة أيام فقط، ذلك لأن رجال الجيش الذي كان يحاصر مدينة جيشون الفلسطينية في ذلك الوقت، عندما سمعوا أن زمري قتل الملك واستولى على الحكم، غضبوا لتلك الخيانة ولم يرضوا بزمر ي ملكاً، بل نصبوا عمري قائد الجيش ملكاً عليهم. هذا ماقالته التوراة عن هذه الحقبة. لكن إذا نظرنا اليها بمفهوم عصري لاكتشفنا أن حنه قد حدث انقلابان في ذلك الوقت، انقلاب قام به زمري في العاصمة وتمكن به من قتل الملك وكان هناك في نفس الوقت انقلاب آخر بين صفوف الجيش قاده عمري القائد العام للجيش الذي كان آنذاك في حرب مع الفلسطينيين، وبهذا تتحول النظرة القومية للأمور الى صراعات شخصية على الحكم ودليلنا على ذلك أن عمري رفع الحصار عن مدينة جيشون وجاء بجيشه وقام بمحاصرة ترصه العاصمة واستطاع الاستيلاء عليها بقواته مما دفع زمري الى الانتحار حرقاً داخل قصره(٦).

وملك عمري على إسرائيل اثنتى عشرة سنة من عام ٨٨٦ حتى عام ٨٧٥ق.م. والغى ترصة باعتبارها عاصمة المملكة وأسس بدلاً منها

مدينة السامرة، وأنشأ منها فيها حصوناً قوية واستخدمها عاصمة لمملكته.

ولم يشذ عمري عن بقية ملوك إسرائيل الذين سبقوه، بل سار هو أيضاً في طريقهم منتهجاً طريق الخطيئة والشر. وما أن مات حتى ارتقى العرش من بعده إبنه آحاب، وهو الملك الذي فاق في شره كل ملوك إسرائيل، فقد كان مارقاً مشركاً شديد الكفر، ولم يكفه اقتفاء أثر خطايا يربعام والملوك الذين أتوا بعده، بل زاد عليهم بإدخاله عبادة البعل في البلاد بصورة رسمية، واستمر حكمه من عام ٨٧٥ حتى عام ٨٥٣ ق.م. بنى خلالها معبداً ومذبحاً بالسامرة مقر الحكم وسجد له علناً. وبالغ في صنع الرجس، حينما أغوته إيزابيل إمرأته، وهي دون شك شر امرأة ذكرها الكتاب المقدس. فبتحريض من هذه المرأة الجهنمية ، أباد آحاب كل أنبياء الرب، وكل من تجرأ على توبيخه عن آثامه ورجاساته الكافرة.

وقبل أن نمضي في سرد حداث التاريخ اليهودي في هذه الحقبة يجب أن نتوقف قليلاً بعد أن تردد كثيراً ذكر أنبياء الرب، ومعارضتهم الشديدة للانحراف الديني، يجب أن نتوقف قليلاً لنلقي الضوء على فكرة النبوة وأهدافها.

كانت بداية ظهور الأنبياء في وقت تقسيم المملكة بعد سليمان الى شمالية وجنوبية وكان ظهورهم بصورة أكثر في المملكة الشمالية لكثرة انحراف ملوكها،فكان الأنبياء يعارضون العبادات الدينية الغريبة وأيضاً الإغراق في الحياة المدنية الدنيوية.فمن هم هؤلاء الأنبياء؟ هناك اختلاف كبير بين هؤلاء الأنبياء وبين الأنبياء الذين تقدموا الصفوف بعد ذلك بقرون قليلة كنصراء لعقيدة محضة مثل عيسى عليه السلام ومحمد صلوات الله عليه،فإن الأنبياء اليهود في هذه الفترة لا يختلفون

كثيراً عن أنبياء البعل الذين ظهروا بين الشعوب الأخرى، وهم عبارة عن فرق من الدراويش الذين يستولى عليهم الجذب، وكانوا تحت تأثير الموسيقى والرقص يتوهمون استحواذ الهمم عليهم، فيبدأون في تبني دعوة الصلاح، وواضح أن هذا الانحراف عن الدين الذي قاده الملوك لم يظهر إلا بعد سليمان، وربما يرجع السبب في ذلك الى أن سليمان كان قد فتح الباب للتجارة الخارجية، كما أنشأ العلاقات الأسرية مع الملوك الأجانب، وهي سياسة، قد أدت بدون شك، الى تجديدات في العادات الاجتماعية الموروثة، وأدت أيضاً الى تسرب العبادات الأجنبية الى المجتمع اليهودي ولقد جلب الثراء والترف الذي غرق فيه اليهود في أعقاب هذا الانفتاح الى وجود فوارق بين الطبقات وازداد الأغنياء غنى على غناهم وازداد الفقراء فقراً على فقرهم. كما ظهر نظام السخرة على النمط المصري القديم - لأول مرة كحاجة ملحة اقتضتها ضرورة العصر لبناء قصور الملوك والمدائن الحصينة والهياكل الدينية، وأصبح جزءاً من التنظيم الاجتماعي الجديد وجود حاشية للملك وحريم وحشد كبير من الموظفين العسكريين والكهنة، وهذه الظواهر وأمثالها التي بدأت مع سليمان استمرت بصورة مشابهة في المملكة الشمالية تحت حكم أسرة عمري اعتباراً من عام ٨٨٧ق.م، وعندما أقر آحاب بن عمري شرعاً عبادة بعل صيدا، ووسع الحقوق الملكية فوق ما جرت عليه العادة التقليدية، وسقط في براثن الوثنية، هب الأنبياء مستنكرين هذا الانحراف الواحد تلو الآخر، وهناك اختلاف كبير بين هؤلاء الأنبياء الذين انتشروا في المملكتين الشمالية والجنوبية يدعون للصلاح والتقوى وبين الأنبياء الذين ظهروا بعد ذلك بعدة قرون داعين لعقيدة محضة مثل عيسى عليه السلام وسيدنا محمد صلوات الله عليه. فإن الأنبياء اليهود في هذه الفترة لا يختلفون كثيراً عن أنبياء البعل الذين

ظهروا بين الشعوب الأخرى ، وهم عبارة عن فرق من الدرواويش كانت تستولي عليهم حالة من الجذب .

وكان أشهر هؤلاء الأنبياء النبي إيليا. وكان لإيليا دور مرموق في تاريخ هذه الفترة. لهذا فسنقف عنده بصورة أكثر تفصيلاً.

لم ينج من بطش إيزابيل سوى إيليا، الذي تقدم من آحاب وقال له بجرأة: حي للرب إله إسرائيل، الذي أنا واقف بحضرته. إنه لا يكون ندى ولا مطر في هذه السنين، إلا عند قولي".

فغضب آحاب من هذا القول وطلب قتله، لكن التوراة تقول أن الرب أمر إيليا قائلاً: إمض من هنا، واختبيء عند نهر كريت الذي تجاه الأردن، فتشرب من النهر. وقد أمرت الغربان أن تقوتك هناك، فمضى وعمل بحسب كلام الرب فكانت الغربان تأتيه بخبز ولحم، صباحاً ومساء ، وكان يشرب من النهر (٧)

ويقول المفسرون في هذا الشأن أن الرب حينما أمر إيليا بمغادرة المكان، لم يكن ذلك خوفاً من بطش آحاب وإنما وقاية لإيليا بعيداً عن القحط والجدب في مكان آمن يمكن أن يجدونه فيه.

لكننا نجد جيمس فريزر، يلتقط هذه الحادثة من الكتاب المقدس ولا يتركها تمر أمامه دون إبداء وجهة نظر فيها ويعمل على ررجاعها الى أصل فولكلوري :"عادة ما يرتبط نهر كريت في الروايات الشعبية بوادي الصلت الذي ينحدر شرقاً من أرض الميعاد المرتفعة وينفتح على سهل الأردن غير بعيد من أريحا(٨). ويستمر فريزر في شرح هذا المكان وكيف أنه شريط ضيق موحش وكيف للواقف هناك فوق قمة جبله أن يرى أسفل الجرف الغربان والنسور والصقور الضخمة ذات الشكل الأسطوري وهي تطير مندفعة الى أسفل.

وربما لجأ إيليا الى هذا المكان الأعزل الموحش الذي قلما تسقط فيه الأمطار على مدار السنة الى أن تقضي سنوات القحط التى أوحى بها الرب اليه، وربما لم يخالط إيليا أحداً في هذا المكان سوى الوحوش والطيور البرية(٩).

ويقف هنا فريزر بلا تعليق على هذه الأقوال، لكنه يعطينا صورة عن أن استجلاب الغراب في قصة إيليا فيه من الخيال الشعبي أكثر مما فيه من الحقيقة.

ونعود بعد ذلك الى سرد قصة إيليا كما يرويها لنا الكتاب المقدس. تقول التوراة: إن النهر الذي كان يشرب منه إيليا جف بسبب عدم سقوط الأمطار، فقال له الرب: قم وامض الى صرفت وأقم هناك. فقد أمرت هناك إمرأة أرملة أن تعولك(صرفت هي مدينة صيدا الآن). وتمضي التوراة في سردها للأحداث، فيلتقي إيليا مع إمرأة أرملة على مدخل المدينة وكانت الأرملة شديدة الفقر وأقام معها إيليا لمدة ثلاث سنوات وسع الرب فيها رزقها وتعددت معها عجائب إيليا ومعجزاته، التي لا أرى هنا مجالاً للإفاضة فيها(١٠)

وكان بعد ثلاث سنوات من انقطاع المطر وجدب الأرض وقحطها أن اشتد الجوع في كل أنحاء إسرائيل أن قال الرب لإيليا: امض واظهر لآحاب فآتي بمطر على وجه الأرض فمضى إيليا وأتى الى آحاب، فلما رآه آحاب قال له: أأنت إيليا مقلق إسرائيل؟ فقال إيليا: لم أقلق إسرائيل أنا، بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وسجودكم للصنم. والآن أرسل واجمع الى كل إسرائيل الى جبل الكرمل وأنبياء البعل الأربع مئة والخمسين الذين يأكلون على مائدة إيزابيل. ففعل آحاب. ولما اجتمعوا، تقدم إيليا الى جميع الشعب وقال لهم: الى متى تعرجون بين الجانبين. إن كان الرب هو الإله، فاتبعوه. وإن كان البعل فاتبعوه. فلم

يجبه الشعب بكلمة. فقال لهم: لم يبق من أنبياء الرب إلاي وحدي وهؤلاء هم أنبياء البعل. ثم قال مقترحاً: فليؤت لنا بثورين، فيختاروا لهم ثوراً ، ثم يقطعوه ويجعلوه على الحطب ولا أضع ناراً. ثم يدعون هم باسم آلهتهم وأنا أدعوا باسم الرب والذي يجيب بنار فهو الإله. فأجاب جميع الشعب موافقين على هذا الإقتراح.

وقام أنبياء البعل في البداية بإجراء محاولتهم ولكنهم فشلوا في استجلاب النار فعلا صراخهم وعبثاً خدشوا أجسادهم بالسيوف والرماح حتى سالت دماؤهم. فكان بعد هذه المحاولة أن قال إيليا للشعب: اقتربوا مني، فاقتربوا منه، فرمم مذبح الرب، الذي كان قد تهدم وجعل حوله قناة. ثم نضدد الحطب وقطع الثور وجعله على الحطب. وقال: إملأوا أربع جرار ماء، وصبوا على المحرقة وعلى الحطب، ثم قال: ثنوا فثنوا. ثم قال: ثلثوا فثلثوا. فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة أيضاً منه. وبعد ذلك تقدم إيليا وصلى قائلاً: استجبني يارب، استجبني، ليعلم هذا الشعب أنك أنت الإله. فهبطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب معاً حتى أتت على الماء الذي في القناة. فخر الشعب على وجوههم وقالوا:الرب هو الله.الرب هو الإله.فأمرهم إيليا بالقبض على أنبياء البعل وقادوهم الى نهر قيشون حيث تم ذبحهم هناك عقاباً لهم عن كفرهم ونفاقهم(١١) وليس لدينا من تعليق نقوله بعد هذا سوى أن هذه الطقوس التي قام بها أنبياء البعل أو تلك التي قام بها إيليا لا تتعدى الطقوس السحرية.ثم أن هذا الحادث تم - كما تقول التوراة - عند جبل الكرمل ، لكن النقاد أشاروا الى أن جبل الكرمل كان يقع في مملكة الصيدونيين، والخلط بينها وبين مملكة إسرائيل مرفوض. والسؤال الآن هو هل كان بمقدور رعايا آحاب أن يجتمعوا في أرض غريبة ليجيبوا على تحدي إيليا ؟(١٢) .

وتمضي التوراة بعد ذلك لتقول أنه لما بلغ إيزابيل خبر مقتل أنبياء البعل الذين كانوا يأكلون على مائدتها جن جنونها، وأرسلت من فورها تبلغ إيليا أنه لا مفر له من انتقامها العاجل. ففر إيليا من وجهها ومضى الى بئر سبع في أقصى جنوب يهوذا. ولما تعب من المسير نادى الرب قائلاً: حسبي الآن يارب، فخذ نفسي الآن فإني لست خيراً من آبائي، "ثم اضطجع ونام. وما هي إلا لحظة وإذا بملاك الرب قد لمسه موقظاً وقائلاً: قم فكل، فالتفت إيليا فإذا عند رأسه رغيف خبز وإناء ماء. وتكرر نداء الملاك معه عدة مرات حتى شبع وأخبره الملاك أن مسيرته طويلة واستمر بعد ذلك إيليا الى أن بلغ جبل حوريب.

لعلنا بعد ذلك قد لاحظنا أن الرب وملائكته في الفكر اليهودي لا يتجلون إلا في المنام أو في الأماكن الخالية، وهذه الملاحظة في حد ذاتها تحتاج الى شروح كثيرة وأبحاث مستفيضة ليس هذا مجالها.

ثم أمر الرب إيليا بالعودة لتنصيب ملكاً آخر على إسرائيل وهو ياهو بن منشى وليعلن خليفته في النبوة الذي اختاره الرب لهذه المهمة وهو اليشاع بن شافاط.

وعاد إيليا ولقي في طريقه اليشاع بن شافاط، وهو يحرث في حقل أبيه بزوجي بقر، فمر إيليا بالقرب منه ورمي اليه بردائه، فترك اليشاع البقر وجرى وراء إيليا ومضى معه، ولم يفارقه أبداً الى أن مات إيليا، وتحدثنا التوراة عن وفاة إيليا بصورة إعجازية فتقول: إن إيليا لم يمت وإنما صعد الى السماء حينما هبت عاصفة شوهد بعدها إيليا ترفعه رياح العاصفة في طريقه الى السماء. وبقي من بعده اليشاع نبياً يدعو الى الخير والعدل والعودة الى طريق الرب.

ومات آحاب أيضاً في أحد حروبه ضد الآراميين. وكانت فترة حكمه إثنتين وعشرين سنة. أما بالنسبة لإليشاع فقد كان من أشهر

أنبياء بني إسرائيل.وكان رجل العجائب الأول. فلم يصنع نبي معجزات وعجائب أعظم أو أكثر مما صنع اليشاع خليفة إيليا. ومن بعض معجزاته أنه كان يحول المياه المرة الى ميه عذبة، كما كان يحي الموتى، ويكثر الخبز، ويعيد الطعام الفاسد والمسموم الى حالته الأولى، كما كان يشفي المرضى، وكان أيضاً يتنبأ بالغيب ويكشف عن الخطط العدوانية التي كان يدبرها الملوك المجاورين. وذاع صيته في الآفاق لدرجة أن الملوك المجاورين كانوا يرسلون في طلب استشارته كما حدث مع بنهدد ملك سوريا حينما مرض وبعث في سؤاله هل سيبرأ من مرضه أم لا. ووصل به الأمر أنه كان يتدخل بصورة مباشرة في الحياة السياسية في البلاد ـ كما سنرى فيما بعد.

١ ـ ١ بعد وفاة آحاب ، ملك على إسرائيل من بعده إبنه أحازيا من عام ٨٥٣ حتى عام ٨٥٢ ق.م. أي أنه استمر في الحكم عامين فقط، ولم يكن أحازيا هذا بأصلح من أبيه، بل نراه يسلك في طريقه الشريرة ويعبد الأوثان ويهمل عبادة الرب. فما كان إلا أن عاقبه الرب بأن سقط من شرفة قصره الى الأرض فكانت إصابته خطيرة ولم يبرأ منها. ومات ليخلفه من بعده أخوه يورام، واستمر يورام في الحكم إثنتى عشرة سنة من عام ٨٥٢ حتى عام ٨٤١ق.م. ودخل يورام في حروب متعددة ضد بنهدد الآرامي ملك سوريا. وكانت آخرها تلك الحرب التي جمع فيها بنهدد جيشاً كبيراً وحاصر به السامرة واستمر الحصار لفترة طويلة مما أدى الى تدهور الحالة الإجتماعية والإقتصادية داخل المدينة، وصار الناس لشدة جوعهم يأكلون الحيوانات التي تحرمها الشريعة وقد بلغ رأس الحمار وهو أقل الأجزاء صلاحية للأكل، ثمانين من الفضة وأن إمرأتان لما لم تجدا ما تسدان به رمقهما أياماً كثيرة، أكلتا أحد أطفالهما

طبخاً. فلما سمع يورام بذلك مزق ثيابه واعتبر اليشاع هو المسئول الأول عن هذه الكارثة. وأصدر أمراً بقتل اليشاع. فما كان من اليشاع إلا أن استمر في دعوته الى الصلاح قائلاً اسمعوا كلام الرب، أنه في مثل هذه الساعة من غد يباع مكيال القمح بمثقال ومكيالا الشعير بمثقال عند باب السامرة. وكان هذا الكلام يعني أن الغذاء الأساسي للشعب بين عشية وضحاها بثمن بخس جداً لكثرة المعروض منه.

فقال ياور الملك بتهكم: لو فتح الرب كوب في السماء وأمطر الحنطة فهل يكون ذلك؟ فأجابه يشوع بهدوء: إنك سترى ذلك ولكنك لا تأكل منه.

وكانت دهشة الجميع في اليوم التالي حينما فوجيء الناس بأن الحصار قد فك ولم يعد هناك أحد من جيوش الأعداء حول المدينة. وترجع التوراة ذلك الى الانسحاب المفاجيء للجيش الآرامي الى إعجاز الهي حيث أسمع الرب جيش الآراميين صوت مراكب وصوت خيل، وصوت جنود كثيرة. فقال كل لصاحبه، هو ذا ملك إسرائيل قد استأجر علينا ملوك الحثيين وملوك المصريين ليأتوا الينا. فقاموا وهربوا تاركين وراءهم خيامهم وخيلهم وحميرهم وكل عنادهم الحربي (١٣)

وحدث بعد أن مرض ملك الآراميين أن قام ضده جزائيل أحد كبار القواد في الجيش السوري وقتل الملك وهو في مرضه ونصب نفسه ملك على سوريا. وما أن نصب على العرش في سوريا حتى انتهز يورام ملك إسرائيل الفرصة ليسترد من الآراميين مدينة راموت جلعاد. وحدث في أثناء إحدى المعارك أن جرح يورام، فعاد من الجبهة ليعالج في يزرعئيل من جراحه، وسلم قيادة الجيش لياهو أحد قواده البارزين. وبينما هو تحت العلاج في يزرعئيل جاء لزيارته أحزيا ملك يهوذا. ذلك لأن أحزيا كان ابن أخت يورام (١٤) .

وفي تلك الأثناء أرسل اليشاع النبي الى راموت جلعاد أحد رسله فقام بمسح ياهو ملكاً على إسرائيل. واستمر ياهو في الملك من عام ٨٤١ حتى عام ٨١٤ق.م. وما أن شاع الخبر حتى انضم اليه كل رجال الجيش مقدمين له واجب الولاء والطاعة.

وبعد ذلك عاد ياهو بقواته الى يزرعئيل لقتل يورام وبالفعل تمكن من غدره هناك وقتله، بينما فر ابن أخته أحازيا ملك يهوذا ولكن ياهو استطاع أن يصيبه بأحد السهام حينما كان يهرب بمركبته فمات فيها عندما بلغ مجدو، فحمله عبيده وذهبوا الى أورشليم حيث دفنوه هناك. وبعد ذلك دخل ياهو القصر وتمكن أيضاً من قتل إيزابيل، تلك المرأة الغريبة التي كانت تملك من القوة الغريبة والذكاء والدهاء والأعمال السحرية ما يجعلنا نفرد لها كتاباً مستقلاً وليس هنا مجال الحديث عن قوة إيزابيل الخارقة.

واستمر ياهو في الحكم ثماني وعشرين سنة، وهو يعتبر مؤسس الأسرة الملكية الخامسة، التي قدر لها أن تعيش ما يقرب من المائة عام. وعلى الرغم من أنه طهّر مملكة إسرائيل من عبادة البعل، إلا أنه لم يجد صورة عجلي الذهب الذين في بيت إيل ودان.

ولم يتركه حزائيل الملك الآرامي وشأنه في ذلك الوقت بل دخل معه في حروب مستمرة وكال له الضربات وانتصر عليه مرات عديدة استطاع خلالها أن ينتزع منه كل مدن شرقي الأردن. كما أن المملكة الأشورية لم تتركه أيضاً وشأنه بل إنه أجبر على دفع الجزية لشالمنصّر الثالث ملك آشور(١٥).

وبعد أن مات ياهو، خلفه على عرش إسرائيل إبنه يوآحاز من عام ٨١٤ الى عام ٧٩٨ ق.م. وفي عهده اضمحلت الدولة ولم تكن سوى ولاية من الولايات الخاضعة لملوك دمشق الآراميين. فقد كان الملك ضعيفاً لا

يملك من القوات العسكرية سوى خمسين فارساً وعشر مراكب حربية وعشرة آلاف رجل. وهي القوة التي كان يسمح بها لحكام الأقاليم الخاضعة للممالك الكبرى في ذلك العصر(١٦).

ثم خلفه إبنه يوآش الذي استمر حكمه من عام ٧٩٨ الى عام ٧٨٤ ق.م وفي عهده استطاعت دولة إسرائيل أن تنهض من جديد وتتخلص من الاستعمار الآرامي لها. فحارب بنهدد الثالث، ملك آرام، وانتصر عليه في عدة مواقع حربية، كان قد تنبأ له بالنصر فيها اليشاع قبل وفاته. وبهذا استطاع يوآش أن يحرر المناطق التي احتلها عدوه في شرق اتلأردن وتمتعت المملكة في عهده بالاستقلال التام.

ووصلت قوة يوآش الى حد أنه دخل حرب مع إمصيا ملك يهوذا انتصر عليه فيها وهي موقعة بيت شمس، سلبه فيها كل أمواله وما في خزائن الهيكل من ذهب وفضة.(١٧)

وبعد يوآش جاء ابنه يربعام الثاني وامتدت فترة حكمه على إسرائيل إحدى وأربعين سنة من عام ٧٨٤ حتى عام ٧٤٤ ق.م.

وعلى الرغم من أنه لم يكن من الوجهة الدينية من الملوك الذين امتازوا بالصلاح، وأن المملكة بلغت أوجها في عهده. إلا أنه استمر في نفس الخط الذي كان قد سار عليه يربعام بن نباط وعبد عجلي الذهب. وعلى الرغم من هذا، فإنه من الوجهة السياسية كان ملكاً عظيماً. وقد ازدهرت إسرائيل في عهده الطويل ازدهاراً لا نجد له مثيلاً إلا في عصر داود وسليمان الذهبي. وهو الذي استرد لإسرائيل كل مستعمراتها، بل إنه بلغ بحدود دولته أقصى ما بلغته في أيام داود وسليمان، طبعاً باستثناء مملكة يهوذا(١٨).

على أن هذه النهضة المادية التي لم تستند على أسس ثابتة من الأخلاق وروح الدين لم تلبث أن أخذت في الانهيار. وقد بدأ هذا الانهيار

بوضوح بعد موت يربعام الثاني وارتقاء إبنه زكريا العرش.

وهنا تبدأ الفترة الثالثة والأخيرة في تاريخ دولة إسرائيل. وهي فترة تقهقر واضمحلال بطيء انتهى بفناء هذه الدولة وزوالها من الوجود.

٢ ـ الفترة الأخيرة في مملكة إسرائيل :

تتسم هذه الفترة بكثرة الفتن والقلاقل،الأمر الذي أحدث الفوضى وأدى الى اضطراب الحكم واضمحلال الدولة وتبعيتها الدائمة للممالك القوية المجاورة.

كان زكريا بن يربعام هو آخر ملوك الأسرة الخامسة التي أسسها ياهو. ولم يملك على إسرائيل أكثر من ستة أشهر، فقد تآمر عليه شالوم بن بابيش وقتله علناً أمام الشعب وملك مكانه. ولم يتمتع شالوم بالحكم أكثر من شهر، فقد تحالف عليه مناحم الترصي وقتله في السامرة وملك مكانه، واستطاع أن يملك على إسرائيل عشر سنين من عام ٧٤٤ الى عام ٧٣٥ ق.م. ولم يكن مرغوباً من الشعب، بل كان يحكم بالإرهاب وسياسة الجبر وبما أنه كان يعرف أن عرشه مزعزع وأنه من الممكن أن يفقد عرشه في أي وقت خاصة أن هذه الفترة كانت تتسم بالقلاقل السياسية وكثرة الانقلابات، فقد تحالف مع تجلات بلاسر الثالث ملك آشور وكان يدفع له جزية سنوية مقدارها الف قنطار من الفضة لكي يضمن دفاعه عنه باستمرار لكي يستقر الملك في يده، وكان يغتصب قيمة هذه الجزية من الشعب. وكات تجلات بلاسر قانعاً بهذا الوضع لأنه كان يهمه أن تظل الدولة في يد هذا الملك الضعيف حتى لا يغتصب منه الحكم ويقوم بدلاً منه ملك آخر يرفع لواء العصيان والتمرد وينادي بالاستقلال من هذه التبعية السياسية.

وملك من بعده إبنه فقحيا ولم يدم حكمه أكثر من سنتين من عام ٧٣٥ حتى عام ٧٣٣ ق.م. وزال العرش عنه بعد أن تآمر عليه أحد قواده يدعى فاقح وقتله داخل قصره مع عدد من أفراد حاشيته ونصّب نفسه ملكاً بدلاً منه واستمرت فترة حكمه من عام٧٣٣ الى عام٧٣١ ق.م وحاول خلال هذه الفترة أن يستميل الشعب الى جانبه، وذلك بأن أمر برفع الجزية بالكامل عن كاهل الشعب والتي كان قد فرضها مناحم عليهم،كما أسلفنا من قبل، ليدفعها الى تجلت بلاسر ملك آشور،وتحالف فاقح مع رصين ملك دمشق، وعقد عدة معاهدات مع بعض الممالك الصغيرة المجاورة وكانت هي الأخرى تدفع الجزية لملك آشور،وكانت هذه المعاهدات التي عقدها معهم عبارة عن تحالف على التمرد ضد الولاء لآشور وعدم دفع تلك الجزية. وكان مخططه الذي شاركه فيه رصين ملك سوريا هو محاولة ضم مملكة يهوذا معهم في هذا التمرد لكي يكون تمرداً عاماً، وحاولا الاتصال مع يوتام ملك يهوذا إلا أن يوتام حكّم عقله ولم يقبل هذه المخاطرة خاصة أنه لم تكن له أية مصلحة مباشرة في معاداة آشور وبالتالي لم يقبل هذه المؤامرة وأعلن رفضه لها، الأمر الذي دفع كل من فاقح ورصين الى التصميم على سحق يهوذا وغزوها واقتسامها فيما بينهما. وشجعهما على ذلك أن يوثام قد مات وارتقى العرش من بعده إبنه آحاز. وكانت هذه المخاطرة هي بداية النهاية لمملكة إسرائيل.

ذلك لأن جيوش فاقح ورصين قامت بمحاصرة أورشليم، لكن آحاز كان أذكى منهما ، فلم يرضخ لهذا الحصار، وكعادة الشعوب القديمة في مثل هذه الحالات ، قام آحاز بطلب النجدة من تجلات بلاصر، ولبى تجلت بلاصر دعوته، ونظم حملة بجيش ضخم، استطاع به أن يفك الحصار عن المدينة، بل إنه أباد جيوش الدولتين المتحالفتين، فقتل رصين وسقطت دمشق في يده وسقطت مملكة إسرائيل في يده ولم يبق منها سوى

السامرة العاصمة وما يحيط بها من أقاليم جبيلة، وذلك بعد أن استولى تجلات بلاسر على كل الأقاليم شرقي الأردن وكل بلاد الجليل وأجلى رؤساء القوم ووجهائه والأشخاص البارزين في هذه المقاطعات الى بلاد آشور كأسرى حرب[19].

أما فاقح فقد تآمر عليه، بعد هذه الهزيمة الشنيعة، هوشع بن إيله، فقتله وملك مكانه. واستمرت فترة حكمه تسع سنوات. وهو آخر ملوك إسرائيل.

وخضع هوشع لشالمنّصر الخامس ملك آشور (٧٢٧ ـ٧٢٢) ودفع له الجزية. لكنه كان من الذكاء بحيث أنه أخذ يعمل في الخفاء على ألا يطول هذا الوضع وهذه العبودية، فنظم صفوف المقاومة الشعبية سراً وأخذ ينتشر نشاطها في كل مكان ضد الاحتلال الأشوري. وفي بداية العام السادس من حكمه امتنع عن دفع الجزية، وقام بإرسال رسل الى ملك مصر يطلب منه أن يتحالف معه وكان هوشع في هذه الخطوة سياسياً بارعاً، إذ أنه أراد أن يستغل المنافسة بين المملكتين الكبيرتين في ذلك الوقت مصر وآشور، وأراد التحالف مع مصر ضد آشور.

لكن ملك آشور علم بهذه اللعبة السياسية، وكان في ذلك الوقت يحاصر مدينة صور التي كانت قد أعلنت لواء التمرد ضده، فجاء الى السامرة وقبض على هوشع وأرسله موثوقاً الى آشور[20]

لكن أهالي المدينة لم يرضهم هذا، وصعدوا الى حصون المدينة وتحصنوا بها وأبوا أن يرضخوا لأوامر شالمنصر، وربما كانوا يأملون بذلك الى وصول نجدة من فرعون مصر في الوقت المناسب أو أن يتمرد حلفائهم القدامى فتندلع الثورة. لكن ملك آشور شدد الحصار على المدينة واستمر حصاره لها ثلاث سنوات، وكانت المدينة على وشك السقوط، إلا أن المنية عاجلت شالمنصر، فخلفه في الحكم وفي قيادة

الجيش أيضاً سرجون أحد قواده الذي لم يلبث أن فتح المدينة وقتل كل من كانت تصل اليه يداه، مستعملاً سياسة الإرهاب مع الشعب الى أن كف الشعب عن المقاومة وأعلنوا استسلامهم الكامل له، فقام بإجلاء ما يقرب من ثلاثين ألف نسمة الى آشور، أقام بعضهم في حلاج وهي إحدى المدن الكبرى على نهر خابور بمقاطعة جوزان والبعض الآخر أجلاه الى مدن ماداي الخاضعة لآشور. وكان ذلك في عام ٧٢٢ قبل الميلاد.

ويحاول الكتاب المقدس أن يرجع هذه الكارثة الى أسباب دينية، متجاهلاً كلية الأسباب السياسية والصراعات الدولية في ذلك الوقت، فيقول، إن هذه الكارثة كانت بسبب ابتعادهم عن الرب، وارتكابهم كل أنواع الشرور سراً وعلانية فصنعوا في الخفاء أموراً مستهجنة غير مستقيمة تغضب الرب. وفي العلن شيدوا معابد للأصنام في جميع مدنهم، وأقاموا تماثيل للأصنام وغابات لعبادة الوثنية على كل ربوة عالية وتحت شجرة خضراء. ولما أرسل الرب لهم رسلاً الواحد تلو الآخر كي يحيدوا عن غيهم وضلالهم، رفضوا فحل عليهم العقاب وعلى يد الأجانب.

وقبل أن نتابع تاريخ اليهود الذين سبوا الى آشور وحياتهم هناك، يجدر بنا أن نتحدث أولاً عن تاريخ المملكة الثانية التي أسسها رحبعام بن سليمان وهي مملكة يهوذا أو المملكة الجنوبية.

تاريخ المملكة الجنوبية
(مملكة يهوذا)

١ - لقد كانت المساحة التي تحتلها مملكة يهوذا أقل بكثير من تلك التي كانت لمملكة إسرائيل، كما كان تعداد سكانها أيضاً أقل باعتبار أنها كانت مكونة من سبطين فقط بينما الشمالية كان لها عشرة أسباط، وعلى الرغم من ذلك فإن مملكة يهوذا كانت تمتاز عن مملكة إسرائيل بطابع الوحدة. وأيضاً كانت لها مكانتها الدينية، ذلك لأنها كانت تمتلك أورشليم العاصمة القديمة التي ضمها داود الى مملكته ، كما ضمت أيضاً هيكل الرب الذي أنشأه سليمان ووضع به تابوت العهد. ولهذا كله قدر لها أن تعيش مدة أطول من مملكة إسرائيل.

وتبلغ المدة التي قامتها هذه الدولة ٣٤٦ سنة، تبدأ من عام ٩٣٢ وتنتهي في عام ٥٨٦ قبل الميلاد حين أجلاها نبوخذ نصّر.

ويمكن تقسيم تاريخ مملكة يهوذا الى فترتين طويلتين:

الأولى - تمتد من سقوط دولة إسرائيل وحتى السبي البابلي ونهاية الدولة.

وتتسم هذه المرحلة من تاريخ مملكة يهوذا بصراعها المرير ضد أعدائها بكل جبروتهم مثل ملوك مصر وملوك بابل ، وسنة الحياة دائماً البقاء للأقوى والأصلح، فانتهى هذا الصراع بغلبة الأقوى، أي بانتصار بابل وزوال دولة اليهود.

ونظرة الى تاريخ هذه الدولة من البداية، فنرجع الى رحبعام بن سليمان لنقول، أن ذكاء رحبعام وفطنته السياسية أدى الى انشقاق المملكة كما بينا من قبل.

وقد حاول رحبعام في أول الأمر أن يخضع الأسباط المتمردة

بالقوة وذلك بأن جهز جيشاً من سبطي يهوذا وبنيامين وقوامه مئة وثمانين الف رجل وخرج به ليحارب المملكة الجديدة المنشقة، لكنه عندما سمع من شمعيا النبي، أن ما حدث من فتنة كان برضاء الرب، رجع عن عزمه، وحول اهتماماته الى شئونه الخاصة وانغمس في الملذات وابتعد عن شئون الدولة. فما كان من بني مملكته إلا أن صنعوا الشر وبدأوا في إقامة المشارف والأنصاب وحادوا عن طريق الرب. وبوجه عام تحولت المملكة من مملكة دينية الى مملكة علمانية لا دينية.

وبعد خمس سنوات من تأسيس مملكة يهوذا هاجم شيشنق ملك مصر أورشليم وخربها ونهب ما بها من كنوز وخزائن كان سليمان قد جمعها.

واستمر رحبعام في الحكم لمدة سبع عشرة سنة كان متخذا خلالها أورشليم عاصمة له. وما أن مات حتى ملك من بعده إبنه أبيام واستمر في الحكم ثلاث سنوات من عام ١٩٥ حتى عام ٩١٣ ق.م. واتبع نفس سياسة أبيه من عبادة الأصنام والآلهة الغريبة. كما دخل في حرب ضد يربعام ملك إسرائيل واستطاع أن ينتصر عليه فيها وقتل من رجال إسرائيل في هذه المعركة خمسماية الف رجل.

أولاً : وملك من بعده إبنه آسا من عام ١٩٣ حتى عام ٨٧٣ ق.م.

ويعتبر هذا الملك من أعظم الملوك الذين ظهروا في مملكة يهوذا، فقد بدأ حكمه ولمدة عشر سنوات في إرضاء الرب وذلك بأن أمر بإزالة المذابح الغريبة والمشارف وقام بتكسير الأنصاب، وحدث أن جرد أمه من لقب "الملكة الوالدة" لأنها صنعت تمثالاً لعشتاروت وكسر هذا التمثال واحرقه بالنار في وادي قدرون.

ثانياً: وبعد أن انتهى من هذه المهمة، أخذ في تحصين المدن والقلاع وذلك بأن بنى أسوار حول بلدة وبنى بداخلها أبراجاً عالية، وقام بإعداد

جيشه على أسس سليمة وسلحه بالأسلحة الثقيلة.

وبعد عدة سنوات من حكمه، خرج زارح الكوشي على يهوذا بجيش ضخم ، فلم يسع أسا إزاء هذا العدد الضخم من قبائل البدو المغيرة، إلا أنه التجأ الى الرب طالباً بإيمان صادق معونته، قائلاً: أيها الرب، لا فرق عندك أن تساعد الكثيرين أو من لا قوة لهم. فأعنا أيها الرب إلهنا، لأنك عليك اعتمدنا، وبإسمك نأتي على هذا الجمهور، يارب أنت الهنا ، لا يقوى عليك أحد. وبعد أن أتم آسا هذه الصلاة خرج لملاقاة أعدائه، فهزمهم وغنمن ورائهم أسلاباً كثيرة.

وفي السنة السادسة والثلاثين من ملكه، صعد بعشا ملك إسرائيل واستولى على بعض الأقاليم الشمالية لمملكة يهوذا، وأخذ في تحصين مدينة الرامه وذلك بهدف السيطرة على الطريق المؤدي الى أورشليم، لكي يمنع المرتدين من مملكة إسرائيل من الهروب الى مملكة يهوذا. فما كان من آسا إلا أن استأجر بنهدد ملك آرام ودفع له ثمن دخوله الحرب بدلاً منه وتمكن من فك الحصار عن أورشليم.

وفي آخر أيامه مرض مرضاً خطيراً أقعده عن الحركة الى أن مات بعد أن حكم مملكة يهوذا لمدة أحد وأربعين عاماً، وملك من بعده إبنه يوشافاط من عام ٨٧٣ حتى عام ٨٤٩ ق.م.

وكان يوشافاط هذا أكثر ملوك يهوذا تمسكاً بالشريعة وأكثرهم غيرة على الدين فإنه لم يكتف باستمراره في القضاء على كل الرجاسات وإزالته للمشارب وتطهير البلاد من الآلهة الأجنبية، بل قام بتعليم الشعب أصول الشريعة وكيفية عبادة الرب بالطرق السليمة وقام باختيار عدد من أبرز اللاويين والكهنة المثقفين، وأرسل معهم بعض رجال الجيش، وأخذوا يطوفون في كل أنحاء الدولة ومعهم التوراة ليعلموا الشعب واجباته نحو ربه ونحو وطنه.

ويمكن أن نسمي هذا العمل بالمفهوم العصري، أنه قام بثورة ثقافية دينية. كما أنه لم يقصر نشاطه على ثورته الثقافية فحسب، بل أخذ أيضاً يهتم بالشئون العسكرية والشئون السياسية للبلاد. فعلى الرغم من أن فترة حكمه كانت فترة راحة من الحروب الكثيرة إلا أنه بنى الأبراج والقلاع وقوى جيشه وزاد من عدده وبنى مخازن كاملة للذخيرة.

ومن حروبه التي خاضها وانتصر فيها، تلك الحرب التي دخلها ضد المؤابيين وضد العمونيين والأدوميين.

أما من الناحية السياسية فقد استطاع يوشافاط أن يوطد علاقاته الخارجية والداخلية، فقد كانت علاقاته مع الدول المجاورة حسنة وكانت بعض القبائل الفلسطينية والعربية تحمل اليه الهدايا تعبيراً عن المودة والصداقة مع هذا الملك الصالح.أما من الناحية الداخلية فقد أحب شعبه فأحبه الشعب وكان يدفع له الضرائب عن طيب خاطر.

واستمر يوشافاط في الحكم لمدة خمساً وعشرين عاماً، ارتكب خلالها خطأه الأكبر ألا وهو مصاهرته لبيت آحاب التي جرّت عليه وعلى من أتوا بعده كثيراً من المتاعب فقد زوج إبنه الأككبر وولي عهده يورام من عتنليا إبنة آحاب وإيزابيل.

وحاول يوشافاط أن يقلد سليمان. فقام ببناء السفن الكبيرة التي كانت تعرف في ذلك الوقت باسم سفت ترشيش. لكت هذه السفن غرقت في خليج العقبة بالبحر الأحمر قبل خروجها بأى رحلة.

وكأنما شاء القدر ألا يدوم الهناء والسعادة التي جلبها يوشافاط على مملكة يهوذا فبعد أن مات ملك من بعده إبنه يورام الذي يعتبره التاريخ أكثر ملوك يهوذا شراً، فشتان بين الأب والإبن. فكان أول عمل قام به بعد توليه العرش هو قتل جميع إخوته وقتل كل وجهاء القوم

الذين نشأوا مع أبيه وكانوا نعم المعين له.

وكأنما تاريخ المملكتين يسير في صورة متوازية، فنحن نذكر إيزابيل زوجة آحاب التي عملت السيف في رقاب الشعب. وأمامنا هنا إبنتها، وما من شك في أن هذه الدماء التي أريقت في يهوذا، قد أريقت بإيعاز من عتليا زوجة يورام، ويدعم هذا الرأي أنها قامت فيما بعد بأكبر مذبحة لأسرة مالكة تمت في التاريخ اليهودي. وسنتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد.

وتعرضت المملكة الجنوبية في فترة حكم يورام الى انشقاق بعض المستعمرات عن المملكة منها بلاد أدوم ومدينة لبنة، ولا ترجع أهمية هاتين المستعمرتين الى كونهما آخر مستعمرات دولة يهوذا، وإنما لأنهما كانتا تقعان على أهم طرق التجارة الموصلة بين الشمال والجنوب. وبالتالي تدهورت الحالة الاقتصادية في دولة يهوذا. وتفاقمت الكارثة حينما حاول يورام استرداد هذه المستعمرات وتلك الطرق الحيوية بالقوة، فمنيت قواته بالفشل الذريع.

ومات يورام بعد ثمان سنوات قاد خلالها المملكة الى الفساد والتدهور السياسي والاجتماعي والاقتصادي. ولم يدفن في مقابر الملوك(٢١).

وبعد موته نصّب سكان أورشليم إبنه الأصغر ملكاً عليهم. ولم يكن يتجاوز في ذلك الوقت الثانية والعشرين من عمره، فلم يمكنه أن يتحرر من تأثير أمه السيء ولم يتحرر من فرض سيطرتها عليه فكانت هي التي تدير الملكة بصورة غير مباشرة أمال رسمياً أمام الناس فكان هو الملك. وفي العام الأول من حكمه خرج مع خاله يورام ملك إسرائيل لمقاتلة حزائيل ملك آرام في راموت جلعاد فقتله ياهو لن منشى الذي قاد ثورة عسكرية مسلحة ضد يورام ، كما ذكرنا من قبل في استعراضنا

للمملكة الشمالية.

فلما مات أحازيا ووصل خبر وفاته الى والدته عتليا، ورأت أن كل أحلامها قد انهارت دفعة واحدة بموت إبنها قامت باغتصاب العرش لنفسها واستمرت في الحكم لمدة ست سنوات من عام ٨٤٢ حتى عام ٨٣٦ ق.م، قامت خلالها بأكبر مذبحة ملكية في التاريخ، حيث قتلت كل النسل الملكي بمن فيهم أبناؤها وأحفادها. وأقرت عبادة البعل، وقادت البلاد نحو الفساد الديني والسياسي، ولم يكن قد نجا من هذه المجزرة الرهيبة سوى يوآش أصغر أبناء آحازيا وكان عمره آنذاك سنة واحدة، حينما أنقذته من الموت عمته يوشعبت أخت آحازيا من أبيه زوجة يوياداع رئيس الكهنة وخبأته عندها بالاتفاق مع زوجها يوياداع طوال فترة حكم عتليا. وقاد رئيس الكهنة حركة مقاومة سرية، أخذت تعمل بشتى الوسائل على فضح ألاعيب هذه المرأة الشريرة التي اعتبرها يوياداع دخيلة على الشعب ووصف حكمها بأنه حكم أجنبي استعماري يجب التخلص منه. واستمرت حركة المقاومة الشعبية السرية لمدة ست سنوات وفي السنة السابعة جمع يوياداع الشعب وأخرج يوآش إبن الملك من مخبأه وشاهده الشعب وطلب يوياداع منهم حلف يمين الولاء للملك الجديد. وقرر في تلك الليلة الخروج بحركته السرية الى النور رافعاً لواء العصيان والثورة العلنية بعد أن ظل ست سنوات يعمل في السر. وقام بتتويج الملك الجديد بين أفراح الشعب وغبطته وسمعت عتليا من قصرها ضوضاء الشعب، وهو يدعو للملك إلا أنها لم تعبأ بالأمر، ظناً منها أن ذلك لا يعدو أكثر من مظاهرة، اعتاد سكان المدينة أن يقوموا بها بين الحين والآخر وأنه بالتالي يكفي ظهورها لتبديد هذه المظاهرة وعودة الحياة الى ما كانت عليه.

وخرجت من قصرها ودخلت على الشعب في بيت الرب، فرأت

الملك الجديد قائماً على منصة مرتفعة يحيط به الرؤساء. والحرس الملكي مدجج بالسلاح، فهالها هذا المنظر فخرجت تجري مولولة: خيانة ... خيانة، فلحق بها عدد من الجنود وقتلوها وعلى باب قصرها حينما همت بالدخول اليه.

وهكذا لقيت عتليا جزاءها تماماً كما لقيت أمها إيزابيل، فكلاهما مات أشنع موتة يمكن أن يراها إنسان. ولكن أمها كانت أكثر شجاعة منها حينما واجهت الموت وهى تعلم تماماً أنها ستقتل في هذه اللحظة وواجهته بشجاعة نادرة.

وبعد وفاتها، قطع يوياداع عهداً بين الرب وبين الملك والشعب، على أن يكونوا شعباً للرب، وقاموا جميعاً ودخلوا بيت البعل الذي كانت قد أقامته عتليا وهدموه وحطموا مذابحه وتماثيله. وقتلوا كاهن البعل.

واستمر يوآش في الحكم لمدة أربعين عاماً، قاد خلالها البلاد الى طريق الخير، وكان يعمل بمشورة يوياداع ذلك الرجل الصالح الذي كان مستشاره الأمين في كل خطواته وما أن مات يوياداع حتى أطلق يوآش عنان الشهوات لنفسه، وتبعه الشعب فتركوا الإله وساروا وراء العشتاروت والأصنام ولكن هذا الطريق الذي سارت فيه المملكة لم يعجب زكريا بن يوياداع. فأخذ يوبخ الشعب بقوله: لم تتعدون وصايا الشعب؟ إنكم لا تفلحون.لأنكم تركتم الرب فتركك فلم يعجب هذا يوآش وتآمر ضده واستأجر بعض الناس من الشعب قاموا برجم زكريا بالحجارة، ولم يقم يوآش أي اعتبار للخير الذي قدمه له والده يوياداع. وكانت هذه الجريمة من أكبر الفواحش التي ارتكبتها يهوذا تحت سمع وبصر يوآش. وكانت هذه الجريمة من أكبر الفواحش التي ارتكبتها يهوذا تحت سمع وبصر يوآش. أن يقتل الكاهن الأكبر في داخل بيت

الرب. وربما أعطتنا هذه الحادثة صورة واضحة عن الحال التي وصل اليها اليهود في ذلك العصر من التردي والانحدار في هوة الوثنية ولم يمض عام على هذا الحادث البشع حتى اجتاحت الجيوش الآرامية مملكة يهوذا وعملوا سيف التكيل في رقاب وجهاء الشعب وقادته وهم أنفسهم الذين نكلوا قبل ذلك بعام واحد بالكاهن الأكبر. ولم ينج يوآش من هذه الكارثة، فقد تحالف عليه عبيده وقتلوه وهو على سريره ولم يدفن هو الآخر في مقابر الملوك(٢٢).

وبعد اغتيال يوآش اعتلى العرش بعده إبنه أمصيا، وحكم يهوذا لمدة عشرين سنة من عام٧٩٧ حتى عام٧٦٩ق.م بدأها بالاستقامة وتقويم السياسة الداخلية والخارجية ونجح في مهمته كما أنه بذكائه السياسي انتظر حتى تستتب الأمور في يده وما أن تأكد من ذلك حتى أخذ بثأر والده فقتل كل من تآمر ضد والده. وحاد بعد ذلك عن طريق الرب وسلك في نفس طريق الملوك - التي يبدو أنها وباء يصاب به الملوك - فتآمر عليه بعض التابعين له وقتلوه بعد عدة مطاردات في لاخيش (شمال شرق غزه في تل الحصى)(٢٣).

وبعد مقتل أمصيا انتخب الشعب من بعده ابنه عزيا ملكاً على يهوذا وكان يدعى أيضاً عزريا. وكان عمره حينما ارتقى عرش المملكة ست عشرة سنة وملك إثنتين وثلاثين سنة من عام ٧٦٩ حتى عام ٧٣٧ ق.م. استطاع خلال هذه الفترة أن يسترد ليهوذا المستعمرات التي كانت قد انشقت عن المملكة، كما استطاع أيضاً أن يضم ميناء إيلات على الابحر الأحمر الى مملكته. وأعاد بناء المدينة وأكثر من اهتمامه بها باعتبارها ميناء تجاري هام وأصبحت من أعظم أسواق التجارة في مملكة يهوذا في ذلك الوقت. واستطاع هذا الملك أن يخوض عدة حروب مظفرة مع المجاورين له، وأعاد لدولته سابق مجدها حتى أن العمونيين

أدوا له الجزية وطارت شهرته الى الحدود المصرية. كما اهتم بشئون الزراعة وإصلاح الأرض، واهتم أيضاً بتربية الماشية، وعمل على إنعاش الثروة الوطنية. كما أنه حصن حدود مملكته تحصيناً قوياً، ولم يكتف بذلك بل إنه أنشأ القلاع والحصون في داخل أورشليم نفسها واهتم أيضاً بشئون الجيش فزاد من عدد قواته وسلحها بأحسن الأسلحة وأحدثها في ذلك العصر.

وانتعشت الأمور في عهده لدرجة لم تشهد لها البلاد مثيلاً من قبل، الى أن تملكه الغرور والكبرياء لدرجة أنه أخطأ خطاه الأكبر وذلك حينما طمع أيضاً في السلطة الكهنوتية فأراد ضمها اليه أيضاً وذات يوم دخل الهيكل ليقدم قربانه على مذبح البخور. وكان هذا العمل من سلطة رئيس الكهنة وحده وحاول رئيس الكهنة ومعه كهنة البيت منعه هذا العمل الإلحادي إلا أنه أصر على ذلك ولم يلبث بعد هذه الحادثة أن أصابه البرص وقضى بقية عمره أبرصاً، يعيش في مكان منعزل خارج قصر الرئاسة الى أن مات وملك من بعده ابنه يوتام.

وكان يوتام يبلغ من العمر خمس وعشرين سنة حين ملك، واستمرت فترة حكمه ست عشرة سنة من عام٧٣٧ حتى عام٧٢٢ ق.م وهو يعد أيضاً من الملوك الصالحين إلا أنه لم يتخذ أية خطوة لتطهير بلاده من العبادات الوثنية. ولا يحدثنا سفر الملوك كثيراً عن هذا الملك الشاب ولا ندري ما هو السبب في تجاهل كاتب السفر له بهذه الطريقة في الوقت الذي شرح فيه باستفاضة أعمال بقية الملوك. وكننا إذا تتبعنا أخباره في سفر أخبار الأيام الثاني فنجد هناك شيء من الاستفاضة عن تاريخه فيقول أنه قاتل بني عمون وتغلب عليهم وكان عمون تؤدي له الجزية ثلاث سنوات متواليه. وفي أواخر أيامه بدأت مناوشات رحيه ملك آرام وفاقح ملك إسرائيل لإقحام يهوذا في المحالفة

الى تقويض أركان المملكة الأشورية وبعد ذلك إسقاط مملكة إسرائيل والعمل على تقويض أركان مملكة يهوذا نفسها التي كانت قد مهدت الطريق الى هذه التغييرات التي شهدتها في ذلك الوقت.

ذلك لأنه - وكما جاء في سفر أخبار الأيام - أن تجلت بل أسر بعد أن أحرز نصره على ملكي آرام وإسرائيل لم يؤيد ملك يهوذا بل ضيق عليه الخناق. وذهب آحاز الى ذلك السيد الجديد في دمشق ليهنئه بنفسه على هذا الانتصار الساحق الذي حققه على أعدائه وأخذ يكيل له من الذهب والمعادن التي كان يمتلكها وأعطى له. وبلغ به النفاق مداه وذلك حينما عاد من دمشق وبنى مذبحاً وثنياً على غرار مذبح شاهده في دمشق لآلهة الأشوريين. وأهمل المذابح الطقسية التقليدية وهجر المذبح الذي كان قد بناه سليمان. ولم يكتف بذلك بل إنه جمع آنية بيت الرب وكسرها وأغلق أبواب بيت الرب وأقام بدلاً منه مذابح وثنية كثيرة في كل مكان في أورشليم.

ومات آحاز وهو مستمر في غيه هذا ولكن الكتاب المقدس لا يذكر لنا كيف مات، إلا أنه يكتفي بالقول " لم يدخلوه مقابر الملوك ذلك لأنه ملك ملحد لا يستحق أن يكرم في مماته"(٢٤).

وبعد وفاته حكم يهوذا من بعده إبنه حزقيا واستمرت فترة حكمه تسعاً وعشرين سنة من عام ٧١٧ حتى عام ٦٨٩ ق.م. وكان هذا الملك بلا شك - وكما تقول عنه التوراة - أعظم وأتقى ملوك يهوذا، بعد داود، حيث جاء في سفر الملوك الثاني

" وصنع حزقيا القويم في عيني الرب، كجميع ما صنع داود أبيه، هو أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى لأن بني إسرائيل كانوا في تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نحشتان. على الرب إله إسرائيل إتكل وبعده لم

يكن مثله في جميع ملوك يهوذا ولا في الذين كانوا قبله. والتصق بالرب ولم يحد عنه بل حفظ وصاياه التي أمر بها الرب موسى[٢٥].

وينبغي ألا نترك هذه الفقرة تمر هكذا، ذلك لما تحتوي عليه من تحليل لتطور الديانة اليهودية. وبما أن هذا المجال ليس مجال الديانة، فمجالنا هنا هو التاريخ فقط، فسنترك هذه الآراء الدينية الى حينها.

كان أول عمل قام به حزقيا بعد تسلم مقاليد الأمور في يهوذا هو أن قام بترميم بيت الرب وتطهيره من كل الرجاسات التي كانت ترتكب فيه والتي نجسه بها آحاز الملك.

ولأول مرة في تاريخ المملكة، أرسل حزقيا رسائل الى سبطي منسى وزفرايم. وكل أنحاء يهوذا وإسرائيل من دان الى بئر سبع، داعيا الجميع للاحتفال بعيد الفصح، ولم يكن قد احتفل به منذ زمن طويل فهزأ به البعض ولبى الدعوة البعض الأخر، واجتمع عدد غفير في أورشليم واحتفلوا بالعيد لمدة سبعة أيام ثم مدوها الى سبع أخرى وكانت الفرحة والبهجة عامين في أورشليم، لدرجة أن التوراة تصف هذه الفرحة بقولها أنه من أيام سليمان الملك لم يكن مثل ذلك الفرح في أورشليم. وكان الحماس شديداً لدرجة أن كل من حضر الاحتفال بهذا العيد تعاهدوا جميعاً على إزالة كل أثر من آثار الوثنية في البلاد فخرجوا في نهاية الاحتفال وكسروا الأنصاب ودكوا المشارف ومذابح الأصنام.

وقام حزقيا بعد ذلك بتنظيم الشئون الدينية في البلاد، ورفع الكهنة الى مكانتهم المرموقة التي كانوا يحتلونها من قبل، وباختصار فصل حزقيا بين السلاطة الدينية والسلطة المدنية كما كان من قبل. فانتظمت في عهده طرق العبادة وإقامة الشعائر الدينية. وأمر الشعب بأداء كافة الواجبات اللازمة للكهنة واللاويين حتى يمكنهم التفرغ كلية

لمتابعة الشئون الدينية في الدولة.

وفي المجال السياسي كان حزقيا قوي الشخصية، حازم في اتخاذ قراراته لدرجة أنه لم يخف حينما سقطت الدولة الشمالية وعاصمتها السامرة بعد حصار دام ثلاث سنوات، في يد شالم نصّر ملك آشور وخاض عدة حروب مظفرة على الدول المجاورة له منها الفلسطينيين وانتصر في عدد من الموقعات الشهيرة.

ومن أعماله الهندسية الكبرى التي نفذها في عهده أنه سد مجرى مياه عين جيحون (ستي مريم حاليا) ، وذلك حتى لا ينتفع بها أعداؤه. وغيّر مجرى هذه المياه ووصل بها الى مدينة داود عن طريق نفق تحت الأرض(٢٦).

وفي السنة الرابعة عشر من حكم حزقيا، قام سنحاريب ملك آشور بتنظيم أكبر حملة أراد بها إسقاط مملكة يهوذا القضاء عليها واستطاع أن يحتل جميع مدن يهوذا، فيما عدا العاصمة. ولما رأى حزقيا أن ملكه ينهار أرسل الى سنحاريب يطلب عفوه معلناً عن استعداده لدفع الجزية التي يريدها سنحاريب شزيطة أن يعود الى بلاده.

في البداية قبل سنحاريب هذا الأمر، وفرض على حجزقيا جزية باهظة، لدرجة أن كل الفضة التي وجدت في بيت الرب وبيت الملك لم تكف - على حد قول التوراة - مما اضطر حزقيا الى نزع جميع الذهب الذي كان يغشى أبواب بيت الرب ودعائمه لسداد تلك الجزية الباهظة. ولم يقنع سنحاريب بذلك، بل طمع في الاستيلاء على أورشليم نفسها ونظم حملة عسكرية رأسها ثلاثة من أشهر قواده وأرسلها الى أورشليم عارضاً على قادة المدينة وشعبها الاستسلام وإلا أراقوا بها الدماء .

فلما سمع حزقيا هذا الكلام وهذا التهديد السافر تملكه الرعب ومزق ثيابه ودخل بيت الرب لابساً المسح (لباس خشن يلبس تقشفاً)

وأخذ يصلي للرب علّه ينقذه من هذا الطاغية الجبار .

وهنا يتدخل النبي إشعيا ويرسل له قائلاً: هكذا يقول الرب، لا تخف من الكلام الذي سمعته. مما جدّف به على غلمان ملك اشور، فإني أجعل فيه روحاً، فيسمع خبراً، فيرجع الى أرضه، وأسقطه بالسيف على أرضه.

وتقول التوراة بعد ذلك ، وكان في تلك الليلة أن خرج ملاك الرب وضرب من جيش آشور مئة الف وخمسة وثمانين الفاً. ولما بكروا صباحاً إذا هم جميعاً جثث ميتة. فانصرف سنحاريب ملك آشور وذهب راجعاً وأقام في نينوى، وفيما هو ساجد في بيت مردوخ الهه ضربه أدرملك وشر آصر إبناه بالسيف ونجوا الى أرض أراراط (أرمينيا) وملك آسر حدون إبنه عوضاً عنه(٢٧).

ومهما كان من أمر هذا الحادث هل هو حادث تاريخي أم هو إعجاز الهي، المهم أن التوراة تحدثنا عنه على أنه إعجاز الهي. وربما كان هذا ـ بلغة العصر ـ نتيجة وباء تفشى بين الجنود نظراً للحياة القاسية التي كانوا يعيشونها في الصحراء بين جثث القتلى وروائحهم.

وبعد هذا النصر العجيب الذي أحرزه حزقيا ضد سنحاريب استطاع أن ينهض بمملكته مرة أخرى في زمن وجيز، واستطاع أن يجمع في خزائنه الكثير من الفضة والذهب والأحجار الكريمة.

ونعرف من الإصحاح العشرين ، أن حزقيا في آخر أيامه تحاف مع برودوخ بلادان ملك بابل.

٢ ـ ١ لكن هذه التأكيدات التوراتية لا تتوافق مع الاكتشافات الآثارية لتاريخ الممالك الأشورية. فالنقوش التي اكتشفت في قصر خورساباد الشهير، عام ١٨٤٢م، بينت أن شالمنصّر الخامس والد سنحريب طرد برودوخ بلادان من البلاد، بعد أن انتصر عليه في موقعة

بيت لاكيم عام ٧٠٩ ق.م واستولى على بابل وضمها الى مملكة نينوى. فكيف استطاع حزقيا أن يقيم تحالفاً مع برودوخ بلادان في عهد أسر حدون بن سنحريب ، بعد أن كان برودوخ قد فقد مملكته في معركة مع ملك نينوى الذي كان جد أسر حدون، وهذا الأخير لم يعتل العرش في نينوى وبابل إلا في السنوات الأخيرة من حكم أحازيا.

وفي تلك الأيام مرض حزقيا واشتد عليه المرض لدرجة أن الجميع اقتنع بقرب منيته، لكن الرب شفاه من مرضه هذا وعاد معافاً مرة أخرى وامتد به العمر خمس عشرة سنة أخرى، ولما سمع بروداك بلادان ملك بابل بشفاء حزقيا أرسل اليه الهدايا مهنئاً بشفائه وارسل بعثة شرف رسمية الى يهوذا لهذا الغرض. لكن في الحقيقة لم يكن الهدف الحقيقي من هذه البعثة هو الزيارة الرسمية بمناسبة الشفاء، وإنما كان الغرض الحقيقي منها هو عقد معاهدة صداقة لنية ، وضم حزقيا الى حلف سري ضد نينوى.

وبعد موت حزقيا ملك من بعده إبنه منسى من عام ٦٨٩ الى عام ٦٤١ ق.م وكان عمره١٢ سنة حينما اعتلى العرش وكان شر خلف لأصلح سلف. فلم يصنع ملك في يهوذا من الشرور مثلما صنع منسى ، ذلك لأنه استخدم السحر والعرافة في العبادة. ولم يتورع عن إقامة المذابح الوثنية داخل بيت الرب وفي المكان المقدس نفسه. وعبثاً حاول إشعيا النبي أن يرجعه عن هذا الطريق الرديء الذي سار فيه، لكن كلماته مع هذا الملك المارق العابث ذهبت أدراج الرياح، بل وصل به الأمر أنه عاقب الأنبياء وأذاقهم الوان العذاب حتى الموت .

وكما تدين تدان، فعلى مر الأيام دخل حرب مع الجيش الأشوري ذاق فيها من المهانة مالم يحدث من قبل مع أى ملك يهودي حيث أوثقه بالسلاسل وذهبوا به الى بابل أسيراً، ووضعوه هناك في غياهب

السجون ليشرب من نفس الكأس التي منحها لغيره يشرب منها .

ولا يعطينا سفر الملوك صورة واضحة بعد ذلك عن أعمال منسى إذ نراه في سفر الملوك الثاني يقول:" وبقية أمور منسى وكل ما عمل وخطيئته التي أخطأ بها أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام لملوك يهوذا ثم اضطجع منسى مع آبائه ودفن في بستان بيته في بستان عزا وملك آمون إبنه عوضاً عنه(٢٨).

لكنا نعود لنرى سفر أخبار الأيام يقول لنا هو الآخر في أخبار الأيام الثاني الإصحاح الثالث والثلاثون فقرة ١٨ وما بعدها .

" وبقية أمور منسى وصلاته الى آلهة وكلام الرائين كلموه باسم الرب إله إسرائيل ها هي في أخبار ملوك إسرائيل وصلاته والاستجابة له وكل خطاياه وخيانته والأماكن التي بنى فيها مرتفعات وأقام سواري وتماثيل قبل تواضعه ها هي مكتوبة في أخبار الرائين، ثم اضطجع منسى مع آبائه، فدفنوه في بيته وملك آمون إبنه عوضاً عنه".

وكان عمر آمون إثنتين وعشرين سنة حين ملك على أورشليم واستمرت فترة حكمه سنتين فقط من عام٦٤١حتى عام٦٣٩ق.م وانتهت حياته بعد أن تحالف عليه عبيده وقتلوه في بيته. ذلك لأنه سار على طريق أبيه وعمل الشر في عيني الرب(٢٩).

وأقام الشعب خلفاً لآمون إبنه يوشيا وكان يبلغ من العمر ثماني سنين فقط عندما اعتلى العرش واستمرت فترة حكمه من عام ٦٣٩ حتى عام٦٠٩ ق.م وكان يوشيا يعتبر من الملوك الصالحين الذين يذكرون بالخير في مملكة يهوذا .

وكان عمل قام به لما بلغ أشده وتسلم مقاليد الأمور بصورة رسمية، وكان ذلك في السنة الثامنة عشر للملكة، أن قام بترميم الهيكل ترميماً شاملاً، وطهره من تماثيل الآلهة الوثنية وأدوات عبادتها.

وبينما كانت أعمال الترميم جارية وعمليات تطهير المعبد تتم على قدم وساق، وجد حلقيا الكاهن سفر التوراة وقدمه الى شافان كاتب الملك الذي قدمه بدوره الى الملك. فلما قرأه الملك يوشيا مزّق ثيابه لأنهم لم يعملوا بأحكامه لا هم ولا آبائهم .

وربما مر هذا الخبر بصورة عابرة، إلا أنه يدلنا على شيء ذا أهمية بالغة في الديانة اليهودية أيضاً فمعنى أن يتم العثور على نسخة من التوراة ويقرأها الملك ويقول ما قاله، يعني هذا أن التوراة كانت قد ضاعت من ذاكرة اليهود بعد موسى وعمل كل فرد ما يحلو له. إذن فطوال هذه الفترة كانت هناك شريعة أخرى يطبقها اليهود غير شريعة موسى وتقاليد دينية أخرى أيضاً وللمرة الثانية ليس هذا مجال الاستفاضة في البحوث الدينية .

هذا.. وقد امتدت حركة الإصلاح التي قام بها يوشيا الى جميع أطراف يهوذا وإسرائيل، فأزال المذابح والمشارف التي تجاه أورشليم والتي كان سليمان قد بناها لعشتاروت وملكوم وكموش. وحطّم الأنصاب، كما حطم أيضاً المذبح الذي في بيت إيل والذي كان قد أقامه يربعام بن نباط. وذبح يوشيا جميع كهنة المشارف الوثنية التي بالسامرة وأحرق عظام الموتى عليها تنجيساً لها. كما أزال أصحاب التوابع والعرافين من أورشليم ومن يهوذا كلها. كما اهتم أيضاً بالاحتفال بعيد الفصح، ولكن هذه الحركة الإصلاحية لم تدم، ذلك لأن الموت اختطف يوشيا وهو في ريعان شبابه. وكانت النتيجة الحتمية لموت ذلك الملك الصالح هو انهيار حركته الإصلاحية وارتداد الشعب مرة أخرى ،وابتعاده عن الرب مما أدى الى تعجيل نهاية هذه الدولة أو بعبارة أخرى كانت وفاة يوشيا هي بداية النهاية في انهيار مملكة يهوذا، أما كيف مات يوشيا ، فلذلك قصة .

مات يوشيا في موقعة مجدو الشهيرة التي قام بها نخاو ملك مصر فقد كان نخاو قد نظم حملة كبيرة للاشتراك في معركة قرقميش الكبرى التي أعلنتها الدول على مملكة آشور. وكان على رأس تلك الدول المملكة البابلية. وكان خروج فرعون للاشتراك في هذه الحرب بقواته حى لا تفوته فرصة تقسيم ممتلكات آشور ولكن بينما كان فرعون في طريقه الى هذه المعركة بقواته اعترض طريقه عند مجدو يوشيا ملك يهوذا ذلك لأنه كان في حلف صداقة في ذلك الوقت مع مملكة آشور لكنه قتل في هذه المعركة على يد نخاو ملك مصر.

وملك من بعده إبنه الأصغر يوآحاز ولم يستمر حكمه سوى ثلاثة أشهر فقط. وكان ذلك في عام ٦٠٩ق.م وقد زال عنه الملك بعد ثلاثة أشهر لأنه نصّب ملكاً دون استئذان نخاو ملك مصر المنتصر،والذي صار بعد سقوط نينوى وانتصاره على يوشيا في معركة مجدو، هو الحاكم بأمره في مصير دولة يهوذا، وسائر البلدان الشرقية التي وطئتها أقدام جيوشه حتى نهر الفرات. وغضب نخاو من هذا التصرف فاستدعاه الى دمشق وخلعه من رتبته الملكية وأسره وأخذه معه الى مصر أسيراً حيث مات هناك. ولم يكتف نخاو بذلك ، بل أجبر دولة يهوذا على دفع الجزية، وكان مقدارها مائة قنطار من الفضة وقنطار من الذهب (٣٠).

وبعد ذلك عين نخاو ملك مصر الياقيم الأخ الأكبر ليوآحاز ملكاً على يهوذا وقام بتغيير إسمه الى يوياقيم تذكيراً له بتبعيته له. وكان عمره في ذلك الوقت خمس وعشرين سنة واستمر في الحكم لمدة إحدى عشرة سنة من عام ٦٠٨ الى عام ٥٩٧ ق.م.

وظل يوياقيم يؤدي الجزية بانتظام لنخاو فرعون مصر. وكان يوياقيم يغتصبها من الشعب في صورة ضرائب واستمر على هذا

المنوال أربع سنوات أي حتى عام ٦٠٥ ق.م.، حينما هزمت الجيوش المصرية في معركة قرقميش(*) إلا أن يوياقيم ظل مواليا لفرعون سراً، وظل يعمل في السر لمناهضة الحكم البابلي. إلا أنه اعتباراً من عام ٦٠٥ وحتى عام ٦٠١ ظلت دولة يهوذا وسائر بلدان المنطقة حرة، من الناحية العملية، لا تخضع لأحد. ذلك لأن فرعون مصر نخاو لم يعد يخرج من بلاده بعد هزيمته في معركة قرقميش. أما نبوخذ نصّر، الحاكم الفعلي لهذه البلاد فقد كان منهمكاً في تقوية الجبهة الداخلية في بلاده ومنصرفاً الى أمور الإصلاح الداخلية. وعاصر ررميا النبي هذه الفترة من حكم يوياقيم. في ذلك الوقت فطن نبوخذ نصّر الى أعمال يوياقيم السرية لنصرة نخاو ملك مصر، فقام في عام ٦٠١ ق.م. باعتقال يوياقيم وتكبيله بالأغلال، وهدده بالنفي إذا لم يغير سياسته ويعمل صراحة في صالح نبوخذ نصّر. فخضع يوياقيم لتهديده، وعمل ثلاث سنوات لصالح نبوخذ نصّر، إلا أنه في عام ٩٥٧ عاد وأعلن التمرد والعصيان على حكم نبوخذ نصّر أملاً في أن يخرج نخاو ملك مصر لنجدته. إلا أن نبوخذ نصّر استأجر جنوداً من الآراميين والمؤابيين والعمونيين والكلدانيين ونظم بهم حملة على يهوذا وخاضوا ضدها العديد من المعارك. ومات يوياقيم في إحدى هذه المعارك(٣١).

(*) معركة قرقميش معركة أخرى غير تلك التي خاضها نخاو وزالت فيها دولة آشور. وهذه المعركة هي المعركة التي خاضها نبوخذ نصّر أشهر وأعظم ملوك الأسرة العاشرة والأخيرة التي ملكت بابل. وقد خاضها نبوخذ نصّر ضد نخاو ليطرده من بلدان آسيا كلها، والتي آل ملكها بعد ذلك الى الكلدانيين أو البابليين الجدد، واستمر نبوخذ نصّر في الحكم من عام ٦٠٥ حتى عام ٥٦٢ ق.م.

وملك بعد يوياقيم إبنه يهوياكين، وكان يبلغ آنذاك ثماني عشرة سنة. واستمر في الحكم ثلاثة أشهر فقط. حيث كانت المدينة مازالت محاصرة والحروب مستمرة، فما كان من نبوخذ نصّر إلا أن حضر بنفسه ليقمع هذه الثورة التي أزعجته. وما أن سمع يوياكين بقدوم نبوخذ نصّر حتى سلم نفسه دون قتال هو وأمه وباقي عائلته وأعلن الاستسلام، فأخذه نبوخذ نصّر هو وباقي عبيده وخصيانه وكل عظمائه وأجلاهم الى بابل . كما قام أيضاً بإجلاء وجهاء القوم وكان عددهم في ذلك الوقت عشرة آلاف نسمة. كما أجلى أيضاً الصناع المهرة وقادة الجيش. باختصار كان إجلاء نبوخذ نصّر ليهوذا في ذلك الوقت قاصراً على كل القادرين من العمال لحاجته الى الأيدي العاملة في بناء حضارة إمبراطوريته الناشئة.

وعيّن نبوخذ نصّر متانيا، عم يوياكين، ملكاً على يهوذا بدلاً منه وغير إسمه الى صدقيا. وكان عمره في ذلك الوقت إحدى وعشرين سنة واستمر في الحكم عشر سنوات من عام ٥٩٧ الى عام ٥٨٧ ق.م. واستمر هذا الملك يؤدي فروض الطاعة لنبوخذ نصّر إلا أنه في عام ٥٨٧ أعلن تمرده على طاعة نبوخذ نصّر فجاء نبوخذ نصّر بحملة عسكرية كبيرة وحاصر أورشليم لمدة عامين، استطاع خلالهما أن يضعف الحالة الاقتصادية داخل المدينة ويضعف أيضاً من معنويات سكانها. إلا أن صدقيا وكل قواده تمكنوا من الهرب ليلاً، من خلال فجوة فتحوها في السور وذهبوا في طريق الغور (وهو الطريق المؤدي الى منطقة البحر الميت). إلا أن جيوش نبوخذ نصّر فطنت الى هروب الملك وقامت بمطاردته الى أن القت القبض عليه في صحراء أريحا واقتيد الى بابل. لكن قبل ذهابهم به الى بابل قامت القوات بتنفيذ مشهد فظيع، إذ ذبحوا جميع بنيه أمام عينيه ثم بعد ذلك فقأوا عينيه وأوثقوه

بالسلاسل واقتادوه الى بابل. وبهد ذلك سقطت أورشليم في أيدي قوات نبوخذ نصّر وسرق جنوده ممتلكاتها من ذهب وفضة، كما قاموا بحرق الهيكل المقدس وقصر الملك ودكوا المدينة كلها ولم يتركوها إلا وهى خراب لا أثر لحياة فيها. وقامت القوات بهد ذلك بإجلاء كل من بقي على قيد الحياة من شعب يهوذا الى بابل للعمل هناك كعبيد .

لكن هذا لا يعني أن نبوخذ نصّر قد سبي الدولة كلها، وإنما انتقى القادرين فقط على العمل وأخذهم معه الى بابل. أما من تبقى من الشعب في يهوذا فقد تولى أمرهم في ذلك الوقت شخص يدعى جدليا. لكنه لم يعش طويلا. إذ قتله اليهود أيضاً، فما كان من اليهود في ذلك الوقت إلا أن نزحوا الى مصر وأسسوا فيها جالية عرفت فيما بعد باسم "يهود مصر".

وبهذا طوى التاريخ صفحة مملكة يهوذا في عام ٥٨٧ ق.م كما سبق وطوى من قبل صفحة مملكة إسرائيل في عام٧٢٢ق.م ليعيش اليهود بعد ذلك على الأطلال، ينعون ماضيهم في المنفى الى أن سمح لهم قورش بالعودة لبناء هيكل الرب ، كما سنرى فيما بعد. لكن الحياة لم تمهلهم كثيراً إذ تشردوا مرة أخرى ونهائية في عام٧٠م على يد تيتوس الروماني ليذوبوا تماماً بين أمم العالم. لكن نفاجأ بعد ذلك مرة أخرى في عام١٩٤٨ بظهور أخلاط تدعي أنها استمرار لهذه الجموع التي فقدت في التاريخ، لتقود حركة استعمارية إحلالية في فلسطين، وسنعود اليهم لاحقاً.

٣ـ علينا قبل أن ننهي تناولنا لهذه الفترة في التاريخ الإسرائيلي الإشارة الى أن الانحراف الديني الذي قاده الملوك لم يظهر إلا بعد وفاة سليمان. وربما يرجع السبب في ذلك الى أن سليمان كان قد فتح الباب

للتجارة الخارجية، كما أنشأ علاقات إسرية مع الملوك الأجانب، وهي سياسة أدت بدون شك الى تجديدات في العادات الاجتماعية الموروثة. كما أدت أيضاً الى تسرب العبادات الأجنبية الى المجتمع الإسرائيلي.

وكان من نتائج الثراء والترف الذي غرق فيه الإسرائيليون في أعقاب هذا الانفتاح الى وجود فوارق بين الطبقات ، فازداد الأغنياء غنى على غناهم وازداد الفقراء فقراً على فقرهم. كما ظهر نظام السخرة لأول مرة كحاجة ملحة اقتضتها ضرورة العصر لبناء قصور الملوك والمدائن الحصينة والهياكل الدينية. وأصبح جزءاً من التنظيم الاجتماعي الجديد وجود حاشية للملك وحشد كبير من الموظفين العسكريين والكهنة المسيسين(٣٢).

وهذا الوضع الذي ابتدأ مع سليمان استمر بصورة مشابهة في المملكة الشمالية تحت حكم أسرة عمري . وعندما أقر آحاب بن عمري عبادة بعل صيدا ووسع الحقوق الملكية فوق ما جرت عليه العادة التقليدية، وسقط في براثن الوثنية بإيعاز من زوجته إيزابيل، هب الأنبياء المصلحين الواحد تلو الآخر مستنكرين هذا الوضع وكان أشهرهم - كما سبق القول - إيليا التشبي.

هوامش ومراجع الفصل الأول

(١) قضاه ٣/٧

(٢) قضاه ٣/١٤

(٣) قضاه ٨/٢٢

(٤) قضاه ١٠/٦

(٥) قضاه ١٧/٦

(٦) قضاه ١١/١

(٧) قضاه ١٦

(٨) مزمور ١٠٦ من مزامير داود

(٩) قضاه ١/٧

(١٠) قضاه ٣/ ٥ ـ ٦

(١١) قضاه ٣/٨

(١٢) ليو تاكسل. التوراه كتاب مقدس أم جمع من الأساطير.
م.س.ذ ص ١٤٣

(١٣) قضاه ٩/١٠

(١٤) قضاه ١١/١٤

(١٥) قضاه ٢١/٢٢

(١٦) قضاه ٣٠/٣١

(١٧) قضاه ٨/ ٢٢ ـ ٢٥

(١٨) راجع سفر القضاه ١١/١٢

(١٩) قضاه ١١/ ٣٤ ـ ٤٠

(٢٠) قضاه ١٢/١٦

(٢١) ليو تاكسل.م.س.ذ. ص١٤٧

(٢٢) نفس المصدر ص١٤٩

هوامش ومراجع الفصل الثاني

(١) صموئيل الأول ٤/ ١٠ ـ ١١
(٢) صموئيل أول ٨/ ٥ ـ ٦
(٣) صموئيل أول ١٧/١
(٤) صموئيل أول ٨/ ١٠ &
(٥) راجع سفر صموئيل الأول الإصحاح العاشر
(٦) ليو تاكسل. م.س.ذ. ص١٦٤
(٧) نفس المصدر ص٢٦٥
(٨) صموئيل أول ١٥/ ٢ ـ٣
(٩) صموئيل أول ٢٨/١٥
(١٠) صموئيل أول ١٦/٦
(١١) صموئيل أول ٢٥/٢٤
(١٢) صموئيل أول ٣٠/٢٧
(١٣) صموئيل أول ١٩/ ١
(١٤) صموئيل أول ٩/٢١
(١٥) صموئيل أول ١٠/٢١
(١٦) صموئيل أول ٢٢/ ٢ ـ٤
(١٧) صموئيل أول ١/٢٧
(١٨) صموئيل أول ٢٨/ ١ـ٢
(١٩) صموئيل أول ١٧/ ٤٢ ـ٥٤
(٢٠) صموئيل أول ١٧/ ٥٥ ـ ٥٨
(٢١) ملوك ٢ ٢/١
(٢٢) ملوك ٢ ٢/٤
(٢٣) ملوك ٢ ٢/١١

هوامش ومراجع الفصل الأول

(١) قضاه ٣/٧
(٢) قضاه ٣/١٤
(٣) قضاه ٨/٢٢
(٤) قضاه ١٠/٦
(٥) قضاه ١٧/٦
(٦) قضاه ١١/١
(٧) قضاه ١٦
(٨) مزمور ١٠٦ من مزامير داود
(٩) قضاه ١/٧
(١٠) قضاه ٣/ ٥ ـ ٦
(١١) قضاه ٣/٨
(١٢) ليو تاكسل. التوراه كتاب مقدس أم جمع من الأساطير.
م.س.ذ ص ١٤٣
(١٣) قضاه ٩/١٠
(١٤) قضاه ١١/١٤
(١٥) قضاه ٢١/٢٢
(١٦) قضاه ٣٠/٣١
(١٧) قضاه ٨/ ٢٢ ـ ٢٥
(١٨) راجع سفر القضاه ١١/١٢
(١٩) قضاه ١١/ ٣٤ ـ ٤٠
(٢٠) قضاه ١٢/١٦
(٢١) ليو تاكسل.م.س.ذ. ص١٤٧
(٢٢) نفس المصدر ص١٤٩

(٩) نفس المصدر ص ٢٤٦
(١٠) ملوك أول ٧ / ٧ ـ &
(١١) ملوك أول ١٨/ ١ـ ٤٠
(١٢) أحمد سوسه. م.س.ذ ص ٤١٧
(١٣) راجع ملوك ٢ ٢٤/٦ & و ٧ &
(١٤) ملوك ٢ ٧/٨
(١٥) راجع ملوك ٢ الإصحاح العاشر
(١٦) ملوك ٢ ١٣/ ١ ـ ٨
(١٧) ملوك ٢ ١٣/ ٢ ـ ١٣ ، ١٤/ ٨ ـ ١٤
(١٨) ملوك ٢ ٢٣/١٤ &
(١٩) راجع ملوك٢ ١٥/ ٢ ـ١٣ ، ١٤/ ٨ ـ ١٤
(٢٠) ملوك ٢ ١٧/ ١ ـ ٤
(٢١) راجع ملوك ٢ ٨/ ١٦ ـ ٢٤
(٢٢) ملوك ٢ ١١/ ٤ ـ ١٣
(٢٣) ملوك ٢ ١٤/ ١ ـ ٢٠
(٢٤) راجع ملوك ٢ ١٦
(٢٥) ملوك ٢ ١٨/ ٣ ـ ٦
(٢٦) راجع ملوك ٢ /١٨
(٢٧) ملوك ٢ ١٩/ ٢٥ ـ ٧٧
(٢٨) ملوك ٢ ٢١/ ١٧ &
(٢٩) راجع أخبار الأيام ٢ ٢٣/ ٢١ ـ &
(٣٠) أخبار الأيام ٢ ٢٥/ ٢٠ ـ &
(٣١) راجع ملوك ٢ ٢٣/ ٢٤
(٣٢) ملوك ١ ٥/ ١٣ ـ ١٨

(٢٤) ملوك ٢ ٣/٧ ـ ١٦
(٢٥) ملوك ٢ ٥/ ٩ ـ١١
(٢٦) ليو تاكسل م.س.ذ ص.٢٤
(٢٧) نفس المصدر ص٢٤٢
(٢٨) راجع الملوك الثاني للتعرف على قصة داود مع زوجة أوريا
(٢٩) دافيد بن جوريون. ماذا بين شاءول وداود. مولاد م٥ ص٦٥٧
(٣٠) راعوث ١٨/٤
(٣١) ملوك أول ٣
(٣٢) ملوك أول٢/١ ـ ٣
(٣٣) ملوك أول ١/٣
(٣٤) راجع ملوك أول ٣/ ١٠ ـ ٢٦
(٣٥) ملوك أول ٣/ ١٠ ـ ٢٢
(٣٦) ملوك أول ٩/ ١٧ ـ ١٩
(٣٧) ملوك أول ٧/ &

هوامش ومراجع الفصل الثالث
(١) ملوك أول ١٢/ ١ ـ ٢
(٢) ملوك أول ١٣/ ١ ـ ٦
(٣) ملوك أول ١٤/ ١ ـ١٣
(٤) ملوك أول ١٦/ ٢٥ ـ ٢٧
(٥) ملوك أول ١٦/ ١ ـ ٦
(٦) ملوك أول ١٦/ ١٥ ـ ٢٠
(٧) ملوك أول ١٧/ ١ ـ ٦
(٨) جيمس فريزر . الفولكلور في العهد القديم م.س.ذ. ص٢٤٥

فهرس المحتويات

المقدمة.. ٥ - ٨٢
الباب الأول .... ٨٣ - ١٧٤
الفصل الأول.. ٨٨ - ١٣٢
الفصل الثاني.. ١٣٣- ١٧٤
الباب الثاني.. ١٧٥- ٢٦٠
الفصل الأول.. ١٧٦- ٢٤١
الفصل الثاني.. ٢٤٢- ٢٦٠
الباب الثالث.. ٢٦١- ٣٥٢
الفصل الأول.. ٢٦٢- ٢٧٩
الفصل الثاني.. ٢٨٠-٣٠٤
الفصل الثالث.. ٣٠٥ - ٣٥٢

رقم الإيداع

٢٠٠٣/٥٠٢٠